

عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

صورة المرأة في شعر العباس بن الأحنف

آية رفعت أديب الدجاني

رسالة ماجستير

القدس- فلسطين

1426هـ- 2005م

صورة المرأة في شعر العباس بن الأحنف

رسالة ماجستير مقدمة من الطالبة :
آية رفعت أديب الدجاني

بكالوريوس من جامعة القدس المفتوحة / بيت لحم سنة 1997م
إشراف
الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجه

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة
الماجستير في جامعة القدس

دائرة اللغة العربيّة / عمادة الدراسات العليا / جامعة القدس

تمّوز 2005 م

دائرة اللغة العربيّة
عمادة الدّراسات العليا

صورة المرأة في شعر العباس بن الأحنف

اسم الطّالبة : آية رفعت أديب الدّجاني .

الرّقم الجامعي : 9910245

المشرف : الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجة .

نوقشت هذه الرّسالة وأجيزت بتاريخ : 14 / 8 / 2005 .

من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتوقيعهم :

١ . الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجة رئيس لجنة المناقشة

التوقيع.....

٢ . الدكتور حسين الدراويش ممتحنًا داخليًا

التوقيع.....

٣ . الدكتور نبيل زيادة ممتحنًا خارجيًا

التوقيع.....

جامعة القدس

2005

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا
بِهِ فَتُخَبِّرَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

[الحج: 54].

بيان

أقرّ أنا مقدّم الرّسالة أنّها قدّمت لجامعة القدس لنيل درجة الماجستير، وأنّها نتيجة أبحاثي الخاصّة باستثناء ما تمّ الإشارة له حيثما ورد ، وأنّ هذه الرّسالة أو أي جزء منها لم يُقدّم لنيل أيّة درجة عليا لأيّ جامعة أو معهد .

التوقيع

آية رفعت أديب الدّجاني .

التاريخ : 2005 / 8/ 20 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

قال تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا }

(الفرقان : 45)

صدق الله العظيم .

إلى روح أمي _ رحمها الله _ بريق الأمل ، وآية عهدي على صدر الزمن

إلى شهداء فلسطين نجوم الفضاء الواسع ، ممزقي ثوب الليل
الأسود .

إلى كل أبناء شعبنا المشروبة أعناقهم من زرد
المشانق .

إلى كل السرايين في طريقي الموت
المؤدي إلى الحياة .

إلى كل المشعلين بحريق دمائهم مشاعل بوابات الماضي
السحيق .

إلى كل أفراد أسرتي تلكم النجوم القدسية بالخلد والوجدان

مني إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع ، راجية من المولى القدير أن
أكون قد وفقت فيه .

الشكرُ أفضلُ ما حاولتُ مُلتَمِسًا الله والنَّاس

به الزيادة عند

بعد إخراج هذا العمل ونضوجه أرى من واجبي أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى كل من أسهم معي بجهوده الخلاقة وتوجيهاته السديدة وآرائه النيرة .

وأول من أخصّ بالذكر أستاذي الدكتور إبراهيم الخواجة الذي تفضّل بالإشراف على هذه الرسالة فقد كان نعم المرشد ونعم المعلم ، حيث منحني من وقته وعلمه ما أنار لي الطريق وذلّل أمامي الصعاب فجزاه الله كلّ خير .

وإني لأمتنّ شاكرة أستاذتي الأجلّاء هؤلاء الجنود المجهولين أصحاب النظرة الثاقبة والكلمة المعبرة الذين لم يبخلوا عليّ بعصارة أفكارهم ونهل معين المعرفة منهم وخاصة على سبيل الذكر لا الحصر الدكتور محمود العطشان والدكتور خليل الحسيني اللذان كان لهما دورٌ كبيرٌ في تقديم النصّح والتوجيه والإرشاد فجزاهما الله عني خير الجزاء .

ولا أغفل واجبي بالشكر والتقدير إلى عضوي لجنة المناقشة الدكتور : حسين الدراويش ، والدكتور : نبيل زيادة ، لتفضلهما بقراءة هذه الرسالة والإسهام في إثرائها وسدّ نتوءاتها .

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة صورة المرأة في غزل العباس بن الأحنف، شاعر الغزل العفيف، وإمام العشاق الشرفاء، المتعبد في محراب محبوبة واحدة، الشاعر الذي كرم المرأة ورفع من شأنها فلم يمتنعها ولم ينتقصها قدرها، عاش هذا الشاعر في العصر العباسي الأول، وكان ظاهرة غريبة في القرن الثاني الهجري، الذي أذاع فيه شعراء الشهوة والفحش شعر التهنك والمجون.

وقد درس الباحثون العباس بن الأحنف وتناولوا حياته وشاعريته بشكل عام دون أن يهتموا بصورة المرأة التي يحملها شعره، وعليه فقد وجدت أنّ الصورة التي يحملها شعره تحمل ملامح شخصية المحبوبة بشكل تكاملت فيه الصورة الفنيّة مع المضمون الإنساني للمرأة.

اعتمدت في بحثي هذا على عدد من المصادر والمراجع التي تناولت الحديث عن العباس، وقد اتبعت في دراستي المنهج الوصفي التحليلي الشمولي في رسم صورة المرأة عنده من خلال دراسة متأنية لديوانه تتبعت فيها البنية الفنيّة لقصائده، وأبرزت جماليات اللغة والموسيقى عنده.

واقترضت الدراسة أن تكون في أربعة فصول يحتوي كل فصل على أربعة مباحث يسبق الفصول مقدّمة وتتلوها خاتمة. فكان الفصل الأول للحديث عن نسب العباس وبيئته الخاصة والعامّة، وآراء الأدباء والنقاد والفنانين فيه. والفصل الثاني كان للحديث عن الغزل قبل العباس وفي زمنه، ومكانته بين شعراء العشق، وأسس العشق عنده. أما الفصل الثالث فكان للحديث عن صورة المرأة ومكانتها عند شاعرنا. أمّا الفصل الأخير فكان دراسة فنيّة لشعره، فقد تناولت فيه أسلوب العباس ولغته، والصورة الشعرية، والمعاني عنده، وبناء القصيدة والأوزان والقوافي التي استخدمها.

وقد جاءت الخاتمة بمجموعة من النتائج التي توصل إليها البحث، ومن أهمّها أنّ العباس ابن الأحنف كان مخلصاً في رسم صورة جميلة للحب العفيف، فقد جمع بين أحاسيس البداوة وطهر

العذريّة في مزاج من أسلوب الحضارة وطراوة المدينة ، فغزله عذري طاهر نقي ، يمتاز بجزالة الألفاظ وعذوبتها ورقنتها وسهولتها الممتنعة ، وميلها إلى الشّعبيّة ، وقربها من الحياة اليوميّة ؛ ممّا جعل شعره أكثر الأشعار حظاً من الغناء وقد أجاده في القول من خلال استخدامه البحور الطويلة والقصيرة على حدّ سواء ؛ فكان أكثر شعراء الغزل استعمالاً للبحور الشّعريّة والقوافي العصيّة وحروف الروي غير المألوفة عند شعراء الغزل العذري في العصر الجاهلي وعصر بني أميّة .

Abstract

The objective of this research is to study the image of woman in romance of Al Abbas Ben Al Ahnaf . This romantic poet and the most decent romantic poet, whom he prays for a single love, this poet has respected the woman and put her in a good place through his poems . This poet lived in the First Abbasy Rule . He was a great and wired phenomenon in the second Hijri Decade in which the playful and dirty poets were so active.

The researchers studied the poet's romantic life in general with out giving any importance to the image of the woman in Al Abbas Ben Al Ahnaf Poetry . Describing and analyzing through a complete study for his book therefore I found that his poetry gives the artistic style of his love joined with the human interface of the woman .

The Study has been made upon many resources wish talks about Al Abbas and in the study I used the annalistic and descriptive method in drawing the image of the women in his poetry studying solely his poems discovering the beauty of the language and music that he used.

Divided to four chapters with an introduction at first and an end . Was the base of this study , So the first chapter talked about Al Abbas Roots, his news and environment.

In the first chapter I talked about Al Abbas Ben Al Ahnaf roots , his news , his nature and environment , describing the opinion of many writers and artists in him , and in the second chapter I talked about the romance poetry before and during his time about his place between the romantic poets and the basis of his poetry . In the third chapter I talked about the woman's image and place in his poems, and the last chapter was an artistic study to his poetry taking in consideration his style and language , the

artistical image and meanings , beside the method of building his poems and the rhythms that he used and utilized .

The end came with a group of results that the study has reached for and in the most important he was an honest person of drawing the sweet and beautiful image for the hard and deep love , joining between the bedwin's feelings inside him and the clean virtual mind in of developed style . His romance was clean and joins the flexibility , the sweetness and the popularity which was near to the daily life which gave his poetry a big chance to be used utilizing the short and the long rhythms and he was the most romantic poets using the unusual ends and letters known and used by other romantic poets before his age and the Umayad's age .

Abstract

The Image of Woman in Al Abbas Al Ahnaf Poetry

Prepared by student :
Ayah Rifat Adeeb Al Dajani

Supervised by :
Dr.Ibrahim Al khawaja

The objective of this research is to study the image of woman in romance of Al Abbas Ben AL Ahnaf . This romantic poet , and the most decent romantic poet whom he prays for a single love , this poet has respected the woman and put her in a good place through his poems.

This poet lived in the First Abbasy Rule . He was a great and wired phenomenon in the second Hijri Decade in which the playful and dirty poets were so active.

So the research is moving through clearing the image of the woman in Al Abbas Ben Al Ahnaf Poetry , describing and analyzing it through a complete study for his book.

The Study has been divided to four chapters with an introduction at first and an end.

First Chapter

Al Abbas Roots , his news and environment

In this first and the second parts I talked about Al Abbas Ben Al Ahnaf roots , his news , his nature and environment , describing the opinion of many writers and artists in him , this came in the second part of the research . But in the third and the fourth I talked about his general environment and nature and also about his personal nature .

Second Chapter

The romance before Al Abbas and at his time

In the first and the second parts I talked about romance before Al Abbas and at his time , and at the third part I took the place of Al Abbas Ben Al Ahnaf between the romantic poets , and in the fourth part I showed The base of romance for Al Abbas Ben Al Ahnaf .

Third Chapter

This image of woman for Al Abbas

In the first part of this chapter I talked about the place of woman to Al Abbas , and in the second part I talked about the old thoughts in his poetry and the living image for the woman in his poetry , even it was a little , and in the third part I talked about

the cultural signs in his poetry , and in the fourth part I talked about the sentimental image of the woman in his poetry .

Fourth Chapter

An Artistic Study

The fourth chapter was an artistically study for Al Abbas Ben Al Ahnaf`s poetry , and I talked in each part of four about Al Abbas style and language , poetical image in his poetry , the meanings , the building of his poem and rhymes . In this chapter I included a table showing the rhymes that Al Abbas has used in his poetry .

At the end I showed the thoughts conclusions and the results that were reached in this research

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، سيد الأنبياء ، وخاتم المرسلين
وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

أما بعد.....

فقد تناول هذا البحث صورة المرأة في شعر العباس بن الأحنف ، شاعر الغزل العفيف ، الذي عاش في العصر العباسي الأول ، العصر الذي لم يعرف أي عصر أدبي من الشعراء المجان ما عرفه القرن الثاني الهجري ، فهو ظاهرة فريدة بين شعراء العباسية الذين جرفتهم طبيعة العصر في تيارها العنيف ، فتعددت جوانب القول وتشعبت ميادين الشعر عند الواحد منهم . فقال في المديح والهجاء والفخر والرثاء ، ووصف الخمر والطبيعة ، وقال الغزل في المرأة والغلام على حد سواء ، أما شاعرنا فقد هجر هذه الفنون جميعاً ، وعاش للحب والغزل ، وأوقف غزله على محبوبة واحدة ، كرمها واحتفى بها ووضعها في مكانة رفيعة حين أحبها ووصفها ، فلم يجعل منها هدفاً للترفيه أو مقصدًا للشهوة مما سلكه في عقد العذريين قولاً ومعنى ورقة وإحساساً وابداعاً .

وقد لفت نظري شاعر مثل العباس بن الأحنف في القرن الثاني الهجري برقة أسلوبه ، وشفافية معانيه، مما دفعني إلى دراسة شعره من خلال ديوانه الذي جمع فيه أجمل القصائد ، والمقطوعات في محبوبته التي سماها " فوز " ، فقد راقني ما جاء فيه وحلت معانيه في نفسي محلاً عميقاً ، ولاقت قبولاً طيباً في قلبي كما في قلوب الأقدمين والمحدثين من محبي الشعر العذري العفيف .

وقد كُتِبَ كثير عن هذا الشاعر ، غير أن معظم الدارسين قد تناولوا حياته وشاعريته بشكل عام دون أن يولوا صورة المرأة التي يعكسها شعر العباس اهتماماً يذكر ، وعليه فقد وجدت أن الصورة التي يقدمها ابن الأحنف للمرأة باعتبارها شاعر الغزل العفيف الأول في العصر العباسي الأول ، وإمام العشاق الشرفاء ، ورافع راية الوجدان السليم ، يمكن أن تحمل ملامح الشخصية بشكل تكاملت فيه عند شاعرنا الصورة الفنية مع المضمون الإنساني الذي تمثلته المرأة .

اعتمدت في بحثي هذا على عدد من المصادر والمراجع وأهمها : كتاب الأغاني للأصفهاني ، وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة والعمدة للقيرواني ، وتاريخ بغداد للبغدادي ، وكتاب الشعر والشعراء لمصطفى الشكعة ، واتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ليوسف حسين بكار ، والأدب في عصر العباسيين لمحمد زغول سلام ، وعدد من

المعاجم مثل : معجم الأدباء لياقوت الحموي ، ومعجم الأعلام للزركلي ، والفهرست لابن النديم ، وكان اعتماداى الأكبر على ديوان العباس بن الأحنف لأنطوان نعيم .

وقد اتبعت منهجاً وصفيّاً تحليلياً شمولياً ، أوليت فيه عصر الشاعر وبيئته اهتماماً ، كما وتناولت في تتبّع دقيق البنية الفنيّة لقصائده ، وحاولت أنّ أقرأ الصّور الكثيرة التي تكاملت في قصائد الديوان ، وأبرزت جماليّات اللّغة والموسيقى الشعريّة الدّفاقة عند شاعرنا .

وقد جاء بحثي هذا في أربعة فصول وخاتمة ، ويحتوي كلّ فصل من هذه الفصول عل أربعة مباحث .

الفصل الأوّل : تحدّثت فيه عن نسب العباس وأخباره ، وكان هذا في المبحث الأوّل من الفصل ، وفي المبحث الثّاني عرضت آراء كبار الأدباء النقاد والفنّانين فيه ، وفي المبحث الثّالث تناولت الحديث عن بيئته العامّة ، وفي المبحث الرّابع تحدّثت عن بيئته الخاصّة وعن أسطورة موته .

الفصل الثّاني : قدمت فيه عن الغزل بشكل عامّ ، ثم انتقلت في المبحث الثّاني للحديث عن غزل الأحنف وفي ثالت عن مكانته بين شعراء العشاق ، وفي الرّابع عن أسس وشرائع العشاق عنده .

الفصل الثّالث : تناولت في هذا الفصل صورة المرأة عند شاعرنا ، فكان المبحث الأوّل للحديث عن المرأة ومكانتها عنده ، وعلى الأخصّ " فوز " التي كان لها نصيب الأسد في غزله ، وفي المبحث الثّاني تناولت صورة المرأة الحسيّة عند الشاعر وإن كان مقالاً فيها ، وتحدّثت عن الرّواسب القديمة في غزله ، وفي المبحث الثّالث تناولت المظاهر والأصباغ الحضاريّة في غزل ابن الأحنف ، أمّا المبحث الرّابع فكان عن صورة المرأة المعنوية كونها فتاة قصرية منعمة عفيفة تقية صالحة الدّين .

الفصل الرّابع : أمّا الفصل الأخير من البحث فكان دراسة فنيّة لشعره الغزلي ، فقد تناولت في المبحث الأوّل أسلوب العباس ولغته وما اتصفت به من رقة وسهولة وميل إلى الشعبيّة ، وفي المبحث الثّاني تحدّثت عن الصّورة الشعريّة عند العباس ، وفي المبحث الثّالث تناولت المعاني عنده؛ ما كان منها من معاني القدماء وما كان من ابتكاره ونالت استحسان الأدباء والنقاد في عصره ، وفي المبحث الرّابع تحدّثت عن بناء قصيدة الغزل في عصر العباس بن الأحنف بشكل عامّ ، وعن قصيدة الغزل عنده بشكل خاصّ ، وتحدّثت عن الأوزان والقوافي التي استخدمها العباس في قصائده ، وألحقت كلاً من الأوزان والقوافي بجدول يبيّن استخدام العباس لها .

وقد جاءت الخاتمة توضّح في مجملها مجموعة النّتائج التي توصل إليها البحث .

أُنسنتني متعة الدّراسة لشعر العباس ما واجهني أوّل الأمر من صعوبات تمثلت في اختيار البحث ، وصعوبة التّنقّل والوصول إلى المكتبات بسبب الحواجز. وقلة المصادر والمراجع حول هذا الموضوع داخل الوطن ، ممّا دفعني إلى توفيرها من بلدان أخرى . والتي استطعت من خلالها إخراج هذا البحث على هذه الصّورة .

ولا أملك إلا أن أقول : ما أنا إلا باحثة ، حاولت أن أقدم شيئاً ؛ فإن وفّقت في بعض ما قدّمت ، فقد نعمتُ برضاكم ؛ وألا فحسبي نصيب المجتهد وأجره ، ومن الله وحده نستمدّ العون والتّوفيق ، فهو نعم المولى ونعم المعين .

الفصل الأوّل :

نسب العباس وأخباره وبيئته

المبحث الأوّل :

نسب العباس بن الأحنف
وأخباره .

المبحث الثاني :

آراء كبار الأدباء والفنانين في
العباس .

المبحث الثالث :

بيئة العباس بن
الأحنف العامّة .

المبحث الرابع :

بيئة العباس بن الأحنف
الخاصّة .

المبحث الأول: * نسب العباس بن الأحنف وأخباره:

هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة بن جدان بن صلدة، من بني عدي بن حنيفة، وقيل: العباس بن الأحنف بن الأسود بن قدامة بن هميان من بني هقان بن الحرث بن الذهل ابن الدليل من بني حنيفة⁽¹⁾. كان من عرب خراسان، ونشأ ببغداد. وكان لطيفاً، ظريفاً، مقبولاً، حسن الشعر⁽²⁾. أصله من اليمامة في (نجد)، سكن بغداد إلى أن توفي 192هـ. قصر شعره على التغني بحبه من غير تصريح بعهر أو فحش⁽³⁾.

ومما يدل على أنه كان من بني حنيفة قوله للمرأة:

فإن يقتلوني لا يفوتوا بمهجتي مصاليت⁽⁴⁾ قومي من حنيفة أو عجل⁽⁵⁾ [الطويل]

وقد خُطى في توّعه المرأة بطلب قومه بنأره إذا هو قتل عشقاً، والعادة في مثل هذا من الشعراء أن يجعلوا القتل مطلوباً⁽⁶⁾.

ودليل آخر على أنه من بني حنيفة قول ابن المعتز: "حدثني عون بن جعفر عن محمد بن روح قال: وقع بين مسلم بن الوليد (صريع الغواني) وبين العباس بن الأحنف تهاج في أمر كان بينهما، فقال له مسلم يهجوه:

بنو حنيفة لا يرضى الدعي⁽⁷⁾ بهم فأترك حنيفة وأطلب غيرها نسبا [البسيط]

أذهب إلى عرب ترضى بن سبتهم⁽⁸⁾ إنني أرى لك وجهاً يشبه العربا

(1) - الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الفكر للجمع، بيروت، 1390هـ-1970م، 15/8.

(2) - ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، (د.ت)، 209/10.

(3) - الفخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص432.

(4) - ورد صدر البيت برواية أخرى: "ولو كنتم ممن يقاد لما ونت". مصاليت: جمع مصلات، وهم الشجعان الماضون في حوائجهم.

(5) - نعيم، أنطوان، ديوان العباس بن الأحنف، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ-1995م، ص285.

(6) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط3، 1421هـ-2001م، 827/2.

(7) - الدعي: المتهم في نسبه، أو الذي يدعي غير أبيه أو غير قومه.

(8) - ابن المعتز، عبد الله، طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ط1، 1998م، ص286.

" كان العباس بن الأحنف شاعراً ظريفاً، ومُفَوِّهاً⁽⁹⁾، منطقيّاً، مطبوعاً، وكان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة، وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق، وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يليق⁽¹⁰⁾ درهماً، ولا يحبس ما يملك، ويكفي أبا الفضل⁽¹¹⁾ .

" العباس بن الأحنف شاعرٌ مجيد، رقيق الشعر، من شعراء الدولة العباسية ، إلا أن كل شعره غزل، لا مديح فيه ولا هجاء ، ولا شيئاً من ضروب الشعر، شعره كله غاية في الجودة والانسجام والرقة، وله ديوان لطيف، يتداوله الناس، وفي بعض نسخه اختلاف⁽¹⁾ ، عمل شعره الصولي نحو مئة وخمسين ورقة⁽²⁾ .

" كان أهله في البصرة، وبها مات أبوه، خالف الشعراء في طريقتهم، فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيهاً⁽³⁾ .

" كان العباس شاعراً غزلاً، شريفاً، مطبوعاً، وله مذهب حسن، ولدبباجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح، ولا هجاء، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني⁽⁴⁾ .

ولقد شارك الأصفهاني رأيه جمهرة من الذين ترجموا للعباس إلا الخطيب البغدادي الذي كان صادقاً الصّدق كله حين قال عنه: "إنه لم يقل في المديح والهجاء إلا شيئاً نزرًا"⁽⁵⁾ ، وهو بهذا يكون من أدقّ القدامى ملاحظةً وأقربهم إلى الصّحة العلميّة. ففي ديوان العباس مقطوعتان في مدح الرّشيد إحداهما في بيتين فقط:

إِنَّمَا حَبَّبَ الْمَسِيرُ إِلَيْنَا أَنَّنَا نَسْتَطِيبُ مَا تَسْتَطِيبُ [الخفيف]

مَا نُبَالِي إِذَا صَحَبْنَا أَمِينَ اللَّهِ هَ هَارُونَ أَنْ يَطُولَ الْمَغِيبُ⁽⁶⁾

والأخرى في أربعة أبيات:

رَأَيْتَ أَنَّ اللَّهَ سُورًا إِنَّ مَنْ قَدْ كُنْتَ مُشْتَاقًا إِلَيْهِ قَدْ قَدِمَ [الرمل]

(9) - مفوّهاً: بليغاً .

(10) - لا يليق: لا يملك درهماً أو يعلق به، يحفظ، يدخر .

(11) - ابن المعتز، طبقات الشعراء المحدثين ، ص 286 .

(1) - الحموي ، ياقوت ، معجم الأدباء ، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، 1481/4-1482.

(2) - ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق: يوسف علي طويل ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ-1996م، ص 265 .

(3) - الزركلي ، خير الدين، معجم الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 13 ، 1998م ، 259/3 .

(4) - الأصفهاني ، الأغاني ، 15/8 .

(5) - البغدادي ، أحمد بن علي الخطيب، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط 1 ، 1931 ، 127/2 .

(6) - ديوانه ، ص 107 .

عِشْ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَسْرُورًا بِهِ فَيَزِيدُ اللَّهُ بِالشُّكْرِ النِّعَمَ
يَا أَمِينَ اللَّهِ وَالسَّاعِي لَهُ خَيْرُ دَاعٍ قَامَ فِي خَيْرِ الْأَمَمِ
حُبًّا الْأَرْضِ الَّتِي أُوطِنْتُهَا أَرْضُ عَزٍّ وَجِهَادٍ فَأَقِمْ⁽⁷⁾

وهناك بيتٌ آخر قاله حين اصطحبه الخليفة معه في رحلة إلى خراسان، فكانت مناسبة قال فيها الشاعر أربعة أبيات، مدح الخليفة والوزير ببيت واحد، واشتكى الهجرَ والجوى في ثلاثة:

أَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرَ هَذَا الْمَسِيرِ وَإِيَابًا فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورِ [الخفيف]
أَنَا فِي عَسْكَرٍ لَخَيْرِ إِمَامٍ زَانَهُ رَبُّهُ بِخَيْرِ وَزِيرِ

غَيْرَ أَنِّي نَغَّصْتُ مَا أَنَا فِيهِ بِمَتَاحِ مِنَ الْهَوَى مَقْدُورِ (1)
وَبِهَجْرٍ مِنَ الْحَبِيبِ فَلَا تَسُدُّ أَلَّ بِأَحْوَالِ عَاشِقٍ مَهْجُورِ (2)

من الملاحظ أنه مديحٌ ركيك، والامتناع عن فعله خير من فعله ، وذلك لأنه لم يكن مداحًا ، وإنما كان غزلاً شكَّاءً .

والى جانب هذه الأبيات القليلة في المديح ، نجد في شعره مقطوعات في الرثاء ، قال بعضها على لسان الرشيدي في رثاء جواريه ، منها مقطوعة في رثاء هيلانة جارية الرشيدي ، وفيها يقول :

أَبْغِي صَبًّا مِنْ بَعْدِ هَيْلَانَةَ إِذَا أَرَانِي مُلْغَى مِنْ وَفَاءِ الْحَبَائِبِ (3) [الطويل]

سَأَوْحِشُ قَلْبِي بَعْدَهَا مِنْ سُرُورِهِ وَأُؤْنِسُ عَيْنِي بِالدُّمُوعِ السَّوَائِبِ

إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنِي لِحَرِّ مُصِيبَةٍ تَمَثَّلْتُ قَوْلَ الْمُتَبَلَّى بِالمَصَائِبِ

أَجِدْكَ مَا تَعْفُو كُلُّومَ مُصِيبَةٍ عَلَى صَاحِبٍ إِلَّا فُجِعْتَ بِصَاحِبِ (4)

وثمة مقطوعة أخرى في رثاء جارية للرشيدي ، لم يذكر اسمها ، قالها على لسان الرشيدي في أربعة أبيات أيضاً ، هي :

يَا مَنْ تَبَاشَرْتَ الْقُبُورَ بِمَوْتِهِ قَصَدَ الزَّمَانَ لِمَهْلَكِي فَرَمَاكِ [الكامل]

أَبْغِي الْأَنْبِيسَ فَلَا أَرَى لِي مُؤْنَسًا إِلَّا التَّرَدُّدَ حَيْثُ كُنْتُ أَرَاكِ

مَلِكٌ بَكَكَ فَطَالَ بَعْدَكَ حُزْنُهُ لَوْ يَسْتَطِيعُ بِمُلْكِهِ لَفَدَاكِ

يَحْمِي الْفُؤَادَ مِنَ النَّسَاءِ حَفِيفَةً كَيْ لَا يَحُلَّ حَمَى الْفُؤَادِ سِوَاكِ (5)

كما رثى جارية الرشيدي "ضياء" في مقطوعة في ثلاثة أبيات ، قال :

أَلَا إِنَّ صَفْوَ الْعَيْشِ بَعْدَكَ أَكْدَرُ وَكُلَّ نَعِيمٍ سَوْفَ يُقْلَى وَيُهْجَرُ [الطويل]

(7) - نفسه ، ص 334 .

لَعْمَرِي نَعِيمَ الْمُسْتَعَاثُ بِهِ الْبُكَاءُ إِذَا فَنِي الصَّبْرُ الَّذِي كَانَ يُذْخِرُ
سَأْبُكِي ضِيَاءَ مُسْتَقْلًا لَهَا الْبُكَاءُ وَيُسْعِدُنِي يَحْيَى وَفَضْلٌ وَجَعْفَرُ (6)

نُلاحظُ أَنَّ طبيعَةَ حياة العَبَّاسِ وصلته بالخليفة هارون الرَّشيد هي التي حتمت عليه القول في الرِّثاءِ ، فهو لم يطلق الرِّثاءَ بشكل مباشر ، وإنما أطلقه على لسانِ الرَّشيدِ نفسه ، فجاءَ رثاءُ هزيلًا ، بل عزاءً بغير روح.

(1) _ في رواية أخرى : غير أنني أبغضت ما أنا فيه بمناخ من الهوى مقرر .

(2) _ ديوانه ، ص 221 .

(3) _ في رواية أخرى : أتلقى ضياء بعد هيلانة البلى أراني ملقى من وفاة الحباب .

(4) _ ديوانه ، ص 107 _ 108 .

(5) _ نفسه ، ص 284 .

(6) _ نفسه ، ص 221 .

وللعَبَّاسِ قصيدة طويلة في سبعةٍ وأربعين بيتًا وصفَ فيها الكرة والصَّولجان واللَّعبَ بهما .

والعَبَّاسُ بن الأحنف ذكرَ في شعره مرّةً واحدةً معنًى اجتماعيًا إنسانيًا يمسُّ أوتارَ القلوبِ ،

ويهزُّها هزًّا عنيقًا حين وصفَ الفقيرَ ورثى لحاله ولمكانه في المجتمع ، ومشاعر الخلق نحوه حتَّى

الكلاب بقوله: (1)

يَمْشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدَّهُ وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا [الكامل]

وَتَرَاهُ مَبْغُوضًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ وَيَرَى الْعِدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا

حَتَّى الْكِلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا ثَرْوَةٍ خَضَعَتْ لَدَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَدْنَابَهَا

وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَابِرًا نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أَنْيَابَهَا (2)

إنَّ هذه الأبيات من أعمق وأمتع ما قيلَ في القيم الإنسانية والمعاني الاجتماعية في الشعر

العربي .

أمَّا الهجاء فقد كان أبو الهذيل العلاف يبيغض العباس بن الأحنف ويلعنه لقوله:

إِذَا أَرَدْتَ سُلُوكًا كَانَ نَاصِرُكُمْ قَلْبِي وَمَا أَنَا مِنْ قَلْبِي بِمُنْتَصِرٍ [البسيط]

فَأَكْثَرُوا أَوْ أَقَلُّوا مِنْ إِسَاءَتِكُمْ فَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَدْرِ (3)

(1) - الشكعة ، مصطفى، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1980م ، ص 348.

(2) - ديوانه ، ص 112 .

(3) - نفسه ، ص 184-185 .

فَكَانَ أَبُو الْهَذِيلِ يَلْعَنُهُ لِهَذَا وَيَقُولُ: "يَعْقِدُ الْكُفْرَ وَالْفَجْورَ فِي شِعْرِهِ"، وَقَدْ هَجَاهُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ فِي بَيْتَيْنِ، وَلَمْ يُسْمَعْ لِلْعَبَّاسِ هَجَاءٌ غَيْرُهُ.

يَا مَنْ يُكْذِبُ أَخْبَارَ الرَّسُولِ لَقَدْ أَخْطَأْتَ فِي كُلِّ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ [البسيط]

كَذَّبْتَ بِالْقَدْرِ الْجَارِي عَلَيْكَ فَقَدْ أَتَاكَ مِنِّي بِمَا لَا تَشْتَهِي الْقَدْرُ⁽⁴⁾

وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَغْضَبَ الشَّاعِرُ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا إِلَّا فِي نَظَرِ أَبِي الْهَذِيلِ فَأَنْشَأَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ تَأْرَ فِيهِمَا لِنَفْسِهِ وَسَخَرَ مِنْ أَبِي الْهَذِيلِ وَجَمَاعَتِهِ وَمَعْتَقَدَاتِهِمْ بِعَامَّةٍ وَبِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ الْجَارِي عَلَى مَهْجُوِّهِ.

إِنَّ الْمَتَّبِعَ لِلْعَبَّاسِ فِي دِيْوَانِهِ لَا تَكَادُ تَقَعُ عَيْنَاهُ إِلَّا عَلَى الْغَزْلِ الرَّقِيقِ الَّذِي تَتَنَازَعُهُ مَدْرَسَةُ جَمِيلٍ حِينًا، وَمَدْرَسَةُ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ حِينًا آخَرَ؛ وَإِنْ لَمْ تَجْرِ عَلَى لِسَانِهِ عِبَارَاتُ الْفَجْرِ وَالْفَافِظِ الْفَحْشِ الَّتِي كَانَتْ تَجْرِي أحيانًا عَلَى لِسَانِ عَمْرِ، وَلَعَلَّ الْعَبَّاسَ قَدْ صَدَقَ فِي وَصْفِ نَفْسِهِ حِينَ قَالَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

تَأْدُنُونَ لِصَبِّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ [البسيط]

لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفَّ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظْرِ⁽¹⁾

وَهَذَا مَعْنَى جَدِيدٍ عَلَى الشَّعْرِ، غَرِيبٌ عَلَى الشَّعْرَاءِ، بِحَيْثُ عَلَّقَ عَلَيْهِ الْأَصْمَعِيُّ قَائِلًا: " مَا زَالَ هَذَا الْفَتَى يُدْخِلُ يَدَهُ فِي جِرَابِهِ فَلَا يَخْرُجُ شَيْئًا، حَتَّى أَدْخَلَهَا فَأَخْرَجَ هَذَا"⁽²⁾.

حِينَ أَوْقَفَ الْعَبَّاسُ شِعْرَهُ عَلَى الْغَزْلِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ فُنُونِ الشَّعْرِ كَانَ يَعْمَدُ إِلَى اتِّخَاذِ ذَلِكَ مَسْلَكًا، وَالتَّزَامَهُ مِنْهَجًا، غَيْرَ مَبَالٍ بِالَّذِينَ اتَّهَمُوهُ بِقِصْرِ الْبَاعِ فِي الشَّعْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعِدِّدِ الْقَوْلَ فِي فُنُونِهِ الْمَخْتَلِفَةِ، فَقَالَ:

لِحُونِي فِي الْقَرِيضِ فَقُلْتُ أَلْهُو وَمَا مِنِّي الْهَجَاءُ وَلَا الْمَدِيحُ⁽³⁾ [الوافر]

(4) - الأصفهاني، الأغاني، 16 / 8 .

(1) - ديوانه، ص 216 .

(2) - الأصفهاني، الأغاني، 17 / 8 .

(3) - ديوانه، ص 125 .

أسطورة وفاة العباس:

يروى الأصمعي قصة وفاة العباس بن الأحنف ، فيقول :
 " بينما ذات يوم قاعدٌ في مجلس بالبصرة ، فإذا أنا بـغلام ، أحسن الناس وجهًا واقف على رأسي
 فقال : مولاي يريدُ أن يوصي إليك ، فقامت معه ، فأخذ بيدي حتى أخرجني إلى الصحراء ، فإذا أنا
 بالعباس بن الأحنف ملقًى على فراشه ، وإذا هو يجودُ بنفسه وهو يقول :

يا بعيدَ الدارِ عن وطنِةٍ مُفرداً يبكي على شجِنِةٍ [المديد]
 كُلمًا جدَّ البكاءُ به دبَّتِ الأسقامُ في بدنِةٍ (1)

ثم أغمي عليه ، فانتهبه على صوت طائر على شجرة وهو يقول:

ولقد زاد الفؤادَ شجبي هاتفَ يبكي على فننه [المديد]
شفه ما شفني فبكي كلنا يبكي على سكنه (2)

ثم أغمي عليه فظننتها مثل الأولى ، فحركتُهُ فإذا هو ميت " (3)
وروى المسعودي القصة في شكل آخر على طريق الحجاج حيث استدعى غلام العباس بعض
الحجاج المارة الذين حضروا وفاته وقاموا على دفنه. الروايتان متفقتان في الشعر الذي أنشده العباس
قبل الإغماء ، والشعر الذي أنشده عند سماعه صوت الطائر . (4)

وهكذا يكون العباس قد عاش حياته شعراً وعشقا ، وتنفس طوال حياته حباً وشعراً ، وهاهو يسلم
روحه على قارعة الطريق ، وهو ينشد شعراً ، ويبكي حباً ، ويذوب عشقاً .

- (1) _ ديوانه ، ص 362 ، 363 .
(2) _ نفسه ، نفس الصفحات .
(3) _ البغدادي ، أحمد بن علي الخطيب ، تاريخ بغداد ، 12 / 132_133 .
(4) _ المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ، تحقيق :محمد محبي الدين عبد الحميد ، دار الزجا للنشر والطبع ، (د.م) ،
(د.ت) ، 4 / 109 .

المبحث الثاني: * آراء كبار الأدباء القدماء والنقاد وكبار الفنانين في العباس:

عاش العباس بن الأحنف حياته للحب والشعر، وسخر ملكته الفنية السخية للفن وحده، يسعد
به الناس دون أجر، ويدخل السلوى إلى قلوب العشاق دون جزاء. فلم يمدح خليفة أو وزيراً أو
صاحباً، ولم يهج خصماً أو حاقداً أو مبغضاً إلا نادراً جداً، فكان قيثارة عذبة الإيقاع على شفني
الزمان. وطائراً غريداً يشدو بأرق الأنغام، وأعذب الألحان. كانت حياته مسرحية عاطفية رائعة
تخللتها حرارة الحب، ومرارة الصدد، وحرقة الشكوى، ولوعة العشق، وفرحة الوصل، وأمل اللقاء،
ومشاهدُ الحرمان.

لقد قصر العباسُ فنَّه على الحبِّ والعشْقِ صدًّا ووصلاً، وحنينًا وأنيبًا، ولوعةً وشكوى، ومكابنة ولقاء، ووصفًا للحبيبةِ وولهاً بها. وفرحًا بلقائها وبكاءً على فراقها، وألمًا لرحيلها. وصف الشوق وطول الليل وامتناع النوم وطول الهجر، وغاص إلى نفوس العاشقين والمحبين. ولئن عاب بعضُ النَّاسِ على العباسِ أنه قصر شعره على الغزل وجعلوا من ذلك علامةً فُصور، فإنَّ كبيرَ بُلغاءِ العربيَّةِ أبا عثمان الجاحظ يجعل من ذلك آية نبوغٍ وعبقريَّةٍ حين قال: "لولا أنَّ العباسَ بن الأحنف أحذق النَّاسِ وأشعرهم، وأوسعهم كلامًا وخاطرًا، ما قدر أن يجعل شعره في مذهبٍ واحدٍ لا يجاوزه، لأنَّه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسَّب ولا يتصرَّف. وما نعلمُ شاعرًا واحدًا لزم فنًّا واحدًا لزومه فأحسنَ فيه وأكثر" (1).

ولم يكن الجاحظ وحده المُعجب بشاعريَّةِ العباسِ بن الأحنف المأخوذ برقَّةِ معانيه، المفتون بعذوبة شخصيَّته، بل إنَّ كثيرينَ غيره من ذوي القدرِ الرِّفيعِ من أدباءِ العربيَّةِ وتُفادها يشاركون الجاحظَ رأيه، فهذا الأصمعيّ كبير رواة الشعر العربي، وصاحب الأخبار الطريفة والنوادر العذبة يُسألُ عن أحسنِ ما يحفظُ من شعرِ المحدثين، فيقول قولَ العباسِ بن الأحنف (2):

لَوْ كُنْتُ عَاتِبَةً لَسَكَنْ رَوْعِي أَمَلِي رِضَاكَ وَرُزْتُ غَيْرَ مُرَاقِبٍ [الكامل]
لَكِنْ مَلَّتْ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً صَدَّ الْمُلُولِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ
مَا ضَرَّ مَنْ قَطَعَ الرَّجَاءَ بِبُخْلِهِ لَوْ كَانَ عَلَّنِي بَوَعْدِ كَادِبِ
الْهَمُّ أَصْبَحَ يَا "ظُلُومٌ" مُقَارِنِي وَالْهَمُّ شَرُّ مُقَارِنٍ وَمُصَاحِبِ (3)

وكان بين الأصمعيِّ والعباسِ بن الأحنف معاتباتٌ كثيرةٌ ومطارحاتٌ لطيفة جري أكثرها في مجلس الرشيدي الذي كان يعجب بالأدبيين الكبارين. وقد أبدى الأصمعيُّ إعجابَه بقول العباس:

أَتَأْدُنُونَ لِيَصَبَّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ [البسيط]
لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفَّ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ (1)

ومضى الأصمعيُّ إلى القول:

" ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئاً، حتى أدخلها فأخرج هذا " (2).

(1) - الأصفهاني، الأغاني، 16/8.

(2) - المصدر السابق، نفس الصفحة.

(3) - ديوانه، ص 79-80.

(1) - ديوانه، ص 216.

(2) - الأصفهاني، الأغاني، 17/8.

ولم يكن الأصمعيّ وحده بين كبار أدباء العربيّة المُعجب بهذه الأبيات الغزليّة الرقيقة،
وإنّما شاركه في ذلك عبد الله بن المعتز الأديب النّاقذ الذّواقه ضمنَ ترجمته للعبّاس، ويمضي ابنُ
المعتزّ في إظهارِ استحسانه لشعر العبّاس بن الأحنف وافتتانه بمعانيه حين يُردّد قولَ العبّاس:

أُحْرِمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا [المنسرح]
صِرْتُ كَأَنِّي ذِبَالَةٌ نُصِبْتُ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ⁽³⁾

ثمّ يشفع ابنُ المعتزّ إعجابه بقوله: " إنَّ هذا القولَ من بديع ما للعبّاس وطريفه، ومما ليس
لأحد في معناه شيء يدانيه"⁽⁴⁾.

وكان المُعنيّ الأديب الفنّان إبراهيم الموصلي كثير الإعجاب بشعر العبّاس حتّى أنّه لم يُغنَّ
شعر أحدٍ من الشعراء أكثر ممّا غنّى في شعر ذي الرّمّة والعبّاس⁽⁵⁾.

وأما إسحق بن إبراهيم الموصلي، وهو ذروة من ذرى الأدب والشعر والنقد والعزف
والغناء والحكمة في تيار الحضارة العبّاسيّة، فكان من الإعجاب بالعبّاس لا يفتأ يردّد قوله⁽⁶⁾:

قِفَا خَبْرَانِي أَيُّهَا الرَّجُلَانِ عَنِ النَّوْمِ إِنَّ الْهَجْرَ عَنْهُ نَهَانِي [الطويل]
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ صِفَا النَّوْمَ لِي إِنْ كُنْتُمَا تَصِفَانِ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَى النَّوْمِ فَأَعْلَمَا وَلَا عَهْدَ لِي بِالنَّوْمِ مِنْذُ زَمَانِ⁽⁷⁾

ويُفتنُّ العبّاس بن الأحنف كبار شعراء زمانه وعلى رأسهم شيخ الشعراء المخضرمين في
العصر العبّاسي وإمام مدرسة المُحدثين بشار بن برد وهو ضنين بإطراء الشعراء طبعًا وسجّيّة
واستكبارًا ولكنّه يسمع قول العبّاس:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَذِّبُ نَفْسَهُ أَقْصِرْ فَإِنَّ شِفَاءَكَ الْإِقْصَارُ [الكامل]
نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ عَيْنًا يُعِينُكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ⁽¹⁾

فلا يلبث الشّاعر الكبير أن يُعلّق قائلاً: " ما زال غلامٌ من بني حنيفة يدخل نفسه فينا
ويخرجها حتّى قال هذا الشعر"⁽²⁾.

(3) - ديوانه ، ص 271 .

(4) - ابن المعتز ، طبقات الشعراء المحدثين ، ص 287 .

(5) - الأصفهاني ، الأغاني ، 20/8 .

(6) - المصدر السابق ، 18/8 .

(7) - ديوانه ، ص 367 .

(1) - ديوانه ، ص 182 .

وإنَّ الشَّاعِرَ الكَبِيرَ أبا العتاهية وهو كثير التَّصَادُمِ مع شعراء زمانه يقول: " ما حَسَدْتُ أَحَدًا
إِلَّا العَبَّاسَ بنَ الأَحْنَفِ في قَوْلِهِ:

إِذَا امْتَنَعَ القَرِيبُ فَلَمْ تَنْلُهُ عَلَى قُرْبِ فَذَاكَ هُوَ البَعِيدُ⁽³⁾ [الوافر]

فإني كنت أولى به منه وهو بشعري أشبه منه بشعره⁽⁴⁾.

روى الأديب أحمد بن إبراهيم قال: "أتاني أعرابي فصيح ظريف ، فجعلت أكتب عنه أشياء
حسانًا، ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحضريين فأنشدته للعباس بن الأحنف:

نَكَرْتُكَ بِالتَّفَّاحِ لَمَّا شَمَمْتُهُ وَبِالرَّاحِ لَمَّا قَابَلْتِ أَوْجَةَ الشَّرْبِ [الطويل]

تَذَكَّرْتُ بِالتَّفَّاحِ مِنْكَ سَوَالِفًا وَبِالرَّاحِ طَعْمًا مِنْ مُقَبَّلِكَ العُذْبِ⁽⁵⁾

فقال: هذا عندك، وأنت تكتب عني، لا أنشدك بعد هذا⁽⁶⁾.

وهذا الأديب عبد الله بن العباس بن الفضل يقول: "ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن
الأحنف⁽⁷⁾:"

سُبْحَانَ رَبِّ الغَلا مَا كَانَ أَغْفَلَنِي عَمَّا دَهَنَتِي بِهِ الأَيَّامُ وَالزَّمَنُ [البسيط]

مِنْ لَمْ يَذُقْ فُرْقَةَ الأَحْبَابِ ثُمَّ يَرَى آثَارَهُمْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَدْرِ مَا الحَزَنُ⁽⁸⁾

ويروي الأصفهاني عن إبراهيم الصولي قوله في الإعجاب بشعر خاله: "ما رأيتُ كلامًا محدثًا
أجزل رقة ولا أصعب سهولة ولا أبلغ في إيجاز من قول العباس بن الأحنف:

تَعَالَوْا نُجَدِّدْ دَارِسَ العَهْدِ بَيْنَنَا كِلَانًا عَلَى طُولِ الجَفَاءِ مَلُومٌ⁽⁹⁾ [الطويل]

ويُتَّبَعُ ذلك بقوله:

بَكَي الدِّينِ أَذْأَفُونِي مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي لِلْهُوَى رَقَدُوا⁽¹⁰⁾ [البسيط]

ويُنشِدُ إبراهيم الصولي من شعر خاله لأبي حاتم السجستاني هذه الأبيات:

(2) - القالي ، أبو علي ، الأمالي ، المطبعة الكبرى الاميريّة ، مصر ، ط1 ، 1324هـ ، 212/1 .

(3) - ديوانه ، ص158 .

(4) - الأصفهاني ، الأغاني ، 19/8 .

(5) - ديوانه ، ص89 .

(6) - الأصفهاني ، الأغاني ، 18/8 ، 19 .

(7) - المصدر السابق ، 19/8 .

(8) - ديوانه ، ص355 .

(9) - نفسه ، 333 .

(10) - نفسه ، ص142 .

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَا رَقَّ لِلْوَالِدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ⁽¹⁾ [الكامل]

وقوله:

لَكِنْ مَلَأْتِ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً صَدُّ الْمُلُودِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ⁽²⁾ [الكامل]

وقوله:

حَتَّى إِذَا اقْتَحَمَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ⁽³⁾ [الكامل]

ثم يمضي إبراهيم قائلاً لأبي حاتم: "هذا والله ما لا يقدر أحد أن يقول مثله أبداً"⁽⁴⁾.

هذا ما كان من شأن إعجاب الأقدمين من الأدباء والنقاد في تقييم شعر العباس بن الأحنف وإبداء الإعجاب به، غير أن شخصية العباس وخلقه وسلوكه لم تكن ثقل رقةً وعدوبةً ونقاءً عن رقة شعره وعدوبته ونقاؤه. فلقد كان - حسبما وصفه - محمد بن عامر الحنفي شاعراً ظريفاً ومفوهاً منطقياً مطبوعاً، وكان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة، وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاقٍ وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يبقي المال في يديه ولا يحبس ما يملك⁽⁵⁾.

ويصفه إبراهيم بن العباس الصولي - وكان وثيق الصلة به بحكم كونه ابن أخته - فيقول: "كان والله إذا تكلم، لم يحب سامعه أن يسكت، وكان فصيحاً، جميلاً، ظريف اللسان، لو شئت أن تقول إن كلامه كله شعر لقلت"⁽⁶⁾.

ويحدّد أديب العراق أبو العباس المبرد معالم شخصية ابن الأحنف في قوله: "كان من الظرفاء، ولم يكن من الخلاء، وكان غزلاً، ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة، ملوكي المذهب، شديد الترف"⁽⁷⁾.

وفيه يقول الحصري كان العباس كما قال بعض من وصفه: "أحسن خلق الله إذا حدث حديثاً، وأحسنهم إذا حدث استماعاً، وأمسكهم عن ملاحاة إذا خولف، وكان ملوكي المذهب، ظاهر النعمة، حسن الهيئة، وكانت فيه آلات الظرف، كان جميل الوجه، فاره المركب، نظيف

(1) - ديوانه، ص 139.

(2) - نفسه، ص 79.

(3) - نفسه، ص 182.

(4) - الأصفهاني، الأغاني، 17/8.

(5) - ابن المعتز، طبقات الشعراء المحدثين، ص 286.

(6) - الأصفهاني، الأغاني، 15/8.

(7) - المصدر السابق، نفس الصفحة.

الثوب، حسن الألفاظ ، كثير النوادر، رطب الحديث ، باقياً على الشراب، كثير المساعدة، شديد الاحتمال، ولم يكن هجاءً ، ولا مداحاً ، كان يتنزه عن ذلك، ويشبهه من المتقدمين بعمر بن أبي

ربيعة⁽¹⁾

وكان النقاد يشبهون العباس بن الأحنف في غزله بعمر بن أبي ربيعة، إذ كان كلامه -ككلام عمر- مشاكلاً لكلام النساء وموافقاً لطباعهن، ثم إنه كان في غزله هذا غزير الفكر، واسع الكلام، كثير التصرف، وكان العلماء بالشعر يُقدّمونه على كثير من المحدثين. وأشار غرونباوم إلى أثر شعر العباس في شعر شعراء التروبادور⁽²⁾.

وقال الصولي: سمعتُ سعيد بن جنيب يقول: "ما أعرف أحسن من شعر العباس في إخفاء أمره حيث يقول⁽³⁾:

أريدك بالكلام فَأَتَقِيهِمْ فَأَعْمَدُ بِالْكَلامِ إِلَى سِوَاكَ [الوافر]
وَأَكْتُرُ فِيهِمْ ضَحْكَي لِيُخْفِيَ فِسْنِي ضَاحِكٌ وَالْقَلْبُ بِأَك(4)

وقال الصولي: حدّثني المغيرة بن محمد قال: سمعتُ الزبير بن بكار يقول: "ابن الأحنف أشعر الناس في قوله:

تَعْتَلُّ بِالشُّغْلِ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا الشُّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشُّغْلُ لِلْبَدَنِ (5) [البسيط]

ويقول: لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيراً وشرها إلا وهو يصلح أن يتمثل فيه بهذا النصف الأخير".⁽⁶⁾

(1) _ الحصري ، إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب ، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا ، دمشق، ط1 ، 1996 ، ص342 .

(2)- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1975م، 142/2.

(3) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 8 / 18 .

(4) _ ديوانه ، 282 .

(5) _ نفسه ، ص 361 .

(6) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 8 / 18 .

(7) _ ديوانه ، ص 245 .

وقال الصولي حدّثني علي بن نصرٍ قال حدّثني خالي أحمد بن مروان قال: "كان بين **الوائق** وبين بعض جواريه شرّ، فخرج كسلان، فلم أزل أنا والفتحُ بنُ خاقان نحتالُ لنشاطه فرآني أضاحك الفتحُ فقال: قاتل الله ابن الأحنف حيث يقول:

عَدْلٌ مِنْ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَضْحَكَهَا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدْلٌ كُلُّ مَا صَنَعَا [البسيط]

الْيَوْمَ أَبْكِي عَلَى قَلْبِي وَأُنْدِبُهُ قَلْبُ أَلْحَ عَلَيْهِ الْحُبُّ فَأَنْصَدَعَا (7)

فقال الفتحُ: أنت والله يا أمير المؤمنين في وضع التمثّل موضعه أشعر منه وأعلم وأظرف".

وقيل كان للوائق جارية يهواها، وقد جرى بينهما عتبٌ فقالت له: "إن كنت تستطيلُ بعزّ الخلافة فأنا أدلّ بعزّ الحبّ، أترّك لم تسمع بخليفة عشق قبلك قطّ، فاستوفى من معشوقه حقّه؟ ولكّني لا

أرى لي نظيراً في طاعتك. فقال الواثقُ: لله درّ ابن الأحنف حيث يقول(1):

أَمَا تَحْسِبِنِي أَرَى الْعَاشِقِينَ بَلَى ثُمَّ لَسْتُ أَرَى لِي نَظِيرًا [المتقارب]

لَعَلَّ الَّذِي بِيَدَيْهِ الْأُمُورُ سَيَجْعَلُ فِي الْكُرْهِ خَيْرًا كَثِيرًا (2)

سئل أبو نواس عن العباسِ _ وقد ضمّهما مجلس فقال: " هو أرقُّ من الوهم، وأحسن من الفهم".

وقيل لعنان جارية الناطفي: من أشعر الناس؟ قالت: الذي يقول(3):

وَأَهْجُرْكُمْ حَتَّى يَقُولُوا لَقَدْ سَلَاَ وَلَسْتُ بِسَالٍ عَنْ هَوَاكِ إِلَى الْحَشْرِ [الطويل]

وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُحِبُّ عَلَى الَّذِي يُحِبُّ شَفِيقًا نَزَعَ النَّاسَ بِالْهَجْرِ (4)

وقال عنه الجحّري: "أغزلُ الناس" (5).

وهناك من ترصد للعباس بن الأحنف من علماء عصره ممن درجت أذواقهم على شعر القدماء، وداروا في دائرة السلف. فلم يرتضوا إلاّ النهج الذي نهجوه، فتوقفوا عند حدود القرن الثاني من شعر قاله الأمويون وبعض من قلدوهم، ولم يعترفوا بالمحدثين، من أمثال أبي عمرو ابن العلاء والأصمعي ومن شابههم؛ ممن أورد صاحب الموشح تعليقات لهم على شعر المحدثين، عائبين ما ليس بعييب؛ كأن يتسخط الأصمعي على شعر العباس وينهّمه بسخف اللفظ في قوله:

(1) _ الأصفهاني، الأغاني، 8 / 18 .

(2) _ ديوانه، ص 198 .

(3) _ الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ص 342 .

(4) - ديوانه، ص 201.

(5) - الزركلي، الأعلام، ص 259.

اليَوْمُ مِثْلُ الحَوْلِ حَتَّى أَرَى وَجْهَكَ، وَالسَّاعَةُ كَالشَّهْرِ [السريع]
 إِنَّ الَّذِي أُضْمِرُ عِنْدَ الَّذِي أَظْهَرُ كَالْقَطْرَةِ فِي البَحْرِ
 لَوْ شِقَّ عَن قَلْبِي تَرَى وَسَطَهُ ذِكْرَكَ وَالتَّوْحِيدُ فِي سَطْرِ

تَمَّ قال:

يَا مَنْ تَمَادَى قَلْبُهُ فِي الهَوَى سَالَ بِكَ السَّيْلُ وَمَا تَدْرِي [السريع]
 أَبْعَدَ أَنْ قَدْ صِرْتَ أُحْدُوثَةً فِي النَّاسِ مِثْلَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ⁽⁶⁾

قال الأصمعي: "العمري إن الحسن البصري مشهور، ولكن ليس هذا موضع ذكره".

ويُورد المرزباني اعتراضًا للمدائني الأخباري على قول العباس وأتباعه هو وأبو العتاهية

بأتهما: "يكثران الحز ولا يُصيبان المفصل"⁽¹⁾.

وأما الدكتور طه حسين فيقول: "يكفي أن تقرأ الشعر العباسي لتعلم أن غزل العباس كان

غريبًا في عصره، وأنه "سقط بين كرسيين" - كما يقول الفرنسيون -، فلم يبلغ إتقان الغزليين من

شعراء بني أمية، ولم يبلغ إجادة العابثين في شعراء بني العباس، وإنما جاء فاترًا قلما يترك في

النفس أثرًا قويًا، لأن الفن الذي أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره وانتهت الأسباب التي

أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه"⁽²⁾.

(6) - ديوانه ، ص 187.

(1) - المرزباني ، معجم الشعراء ، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، (د.م.) ، 1960م ، ص 94 .

(2) - حسين ، طه ، حديث الأربعماء ، دار المعارف ، مصر ، ط 12 ، (د.ت) ، 294/1 .

المبحث الثالث: *بيئة العباس العامة:

بعد سقوط الأمويين في الشام، انتقلت الخلافة إلى بني العباس عم الرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم، وكان مؤسس دولتهم أبا العباس السفاح الذي قتل أمراء بني أمية، وجعل مدينة الأنبار في العراق قاعدة ملكه، ثم خلفه أخوه أبو جعفر المنصور الذي بنى بغداد ونقل إليها كرسي الخلافة⁽¹⁾.

تعتبر بغداد عاصمة أبي جعفر المنصور، ممثلاً لبيئة العباسيين، ومكتفياً لصورة الحياة والمجتمع في هذا العصر. وقد بناها المنصور على الشاطئ الغربي من دجلة، بدأ بحي الكرخ وبعد أن ضاق هذا الحي بساكنيه تطلّع المنصور إلى الجانب الشرقي من نهر دجلة وبنى فيه قصرًا لابنه المهدي، وتكثرت للجيش تتخللها الأشجار والبساتين، ثم أخذت تنمو وتتسع حتى أصبحت لا تقل جمالاً وتنسيقاً عن الجانب الآخر، وسُميت بالرصافة، ثم وصل المنصور بين شطري المدينة بعدة جسور⁽²⁾، وأصبحت بعد ذلك حي الخلفاء، والطبقة العالية الرفيعة الثرية المترفة، وقد ضم قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وسادة القوم وأثريائهم، وكان بها بيوت البرامكة وغيرهم، وكانت شوارعها مسرحاً لأبنائهم وجواربهم وحاشيتهم. وكان الكرخ الحي الشعبي التجاري تسكنه الطبقة الوسطى من أصحاب الوظائف والتجار، وأصحاب الحرف، توجد فيه الدكاكين، ودور اللهو التي تعمر بالقيان والمغنيات وبيوت الخمر التي يقوم عليها الذميون من نصارى ويهود⁽³⁾.

(1) - الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص 349-350.

(2) - البيгдаي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، 1/ 115.

(3) - سلام، محمد زغلول، الأدب في عصر العباسيين، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993 م، ص 59-60.

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس والشعوبية والعرب المناهضين للدولة الأموية، فشالت كفة العرب، ورجحت كفة الأعاجم، وأصبح العرب عنصرًا من العناصر الكثيرة التي احتوتها الدولة العباسية وتغلغل الفرس في صلب الدولة، فكان منهم القواد، والوزراء، والحجاب، والولاية والكتّاب، وأدخلوا سياسة الحكم المطلق على العرب، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن وكما أدخلوا طرائقهم في تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونظم الحكم، والحياة الاجتماعية في الأكل والشرب، واللبس والأعياد، واللّهو، والعبث، ونشأت النزعة إلى التجديد وعلت المناداة بمذهب "التّخير" أي تخير أحسن ما في الحضارات القديمة والعمل بها⁽⁴⁾.

العراق فُطرّ اشتهر من قديم الزّمان بالحضارة والرّقي، وتداولت عليه أممٌ وشعوب كثيرة عريقة في المدنيّة من مثل الآشوريين والفرس والسريان وتركت فيه آثارها العلميّة والفنيّة، وهو إلى ذلك فُطرّ غنيّ تكثّر مياهه وخيراته، أمّا بغداد عاصمة الخلافة فهي تقع على ضفة نهر دجلة الغربيّة، وموقعها هذا يخولها أهميّة كبرى⁽¹⁾، حتّى قال الخليفة المنصور: "هذا موقعٌ معسكر صالح، هذه دجلة، ليس بيننا وبين الصّين شيء يأتينا فيها كلّ ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كلّ شيء من الشّام والرّقة وما حول ذلك" ⁽²⁾.

وكانت اقتصاديّات البلاد واسعةً جدًّا ممّا أفسح مجالاً واسعاً للرّف، وأصبح البلاط موئل الشعراء والتّابيين وأرباب الموسيقى والغناء وسواهم من السّمّار والندماء وأصحاب اللّهو، حتّى أصبح القصر مركزاً لمختلف الثقافات وضروب اللّهو⁽³⁾.

وقد أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلميّة في شتى نواحيها ويمدّونها بمالهم وجاههم وقد بالغوا في إكرام الأدباء وجالسوهم، وولّوهم أحياناً المراكز العالية. وكان الخلفاء العباسيون يتنافسون في فتح دور العلم، وظهر في الجيل الجديد ميلٌ شديدٌ إلى الحياة العلميّة لما كان هنالك من تمازج مدنيّات وأخلاق حضارات ووعي عام.

أمّا الثقافات التي كانت شائعة في تلك الأيام والتي كان لها أثرٌ كبيرٌ في الأدب فهي الثقافة العالميّة الخالصة التي تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدّين، وعلى الشّعور وما يتصل به من العلوم الأدبيّة كالتّحوي واللّغة وغيرهما. ثمّ الثقافة اليونانيّة، ثمّ الثقافة الشّرقية. أمّا كيفية انتشار

(4) - الفاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، ص 350.

(1) - الفاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، ص 351.

(2) - الطّبري، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، ط 1، (د.ت)، 238/9.

(3) - الفاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، ص 352.

تلك الثقافات في البلاد فمرجعها إلى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها. وأما حركة النقل والترجمة والنسخ فكانت القناة الكبرى التي جرت جميع العلوم القديمة إلى الدولة العباسية⁽⁴⁾. انتشرت الثقافات الأجنبية المختلفة في العالم العربي، وكان لكل ثقافة نزعة خاصة فالعقل اليوناني ميّال إلى فلسفة التعليل والتحليل، ميّال إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات، ميّال إلى التعمق والعلم. فكان من البواعث الكبرى على التصنيف والاشتغال بالعلوم عند العرب. أما العقل الفارسي فهو وعاء حوى العلم القديم كله، فكان مؤلفاً من عنصر فارسي، وعنصر يوناني، وعنصر هندي، والأثر الهندي في الثقافة الفارسية أوسع من الأثر اليوناني، إلا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة، فكان العقل الفارسي من البواعث الكبرى على الزخرف والتفخيم والإطناب في الكلام والكتابة، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها، وكان أثر الفرس متفوقاً في الحضارة العباسية، وما تفوقهم الأدبي إلا نتيجة طبيعية لتفوقهم السياسي.

يتضح من ذلك أن الثقافة العربية قد اتسعت بامتزاجها بالثقافات الأجنبية فأضيف إلى ثروتها اللغوية ألفاظ جديدة عربت أو أخذت عن اليونانية (ألفاظ علمية)، والهندية (ألفاظ مختلفة الموضوعات)، والفارسية (ألفاظ موسيقية).

وبعد أن انتشرت الفلسفة والعلوم اليونانية انتظم علم الكلام الإسلامي ونزعت العلوم الدينية واللسانية في أكثرها نزعة فلسفية، وتوثقت آفاق الثقافة العربية وتنوعت مجاري الفكر العربي⁽¹⁾. لم تعد البيئة الاجتماعية عربية لما دخل الدولة من عناصر مختلفة فارسية وتركيبية وسريانية ورومية وبربرية، ولما كان لتلك العناصر من تمازج ولكل منها أخلاق وعادات واعتقادات، وهذا التمازج جرّ انحطاطاً في الأخلاق ولا سيما وقد شاع التسرّي، وتعاطى الناس المُسكرات سرّاً وعلناً، وعاقروا الخمر حتى بعض الخلفاء، وكانت تُعقد لمعاقر الخمر والغناء حلقات أنس تُسمى مجالس الشراب. وتوافر الطلب على العلماء والشعراء والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماً لهم⁽²⁾.

(4) - سلام، محمد زغول، الأدب العربي في عصر العباسيين، ص 101-102.

(1) - فاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ص 356-357. وينظر: سلام، محمد زغول، الأدب العربي في عصر العباسيين، ص 101.

(2) - هدّارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط 3، 1981م، ص 62.

وكان أكثر الخدم من الأرقاء من شعوب غير مسلمة انتزعوا قسراً من بلادهم أو أسروا في الحرب أو اشتروا بالمال. ومن الأرقاء غلمانٌ يلبسون الحلال الجميلة ويتزيّنون ويتعطّرون كالنساء، وكان من الرقيق أيضاً الغلاميات وهنّ جوارٍ حسان يقصصن شعورهنّ ويلبسن ثياب الغلمان⁽³⁾.

كثر الرقيق في العصر العباسي بسبب من كانوا يؤسرون في الحروب، وبسبب انتشار تجارته، وكان الرقيق يجلب من بلاد الرّنج وأفريقيا الشّرقيّة ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبيّ أوروبا. وكان الرّنوج يعملون في فلاحه الأرض غالباً ، أمّا غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة في المنازل والقصور.

وكان رقيق النساء من الجوّاري أكثر عدداً من رقيق الرّجال، وقد امتلأت بهنّ الدّور والقصور. وقد أحلّ الإسلام للشخص أن يمتلك من الإماء والجوّاري ما شاء، وبينما قيّد حرّيته إزاء الحرائر فحرم أن يتزوج منهنّ بأكثر من أربعة. أطلق حرّيته إزاء الجوّاري ، فلم يقيدّه بعدد منهن.

وكان الرّجال يفضلون الجوّاري على الحرائر لاختلاف أجناسهن⁽¹⁾ وقد أثّرت الجوّاري في العصر العباسي، وساعدنّ على ما سرى في المجتمع من روح العبث، ممّا دفع الشّعراء إلى لون من الشّعور هو الغزل اللطيف أو الظريف الرقيق الذي تظهر فيه روح الحضارة والرّفاهيّة.

وكانت الجوّاري تُشيع في المجتمع حبّ الجمال في صورته المختلفة؛ من تجمل في الملابس والزينة والاهتمام بالزّهر والطيب، وآداب السلوك في الشّراب والطعام والمعاملة. وتأثّر الأدب الجوّاري آثاراً عدّة فقد كُنّ وحياً للشّعراء، كانوا يتعشّقون المغنّيات وينظمون الشّعور الجميل فيهنّ.

وكان كثيرٌ من الجوّاري يتمتّعن بقدر من الطّرف والأدب وحفظ الشّعور وقوله، وحسن المسامرة، فكانت منهنّ أديبات معروفات وشاعرات مذكورات، رويت أخبارهنّ مع بعض شعراء العصر. ولعلّ من أشهرهنّ جنان، وعنان، وكانتا يجالسن الشّعراء في مجالس اللّهُو والشّراب، ويناطرنهم، ويجاذبنهم الحديث والشّعور. وكنّ يُكسبن الحياة البهجة، بظرفهنّ، وجمالهنّ، وغنائهنّ⁽²⁾. وقد اتّجه العباسيون إلى تعليم الجوّاري الغناء، فترى المغنّين والمغنّيات في المحالّ العامّة وفي الشّوارع وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء والفقراء.

(3) - حتّي ، فيليب ، تاريخ العرب ، دار الكشّاف ، بيروت ، ط4 ، 1965م ، 418/2.

(1) - ضيف ، شوقي، العصر العباسي الأوّل ، دار المعارف ، مصر ، ط6 ، 1966م ، ص 56_57.

(2) - سلام ، محمّد زغول، الأدب في عصر العباسيين، ص 78-80.

وفي الحقّ أنّ هذا النوع من الجوّاري أثّر تأثيراً سيّئاً في نشر الخلاعة والمجون، ومن يقرأ رسالة القيان المنسوبة للجاحظ يدرك ما كان لهنّ من أثر في شعر الشعراء الخليعين في ذلك العصر⁽³⁾ وفي المجتمع الإسلامي، ويستطيع أن يتمثّل صورة كاملة لبيوت القيان، وللقيان أنفسهنّ وهذا ممّا كتبه في رسالته:

"إنّ في الجمع بين الرّجال والقيان، ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق، مع ما ينزل بصاحبه من الغلّة التي تضطر إلى الفجور، وتحمل على الفاحشة. وإنّ أكثر من يحضر منازل القيان إنّما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع... ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهنّ وسكون النّفس إليهنّ، ولأنهنّ يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض، واللذات كلّها إنّما تكون بالحواس... فللعين النّظر إلى القينة الحسنة... وللسمع منها حظّ، وللمس فيها الشّهوة والحنين إلى الباه، والحواس كلّها روّاد للقلب... إنّ القينة لا تكاد تخلص في عشقها ولا تتأصّب في ودّها، لأنّها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشطتها فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسّم، وغالته في أشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته ونشطت للشرب، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصّبابة لسرعة عودته، والحرز لفرقه... وليس يُحسنُ هاروث وماروث وعصا موسى وسحرة فرعون إلاّ دون ما تحسنه القيان. وكيف تسلّم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنّما تكتسب الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمشأ، وهي إنّما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللّعب والأخانيث، وبين الخلاء والمجان ومن لا يُسمع منه كلمة جدّ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة"⁽¹⁾.

فهذا النّصّ الهامّ يطلّعنا على نواحٍ كثيرة من حياة المجتمع الإسلامي وعلى دور الرّقيق في توجيه نيار اللّهو والمجون فيه، وتهيئة ألوان المتعة الحسيّة من كلّ لؤن، فهذه البيوت التي كان يقبل عليها النّاس كانت تبيغ لهم المتعة المحرّمة، واللّهو، والعبث، وكانت مدارس للغزل المكشوف وتوجيه الحبّ إلى ناحية الجنس، ومعارض لأنواع شتى من الجمال الذي لا يستتر ولا يتخفى وراء حجاب⁽²⁾.

(3) - أمين، أحمد، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط10، (د.ت)، 95/1.

(1) - الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب القيان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1956، ص112-113.

(2) - هدّارة، محمّد مصطفى، اتّجاهات الشعر العربي، ص69.

لقد احتفى العباسيون خاصتهم وعامتهم بالموسيقى والغناء، وقد خصص الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة من أوقاتهم لسماع الغناء بعد الفراغ من أعمالهم في النهار. وقد تنافسوا على اقتناء الجواري المغنيات، وعُرفَ من بين خلفاء العباسيين من شُغف بالسماع كالرشيدي والأمين والمأمون والواثق والمتوكل. ولم يقتصر الخلفاء على سماع الغناء بل كان منهم من يصنع الشعر ويُلحّنه ويُغنيه.

واشتهر جماعة من كبار الموسيقيين في هذا العصر مثل إبراهيم بن المهدي، وإسحق الموصلي، وغالبًا ما يصحبُ مجالس الشرب الغناء، فهما يتلازمان كثيرًا في هذا العصر، لأنهما جامعا المسرة وبخاصة إذا صحبتها المرأة ساقية، أو مغنية، أو مؤانسة نديمة.

وقد يكون انتشارُ الشرب في عصر العباسيين بسبب الأثر الفارسي والتساهل الديني والرغبة في الاستمتاع بمكتسبات الحضارة ولذاتها في وقت ازدهرت فيه الحياة وتدققت الأموال، وعاش الناس في بحبوحة. لقد كان للخمر ومجالسها أثرٌ في حياة العصر، وكانت مظهرًا من مظاهر النشاط الإنساني والحضاري والفني ولها انعكاساتها في فنون العصر وآدابه. وكان القول في الخمر صفةً للطرفاء والمتطرفين، والأدباء والمتأدبين⁽³⁾.

وقد كان أصحاب هذا العصر وأهل هذه الحقبة التاريخية على علم واسع بكل ما يدور في عصرهم من ثقافات واتجاهات، والشعراء هم الأقدر على استيعاب هذه الثقافات. وابن الأحنف ممن كان لهم الإلمام العظيم بمقومات العصر الثقافية ومكوناتها. وصوّر ذلك كله في ثنايا غزله طياً لمآحا، وإن لم يكن تصريحياً، فقد اكتفى في غزله بالإشارة والرمز المعبر المصوّر.

(3) - سلام، محمد زغول، الأدب في عصر العباسيين، ص 88-100.

المبحث الرابع: * بيئة الشاعر الخاصة:

ارتبطت حياة الشاعر الخاصة بالعصر الذي عاش فيه، وفيه وصلت الدولة سياسياً وفكرياً واجتماعياً إلى درجة عظيمة من الهيبة والسلطان والنفوذ، ويُعدّ النصف الثاني من العصر العبّاسي الأول من أزهى العصور الإسلاميّة، فقد بلغت الدولة الإسلاميّة أوج عظمتها وبلغت الخلافة فيه من الهيبة والجلال مبلغاً عظيماً، وترامت أطراف هذه الدولة حتّى بلغت تخوم الصين وأبواب القسطنطينية. وكان رأس هذه الدولة هارون الرّشيد الذي طبق صيئهُ الأفاق. وقد اتّصل العبّاس بن الأحنف بالمهدي والرّشيد كما يدلُّ على ذلك شعره، ولكنّه اتّصال ألفةٍ لا اتّصال تكسّب، وهذا يعني أنّه رافق الرّشيد طيلة مدّة حكمه الذي استمرّ ثلاثاً وعشرين سنة، وهذا يُفسّر براعة العبّاس في فهم أدقّ أسرار الرّشيد النفسيّة والعاطفيّة حتّى بات يتعزّل بلسان الرّشيد بجواريه، ويرثي من يرثي منهم على لسانه، وفي شعره ما يؤكّد اتّصاله بالمهدي والرّشيد حيث يقول:

طَالَ لَيْلِي بِجَانِبِ الْبُسْتَانِ مَعَ جَوَارِيِ الْمَهْدِيِّ "وَالْخَيْرُزَانِ" (1) [الخفيف]

فارتباطُ العباس بن الأحنف ارتباطاً نفسيّ دقيق، يفهم معه العباس ما يُرضي الخليفةَ وما يسره، حتى قيل: إِنَّ الرَّشِيدَ هَجَرَ جَارِيَتَهُ الْجَمِيلَةَ "ماردة" التي أنجبت له ابنه المعتصم، وكانت مفرطة الجمال تملك قلبه وعواطفه، وكانت "ماردة" بدورها ذات دلّ وكبرياء، فكاد الرَّشِيدُ أن يتلف شوقاً، وأحسّ ذلك حاجبه "الفضل بن الربيع"، وقيل: "جعفر البرمكي" فاستدعى العباس بن الأحنف وعرفه القصةَ وطلبَ إليه أن يقول في ذلك شعراً فقال:

الْعَاشِقَانِ كِلَاهُمَا مُتَعَصِّبٌ وَكِلَاهُمَا مُتَشَوِّقٌ مُتَطَرِّبٌ [الكامل]

صَدَّتْ مُرَاعِمَةٌ وَصَدَّ مُرَاعِمًا وَكِلَاهُمَا مِمَّا يُعَالِجُ مُتَعَبٌ (2)

رَاجِعٌ أَحْبَبْتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ الْمُتَيْمَّ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ

إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَمَكَّنَ مِنْكُمْمَا دَبَّ السُّلُوكُ لَهُ فَعَزَّ الْمُطْلَبُ (3)

ودفع الفضلُ بهذه الأبيات إلى إبراهيم الموصلي، فغنى فيها، فلما سمعه الرَّشِيدُ بادَرَ إلى ماردة فترضّاها، فسألت عن السبب في ذلك فقصّ عليها قصة الشعر والغناء، فأمرت لكل من العباس وإبراهيم عشرة آلاف درهم، وأمرت الرَّشِيدُ أن يكافئهما فأمر لهما بأربعين ألفاً (4). ولم يعد الخليفة الرَّشِيدُ يستغني عن الشاعر الفنّان ابن الأحنف فكان يتحدثُ بلسانِ مشاعره، إذا تازمت في صدره هذه المشاعر، ويقول في جوارِيِ الرَّشِيدِ اللواتي يعصينه والبريةَ كلّها تطيعه:

مَلِكُ الثَّلَاثِ الْآنِسَاتِ عِنَانِي وَحَلَّلَنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ [الكامل]

مَالِي تُطَاوِعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوِينَ أَعَزَّ مِنْ سُلْطَانِي (1)

ويقولُ على لسانِ الرَّشِيدِ الَّذِي لَا يملك الاختيار بين جوارِيه:

إِنِّي وَدَعْتُ قَلْبِي طَائِعًا بَيْنَ "سِحْرِ" وَ"ضِيَاءٍ" وَ"خُنْثٍ" [الرمل]

وَإِذَا سِحْرٌ أَتَتْ زَائِرَةٌ كَشَفَتْ رُؤْيَاهُ "سِحْرِ" كُلَّ بَثٍ

وَإِنْفُسِي مِنْ حَبِيبِ زَائِرٍ غَيْرِ مَمْلُوكٍ عَلَى طُولِ اللَّبْثِ (2)

(1) - ديوانه، ص 344.

(2) - في رواية أخرى لصدر البيت: صَدَّتْ مَغَاضِبَةٌ وَصَدَّ مَغَاضِبًا .

(3) - نفسه، ص 71.

(4) - ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 255-256.

(1) - ديوانه، ص 363.

(2) - نفسه، ص 122.

وهذه الإصابة النَّفْسِيَّةُ من العَبَّاسِ تدفع الرَّشِيدَ إلى أن يُعَبِّرَ عَمَّا في نفسه تحت القافية والوزن اللذين استخدمهما العَبَّاسُ فيقول الرَّشِيدُ:

إِنَّ سِحْرًا وَضِيَاءً وَخُنْثًا هُنَّ سَحْرٌ وَضِيَاءٌ وَخُنْثٌ [الرمل]
أَخَذْتُ سِحْرٌ وَلَا ذَنْبَ لَهَا ثُلْثِي قَلْبِي وَتَرِبَاهَا التُّلْثُ⁽³⁾

وكان الرَّشِيدُ يصحبُ العَبَّاسَ معه في غزواته إلى خراسان، يقول العَبَّاسُ وهو في طريقه إليها:

أَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرَ هَذَا الْمَسِيرِ وَإِيَابًا فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورِ [الخفيف]
أَنَا فِي عَسْكَرٍ لِحَيْرِ إِمَامٍ زَانَهُ رَبُّهُ بِخَيْرِ وَزِيرِ
غَيْرِ أَنِّي نَعَصْتُ مَا أَنَا فِيهِ بِمِتَاحِ مِنَ الْهَوَى مَقْدُورِ
وَبِهَجْرٍ مِنَ الْحَبِيبِ فَلَا تَسُدُّ أَلْ بِأَحْوَالِ عَاشِقٍ مَهْجُورِ⁽⁴⁾

ومن خلال هذه الأبيات يدرك الرَّشِيدُ بحسِّ العاشق أنَّ الشَّاعِرَ عاشقٌ مشتاقٌ فيعيده إلى بغداد.

وصحب العَبَّاسُ الرَّشِيدَ إلى خراسان، وعندما وصل إليها قال:

قَالُوا خُرَاسَانَ أَفْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقَفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَ [البسيط]
مَتَى يَكُونُ الَّذِي أَرْجُو وَأَمْلُهُ أَمَّا الَّذِي كُنْتُ أَخْشَاهُ فَقَدْ كَانَا
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُذْنِبِي عَلَى شَحَطٍ جِيرَانَ دِجْلَةَ مِنْ جِيرَانِ "جِيحَانَا"
عَيْنُ الزَّمَانِ أَصَابَتْنَا فَلَا نَظَرْتُ وَعَدَّبْتُ بِفُنُونِ الْهَجْرِ أَلْوَانَا
يَا لَيْتَ مَنْ نَتَمَنَّى عِنْدَ خَلُوتِنَا إِذَا خَلَا خُلُوتَهُ يَوْمًا تَمَنَّاْنَا⁽¹⁾

في البيت الثالث يذكر فوراً ضمناً ويتمنى أن يجمع الله جيران دجلة - فوز - وجيران جيحان -

خراسان - حيث هو فيها مع الرَّشِيدِ.

ولا شك أنَّ المرتبة العظيمة التي وصل إليها ابن الأحنف عند الخليفة الرَّشِيدِ قد أثارت حسد الحسَّاد ومنهم الأصمعي. فقد حدَّث عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي قال: "دخل عمي على الرَّشِيدِ، والعبَّاس بن الأحنف عنده، قال العبَّاس للرَّشِيدِ: دعني أعبث بالأصمعي، قال له الرَّشِيدُ إنه ليس

(3) - سعد الدين، ليلى، العبَّاس بن الأحنف، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط1، 1402هـ-1982م، ص30.

(4) - ديوانه، ص221.

(1) - ديوانه، ص363-364.

(2) - نفسه، ص234-235.

(3) - الأصفهاني، الأغاني، 17/8.

ممنّ يحتمل العبث، فقال: لست أعبث به عبثاً يشقّ عليه. قال: أنت أعلم. فلما دخل عمّي، قال له: يا أبا سعيد: من الذي يقول؟

إِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تَصْنَعَ شَيْئًا يُعْجِبُ النَّاسَ [الهجج]

فَصَوِّرْ هَاهُنَا فَوْزًا وَصَوِّرْ تَمَّ عَبَّاسًا

فَإِنْ لَمْ يَدْنُوا حَتَّى تَرَى رَأْسَيْهِمَا رَاسًا

فَكَذِّبْهَا بِمَا قَاسَتْ وَكَذِّبْهُ بِمَا قَاسَى (2)

فقال له عمّي - يعرض بأنّه نبطي - قاله الذي يقول:

إِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُبْصِرَ شَيْئًا يُعْجِبُ الْخُلُقَا [الهجج]

فَصَوِّرْ هَاهُنَا دُورًا وَصَوِّرْهَا هُنَا فَلُقَا

فَإِنْ لَمْ يَدْنُوا حَتَّى تَرَى خَلْقَيْهِمَا خُلُقَا

فَكَذِّبْهَا بِمَا لَاقَتْ وَكَذِّبْهُ بِمَا يَلْقَى

قال: فحجل العباس، وقال له الرشيد: قد نهيتك فلم تفعل⁽³⁾.

هذا المجتمع البغداديّ شارك فيه العباس اجتماعياً، وكان يغشى مجالس اللّهُو مع مجموعة من الشّباب اللّاهي فيهم أبو نواس، ويحكى أنّ أبا نواس، والعبّاس بن الأحنف والحسين بن الضحاك "الخليع"، ومسلم بن الوليد "الصّريع"، خرجوا في مُنتزّه لهم، ومعهم يحيى بن المعلّى، فقام يصلّي بهم، فنسيّ الحمد وقرأ "قل هو الله أحد" فأرتجّ عليه في نصفها، فقال أبو نواس، أجزوا:

أَكْثَرَ يَحْيَى غَلَطًا فِي قُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدَ [مجزوء الرجز]

فقال عبّاس: قَامَ طَوِيلًا سَاهِيًا حَتَّى إِذَا أَعْيَا سَجَدَ

فقال مسلم بن الوليد: يَزْحَرُ فِي مِحْرَابِهِ رَجِيرَ حُبْلَى بَوْلَدَ

فقال الخليع: كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدُّ بِحَبْلِ مِنْ مَسَدَ

ويقول ابن رشيق: "أنشدني بعض أصحابنا هذه الأبيات على طريق الاستملاح لها،

والاستطراف بها. وقال: هذا الذي يعجزُ النَّاسُ عنه. فقلت: ما بال عبّاس وأبي نواس لم يقولوا بعد البيت الأول: وَنُسِّي الْحَمْدَ فَمَا مَرَّتْ لَهُ عَلَى الْخُلْدِ

ولا سيّما وقد كان ذلك حقيقة. وكذلك جرت الحكاية. فقال: ولمن البيت؟ لابن وقته⁽¹⁾.

وهذا يُشيرُ بدوره إلى مكانة العباس بن الأحنف الشعريّة وهو ما اعترف به النقاد. وقد شغل العباسُ بشعره فئات المجتمع على اختلافها في الفكر، وكلُّ فئة تفسّر شعره وتوجهه توجيهاً يتلاءم مع تفكيرها. فقد كان أبو الهذيل العلاف يبغضُ العباسَ ويلعنه لقوله:

إِذَا أَرَدْتُ سُؤْلًا كَانَ نَاصِرُكُمْ قَلْبِي وَمَا أَنَا مِنْ قَلْبِي بِمُنْتَصِرٍ [البسيط]

فَأَكْثَرُوا أَوْ أَقَلُّوا مِنْ إِسَاءَتِكُمْ فَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَدْرِ (2)

ويقول العلاف: "إنّه يعقدُ الكفرَ والفجورَ في شعره" (3)

وفي وسط هذا المجتمع المعقد الغريب الذي عاش فيه الشاعر، كان له جماعة هم أصدقاؤه يشاركونه لعبه ولهوه وبيتهم لهم هموم قلبه، ويتخذ منهم ملاذاً يجد فيه راحة نفسه من خلال حياته الدقيقة التي كان يحسب لها ألف حساب، في قوله وفعله وتحركه من خلال قصّة عشقه التي شغل بها المجتمع. ومن أولئك الأصدقاء الذين يثق بهم كلُّ الثقة عبد الله، ويقول فيه العباس:

وَأَبْيَضَ سَبَاقِ طَوِيلِ نَجَادُهُ أَشَمَّ خَصِيبِ الرَّاحَتَيْنِ وَهَوْبِ [الطويل]

أَنَافَ بَضْبَعِيهِ إِلَى فَرْعِ هَاشِمٍ نَجِيبٍ نَمَاهُ مَا جِدُّ لِنَجِيبٍ

لِحَانِي فَلَمَّا شَامَ بَرْقِي وَأَمْطَرْتُ جُفُونِي بَكَى لِي مُوجَعًا لِكُرُوبِي

فَقُلْتُ أَعْبَدَ اللَّهُ أَسْعَدَتْ ذَا هَوَى يَحَاوِلُ قَلْبًا مُبْتَلَى بِنُكُوبِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحُبَّ أَخْلَقَ جِدَّتِي وَشَيْبَ رَأْسِي قَبْلَ حِينِ مَشِيبِ (4)

ويبدو من خلال شعر العباس أنّ عبد الله يعودُ نسبه إلى بني هاشم، أي من الأسرة الحاكمة وعبد الله هذا هو الذي يقول فيه الشاعر إنّه المهذب، ويبدو أنّ أحسن أوقات الشاعر تلك التي يقضيها مع أصدقائه بحضور عبد الله فيقول:

مَا تَطْعَمُ النَّوْمَ عَيْنِي مِنْ تَذَكُّرِكُمْ فَمَا أَنَامُ إِذَا مَا نَامَ سُمَارِي [البسيط]

أَخْلُو إِذَا هَجَعَ النَّوَامُ كُلُّهُمْ فَمَا أُسَافِرُ إِلَّا عَامِرِ الدَّارِ

(1) - القبرواني ، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، مطبعة حجازي، القاهرة، ط1، 1353هـ-1934م، 87/1-88 .

(2) - ديوانه ، ص184-185 .

(3) - الأصفهاني ، الأغاني ، 16/8 .

(4) - ديوانه ، ص46-47 .

(1) - ديوانه، ص175-176.

لَكُلِّ جَفْنٍ عَلَى خَدِّي عَلَى حِدَةٍ طَرِيقَةً دَفَعُهَا مُسْتَوَكِفًا جَارٍ
 أَسْتَمَطِرُ الْعَيْنَ لَا تَفْنَى مَدَامِعُهَا كَأَنَّ يَنْبُوعَ بَحْرِ بَيْنَ أَشْفَارِي
 لَيْتَ الْمُهْدَبَ عَبْدَ اللَّهِ خَالِصَتِي وَمَنْ لَدَيْهِ مِنَ الْإِخْوَانِ حُضَارِي
 مِنْهُمْ حُمَيْدٌ وَدَاوُدٌ وَصَاحِبُهُ وَالْأَخْنَسِيُّ وَبِشْرٌ وَابْنُ سَيَّارٍ
 قَوْمٌ هُمْ خَنَدَقُوا لِي فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى الْحُصُونِ فَأَخْلَوْهَا لِأَسْرَارِي⁽¹⁾

وغير هؤلاء هناك سعيد بن عثمان، وقد كان العباس يشكو إليه همومه حين كان جازاً له، فلما نزلت داره عنه لم يعد من يشكو إليه غير الريح فيقول:

فَدَكُنْتُ أَشْكُو هَوَى نَفْسِي وَأُظْهِرُهُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عُثْمَانَ بِتَصْرِيحٍ [البسيط]
 حَتَّى إِذَا دَارُهُ عَنِّي بِهِ نَزَحَتْ بَقِيَتْ أَشْكُو هَوَى قَلْبِي إِلَى الرَّيْحِ
 أَمَسَتْ بِبِثْرَبِ نَفْسِي عِنْدَ جَارِيَةٍ حَوْرَاءَ تُنْمِي إِلَى الْغُرِّ الْمَسَامِيحِ⁽²⁾

أصدقاء الشاعر عُدّة له، وسبب من أسباب نجاحه. بما يولونه من ثقة ومودة هي القوة له في أداء رسالته الشعرية الموجهة. وابن نوفل واحدٌ من أولئك الأصدقاء أو الإخوان - كما يُسمّيهم - ممن كان يبيّنهم همومه وشكواه، يقول العباس:

وَلِي عِبْرَتَانِ مَا تُفَيِّقَانِ: عِبْرَةٌ تَفِيضُ وَأُخْرَى بِالصَّبَابَةِ تُخَنِّقُ [الطويل]
 وَيَوْمَانِ يَوْمٌ فِيهِ جِسْمِي مُعَذَّبٌ بِمَا بِي وَيَوْمٌ بِالتَّفَكُّرِ مُطْرِقُ
 وَأَكْبَرُ حَظِّي مِنْكَ أَنِّي إِذَا جَرَّتْ لِي الرَّيْحُ مِنْ تَلْقَانِكُمْ أَتَشَقُّ
 وَقَدْ زَعَمَ الْحَرُّ ابْنَ نُوْفَلٍ أَنَّ ذَا أَصَبُّ وَأَجْرِي لِلدَّمُوعِ وَأَشْوَقُ
 فَقُلْتُ: يَا لَيْتَ حَظِّي أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَحَقِّقْ لِي الْهَوَى تَتَخَلَّقُ⁽³⁾

وحيث يلمّ بالعباس ألمّ العشق وقوة المعشوقة فإنه يلجأ إلى صديقه هاشم بن سليمان فيقول:

مَنْ عَذِيرِي مِنْ مُذْنِبِ غَضْبَانٍ؟ جِئْتُ أَبْغِي عِتَابَهُ فَبَدَانِي [الخفيف]
 حُبُّ ذُلْفَاءٍ دَاخِلٌ فِي فُوَادِي مُرْتَعٍ فِيهِ رَوْضَةُ الْأَخْرَانِ
 حَدَّثَنِي عَمَّنْ أَشَاعَ حَدِيثًا أَنَا فِيهِ وَأَنْتِ مُشْتَرِكَانِ

(2) - نفسه، ص 126-127.

(3) - نفسه، ص 270.

فَلَعَمْرِي إِنِّي لِأَدْفِنُ أَسْرًا رَكَ عِنْدِي فِي حُفْرَةِ الْكُتْمَانِ
لَوْ تَرَانِي يَا هَاشِمُ بْنُ سُلَيْمًا نَ وَمَا بِي، بَكَيتَ حِينَ تَرَانِي
لَيْسَ لِي مُسْعِدٌ سِوَاكَ إِذَا مَا غَبَتِ إِلَّا اللَّسَانُ وَالْعَيْنَانِ⁽¹⁾

وللشاعر إخوان السراء والضراء، فحين يبكي يتوجه إلى عبد الله وسعيد بن عثمان وابن نوفل،
أما حين يلهو فهناك إخوان للهو، يقول فيهم الشاعر:

أَدْنُ مُجْتَازًا بِنَا بِالصَّلَاةِ وَغَارَتِ الْأَنْجُمُ مُسْتَوْسِقَاتُ⁽²⁾ [السريع]
وَابْتَسَمَ الصُّبْحُ وَأَبْدَى لَنَا عَنْ غُرَّةٍ وَاضِحَةٍ كَالْأَضَاءِ⁽³⁾
يَا أَيُّهَا السَّاقِي أَدِرْ كَأَسْنَا وَاكْرُرْ عَلَيْنَا سَيِّدَ الْأَشْرِبَاتِ
وَاسْقِ "سَعِيدًا وَابْنَ بَشْرٍ" أَخَا شَيْبَانَ⁽⁴⁾، مِنْ أَكْوَسِكَ الْمُتْرَعَاتِ
فَتِيَانُ صِدْقٍ كُلُّهُمْ قَوْلُهُ : حَيَّاكُمُ اللَّهُ وَخَذَ ذَا وَهَاتِ
مِزَاجُ كَأَسِي فِي نَدَامَايَ مِنْ دُمُوعِ عَيْنٍ بِالْبُكََا هَامِلَاتِ
لَوْ أَنَّ مَاءَ الْعَيْنِ مِنْ طُولِ مَا يَجْرِي فُرَاتٌ غَاضَ مَاءُ الْفُرَاتِ⁽⁵⁾

ومع هذا فإن العباس لم يعدم الأخ الذي ينقلب عليه ويصبح من أعدائه فيقول:

وَقَدْ قَلَبَ الزَّمَانُ عَلَيَّ "يَمْنًا" وَكَانَ إِلَى شَفَاعَتِهَا عِمَادِي [الوافر]
وَبَاحَ بِسِرِّي الْمَكْنُونِ "عَيْسَى" فَأَصْبَحَ وَهُوَ مِنْ حَدَثِ الْأَعَادِي⁽⁶⁾

طبع ابن الأحنف بطابع مجتمعه في جانبه العاطفي، بعيداً عن السياسة التي لم يجعل لها
في شعره أي صورة مميزة، وفي هذا الجانب العاطفي عاش ابن الأحنف بكل مشاعره وقلبه وروحه،
وقف عاشقاً حين دعاه الهوى فقال:

لَقَدْ قَالَ دَاعِي الْحُبِّ هَلْ مِنْ مُجَاوِبٍ؟ فَأَقْبَلْتُ أَسْعَى قَبْلَ كُلِّ مُجَاوِبٍ⁽⁷⁾ [الطويل]

* خبر فوز :

(1)- ديوانه ، ص 345 .

(2) _في رواية أخرى : "مختاراً" بدل "مجتازاً". مستوسقات: منتظمات، متجمعات.

(3) _ الأضياء : غدِير المَاءِ .

(4)- سعيد : هو سعيد بن عثمان، ابن بشر : أحد الندامي .

(5)- ديوانه ، ص 117 .

(6)- نفسه ، ص 135-136 .

(7)- نفسه، ص 57.

جاء في الأغاني عن أبي الفرج الأصفهاني قال : أخبرني محمد بن يحيى قال : حدثنا محمد بن إسحق الخراساني قال : حدثنا محمد بن النضر قال : " كانت فوز جارية لمحمد بن منصور الملقب بـ (فتى العسكر)، ثم اشتراها بعض شباب البرامكة وحج بها (1) ، فلما قدمت قال العباس :

ألا قد قدمت فوزاً فقرت عين عباس [الهزج]
 لمن بشرني بشرى على العيين والراس
 يلوموني على الحب وما بالحب من باس (2)

وأضاف قائلاً أخبرني محمد قال : حدثنا محمد بن أحمد بن جعفر الأنباري قال : حدثني علي ابن محمد النوفلي قال : كانت فوز لرجل جليل من أسباب السلطان وكان العباس ينتسبه في أشعاره وذكر فوز بما قاله أبو العتاهية في عتبة . فحج بها مولاها (3)، فقال العباس :

يا رب رد علينا من كان أنسا ورينا [المجتث]
 من لا نسر بعيش حتى يكون لدينا
 يا من أتيج لقلبي هواه شوماً وحيناً
 ما زلت مذ غبت عني من أسخن الناس عينا
 ما كان حجك هذا إلا بلاءً علينا (4)

(1) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 15 / 141 .

(2) _ ديوانه ، ص 235 .

الفصل الثاني :

الغزل قبل العباس وفي زمنه .

المبحث الأول :

الغزل قبل العباس بن الأحنف .

المبحث الثاني :

الغزل زمن العباس بن الأحنف .

المبحث الثالث :

مكانة العباس بين شعراء العشق .

المبحث الرابع :

أسس العشق عند العباس بن الأحنف .

الغزل قبل العباس: *المبحث الأول

الغزل أو التَّغزُّل أو النَّسِيب أو التَّشْيِيب، من أقدم الفنون الشعريّة عند العرب، وأكثرها شيوعاً لاتصالها بالطبيعة الإنسانيّة، وإذا كان بين الغزل والتَّغزُّل والتَّشْيِيب والنَّسِيب فوارق معنويّة في نظر علماء الأدب، فإنّ ابن رشيق يجتزئ تلك الفوارق في عمدته بقوله: "إنّها كلّها بمعنى واحد، وهو ذكر محاسن النساء في ألفاظ حلوة، ومعانٍ سهلة وكلام ظاهر"⁽¹⁾.

فالغزل أدبٌ وجدانيّ يُعبّر عن الأحاسيس في مجال الحبّ، إنّه استحضار لماضي سعيد أو شقيّ، ترك في العين دمعاً، وفي القلب لهفة. فمنذ أن وُجدت الطبيعة وُجد الحبّ، فالحبّ لغةٌ عالميّة وميل فطريّ في كلّ بيئة، ووصف المحبوبة والتَّغنيّ بجمالها إحساس تلقائيّ. وقد احتلّ الغزلُ في العصر الجاهليّ الجزء الأكبر من تراثنا الأدبيّ، فلا تكاد توجد قصيدة في أيّ غرض من أغراض الشعر، إلّا وفيها اتصال بالغزل، إن لم تكن مقتصرة عليه. وفي ذلك يقول الدكتور شكري فيصل: "إنّ الثروة الشعريّة كالقطعة الذهبية ذات الوجهين، نقش الجاهليون على صفحتها الأولى عواطفهم التي ابتغتها فيهم الحبّ، وما يُؤدّي إليه هذا الحبّ من وصلٍ أو هجر، ومن سعادة أو شقاء ومن لذة أو غصّة، وصوّروا هذه العواطف وأفنوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم... وأمّا الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها أغراضهم الأخرى، ونثروا في أطرافها كلّ الفنون والأغراض الثّانية كائناتاً ما كانت هذه الفنون والأغراض"⁽²⁾.

وإذا كان الشعراء يستهلّون قصائدهم بالخمرة، فإنّهم لا يلبثون أن يعودوا إلى الغزل ليبثوا المرأة مشاعرهم وما يعانونه من عذاب الهجر، وألم الفراق، بكلّ صدق وأمانة وهذا ما حمل الدكتور شكري فيصل على القول: "إنّ الأغراض الأخرى التي عرض لها الشعراء الجاهليون لم تكن في كثير من الأحيان مقصوداً إليها قصداً، ولا مُتعمّدة تعمدًا... كانت روح الحبّ، وعواطف الهوى هي التي تبتغتها، وهي التي تكمن وراءها"⁽³⁾.

(1) - الفيرواني، ابن رشيق، العمدة، 111/1.

(2) - فيصل، شكري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986م، ص23.

(3) - المرجع السابق، ص24.

كانت المرأة كل شيء في نظر الجاهلي، وأكرم من ناقته أو جواده، وقد أخطأ من قال أنها كانت عنصرًا محقرًا، لأنها كانت عرضةً للسبي، ومجلبةً للعار، ومُعظم ما وصلنا من أشعار يحمل صورةً مشرقةً عنها، فضلاً عن أنها تشكل الموضوع الذي أولاه الشعراء جلَّ اهتمامهم، ولولا ذلك لما كان الاستهلال بالغزل وسيلةً للولوج إلى هدف آخر.

وإذا كان الرجل مسيطراً على المرأة، فذلك نتيجة لطبيعة الحياة التي جعلت منه المسؤول عن الأسرة وحمايتها، فضلاً عن طبيعة الصحراء التي فرضت عليه القوة الجسدية للدفاع عن الحيض والقيام بعمليات الغزو، ونظراً لجفاف الصحراء، وضعف خيال الشاعر، جاء غزلهم

وصفاً للجمال الخارجي، كجمال الوجه والجسم دون التعرض إلى الجمال النفسي والخُلقي، وكانوا يتفنون في رسم صورة الوجه والعنق والشعر وسائر أجزاء الجسد المرئية دون أن يهتموا بما يتركه هذا الجمال من أثر في نفوسهم لذلك بدا غزلهم غارقاً في المادية النابعة من صميم الطبيعة الجاهلية. وقد علل الدكتور يوسف حسين بكار هذا الأمر بقوله: "والذي أراه أن أكثر الشعراء الجاهليين لم تُتَح لهم الفرصة الكافية للعيش مع من كانوا يتغزلون فيهن، أو التعرف عليهن عن كُتُب، وإنما كانت لقاءات عابرة، ونظرات من بعيد، وإلا لما اكتفوا بالأوصاف الخارجية للمرأة"⁽¹⁾.

وبناءً على ما تقدّم، يمكننا تصنيف الغزل الجاهلي في اتجاهين متناقضين:

الاتجاه الحسي الفاحش وزعيمه امرؤ القيس.*الأول:

الاتجاه العفيف، اشتهر في العصر الأموي وكانت نواته في الجاهلية غزل المُنيمين؛ أما *الثاني: شعراء الاتجاه الأول فقد عُرفوا بغزلهم الرقيق في النساء ووصفهن أو وصف مفاتيهن وتشبيها بأشياء مادية حسية نابعة من صميم البيئة الجاهلية وطبيعتها ومكوناتها، فكثيراً ما نقع في الغزل الجاهلي على مثل:

"جيد كجيد الرئم" و"فرع أسود فاحم" و"غداً مستشزرات" و"مُقلّة شادن" و"رياً الروادف"

و"وجه كأنه الشمس" وما إلى ذلك من أوصاف وتشبيهات. وهذا النوع أكثر صراحةً وجرأةً وحديثاً عن المغامرات والقصص الجريئة ممّا يتنافى مع ما عُرف عن الجاهليين من عاداتٍ وتقاليد وهو ما شجّع أحد الباحثين على القول: "بأنه غير عربيّ النشأة وأنّ كلَّ شعرائه حتّى عمر بن أبي ربيعة في

العصر الأموي، إمّا أحباش وإمّا عرب متأثرون بالأحباش"⁽²⁾

(1) – بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص46.

(2) – الحوفي، أحمد، الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت (د.ت) ص259.

أما الغزل العذري أو العفيف فقد عُرف في العصر الجاهلي ولكن بصورة أقلّ ممّا كان عليه في العصرين الأموي والعبّاسي، حيث ظهر فيهما فنّاً شعريّاً مستقلاًّ واتّجاهاً جديداً له خصائصه وشعراؤه⁽³⁾.

عرف العصر الجاهلي جماعة من المتيمين الذين اقترنت أسماؤهم بمحوبات معيّناتٍ من مثل: المرقش الأكبر وأسماء⁽⁴⁾، والمرقش الأصغر وفاطمة⁽⁵⁾، ومالك بن الصمصامة

وجنوب⁽¹⁾، وعبد الله بن العجلان وهند⁽²⁾، وعمرو بن كعب وعقيلة⁽³⁾، وعبد الله بن علقمة وحبيش⁽⁴⁾، وعروة بن حزام وعفراء⁽⁵⁾.

كان لأولئك العشاق قصص لا تقلّ عن قصص العذريين الأمويين، إلا أنّ الرواة بالغوا في نسج كثير منها وتزيّدوا فيها، وقد يقع الدّارس على تشابه كبير في بعضها، غير أنّ تزيّدات الرواة لا يمكن أن تنفي الصّورة العامّة لهذا القصص، يقول الدكتور يوسف خليف: "إنّما دخل العبث والتزيّد والخيال في التفاصيل والحواشي"⁽⁶⁾.

أمّا شعرهم فبالرغم من قلّته بالنسبة لنظرانهم الأمويين فيدلّ على حبّ مخلصٍ وعواطف صادقة ومشاعر ملتهبة.

يقول المرقش الأصغر:

أَفَاطِمَ لَوْ أَنَّ النِّسَاءَ بِيُدَةٍ وَأَنْتِ بِأُخْرَى لَاتَّبَعْتُكَ هَائِمًا⁽⁷⁾ [الطويل]

ويقول عروة:

وَإِنِّي لَتَعْرِونِي لِذِكْرِكَ رَوْعَةٌ لَهَا بَيْنَ جُلْدِي وَالْعِظَامِ دَبِيبٌ [الطويل]
لئن كان برد الماء أبيض صافياً إليّ حبيباً إنّها لحبيب⁽⁸⁾

(3) - خليف، يوسف، الحب المثالي عند العرب، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص66، 78، 80، 100، 104.

(4) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص210.

(5) - المصدر السابق، ص214.

(1) - الأنطاكي، داود، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، دار حمد ومحيو، بيروت، ط1، 1972م، 150/1.

(2) - المرجع نفسه، 140/1.

(3) - نفسه، ص199.

(4) - نفسه، ص153.

(5) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 622/2.

(6) - خليف، يوسف، الحب المثالي عند العرب، ص8.

(7) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 215/1.

(8) - المصدر نفسه، ص622.

كما أنهم تحملوا المخاطر والأهوال وتجشموا الصعاب في سبيل محبوباتهم حتى تكالبت عليهم
أدواء الهيام وأوصابه، يقول صاحب حبيش:

فَأَنْ يَفْتُلُونِي يَا حَبِيشُ فَلَمْ يَدَعْ هَوَاكَ لَهْمٍ مَنِّي سِوَى غَلَّةِ الصَّدْرِ [الطويل]

فَأَنْتِ الَّتِي قَفَلْتِ جُنْدِي عَلَى دَمِي وَعَظْمِي وَأَسْبَلْتِ الدُّمُوعَ عَلَى النَّحْرِ⁽⁹⁾

وتظهر في غزلهم مرارة الحرمان والألم والشكوى، شكوى الرقباء والعدال، نحول الجسم
وديمومة خفقان القلب. ولكن شعورهم لم يخلُ من بدوات حسية لا تتخطى اللمس والتقبيل أو تمنيهما،
وهي ناحية التفت إليها عدد من الدارسين المعاصرين، مثل: الدكتور يوسف خليف، الذي يردّها إلى
الطبيعة الإنسانية التي لا يمكن أن تصل إلى أعلى مرتبات الكمال والمثالية، ثمَّ

ليس معنى هذا أنه حبُّ يلغي الجسد إغاءً تاماً، فإنَّ هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة ولا يستقيم
مع واقع الصلة بين العواطف والغرائز في الطبيعة البشرية⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على تلك البدوات قول عبد الله بن العجلان:

خُودٌ رِدَاخٌ طِفْلَةٌ مَا الْفُحْشُ مِنْ أَخْلَاقِهَا [مجزوء البسيط]

وَلَقَدْ أَلَذَّ حَدِيثُهَا وَأُسْرٌ عِنْدَ عِنَاقِهَا⁽²⁾

ويقول المرقش الأكبر:

وَرُبَّ أَسِيلَةِ الْخَدَّيْنِ بِكُرٍّ مَنَعَمَةٌ لَهَا فَرْعٌ وَجِيدٌ [الوافر]

وَذِي أَشْرٍ شَنِيبِ النَّبْتِ عَذْبٍ نَقِيٍّ اللَّوْنِ بَرَاقٍ بَرُودٍ⁽³⁾

لَهُوَتْ بِهَا زَمَانًا فِي شَبَابِي وَزَيْنَ بِهَا النَّجَائِبَ وَالْقَصِيدَ⁽⁴⁾

ومهما يكن من أمر، فإنَّ أهمَّ ما ينطوي عليه الغزل الجاهلي هو تكرار المعاني، وصدق
العاطفة وإنسانيتها، فإنَّ الشاعر عندما يتذكَّر حبيبته، ويبثُّها عواطفه، نشعرُ وأنَّ شعره تعبير عن
عواطفنا، رغمَ بعد المسافة الزمنية بيننا وبينه، وذلك لما تحوي خلجات قلبه من شحنات عاطفية لا
تعبّر عن فردٍ أو جماعةٍ في بيئةٍ معينة؛ وإنما تُعبّر عن قاسمٍ مُشتركٍ لعواطف النَّاسِ أجمعين، وإن

(9) - الأنطاكي، داود، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، 154/1.

(1) - خليف، يوسف، الحب المثالي عند العرب، ص48، 49.

(2) - الأنطاكي، داود، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، 142/1.

(3) - الأشر: تحرز في الأسنان يكون في الأحداث. شنيب النبات: ثغر متفرق الثنايا. برود: من البرد.

(4) - الأنطاكي، داود، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، 162/1.

تكلم الشاعر عن أمكنة معينة ومحددة بأسمائها ونباتها وحيوانها، أضاف إلى ذلك المعاني البسيطة المأخوذة من الواقع الحسي القريب وما خبره الشاعر في حياته الاجتماعية مصوغة بأسلوبٍ جزل، قوي، وموجز.

الغزل في عصر الخلفاء الراشدين وصدور الإسلام:

لقد خفت صوت شعر الغزل في عصر صدر الإسلام، ولم يلق مثل الازدهار الذي كان له في الجاهلية وأصابه شيء كثير من الفتور، ولقي شعر الغزل بصورة خاصة من هذا الفتور أضعاف ما لقيه الشعر في أغراضه الأخرى، ويعود ذلك لموقف الإسلام من الشعر والشعراء من الناحية الدينية، وحركة الفتوح من الناحية الاجتماعية، والتعويض بالقرآن عن الشعر من الناحية الدينية، وحركة الفتوح من الناحية الاجتماعية، والتعويض بالقرآن عن الشعر من الناحية الفنية⁽⁵⁾.

وقد انقسم الشعراء في هذا العصر إلى طائفتين: طائفة قد أسلمت ولم تبرا من ضلال الجاهلية، بل ظلت تعاقر الخمرة، وتُسبب بالنساء، غير آبهةً بتهديد بعض الخلفاء لها كحسيم عبد بني الحساس الذي لاقى مصرعه لإفراطه في التشبيب، وأبي محجن الثقفي، غير أن بعضهم خاف وامتنع عن التشبيب المباشر فمال إلى الرمز والكنائيات كحميد بن ثور الهلالي.

أمَّا بعضهم الآخر فقد ترك الشعر كلياً منقاداً إلى الحياة الجديدة عاكفاً على دراسة القرآن الكريم عملاً بالآية الكريمة: { وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ }⁽¹⁾. فضلاً عن انشغالهم بالفتوح ونشر الدعوة الجديدة، وميلهم إلى الخطابة بعدما عرفوا بلاغة الآيات القرآنية وروعة بيانها⁽²⁾.

وخلاصة القول أن الإسلام هدب الغزل في هذه الفترة وسلك في تهذيبه تهذيب النفوس التي كان يصدر عنها وتهذيب الصورة التي كان يُقال فيها.

إنَّ المُتَّبِعَ لحركة الشعر في عصر الخلفاء الراشدين يُحسُّ أنَّ هناك تفاعلاً بين شعر الغزل والحياة الإسلامية، وهذا التفاعل انتهى مرة إلى أن يتلاءم هذا الغزل مع الحياة الإسلامية وانتهى مرة أخرى إلى أن يفترق عنها ويخالف اتجاهها، ففي حين تلاؤمها معها فقد كان ذلك هو الغزل العذري،

(5) - فيصل، شكري، تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص 219-229.

(1) - سورة الشعراء، 224-225.

(2) - ناصيف، إميل، ديوان الحب والغزل، دار جروس، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص 37.

أما حينَ اختلفَ عنها فقد كان هو الغزلُ المُطلق أو المُفحشُ أو الغزلُ العُمريّ، نسبةً إلى زعيم هذه الطائفة من الشعراء هو "عمر بن أبي ربيعة".

وبين هذين اللونين من الغزل كان غزلٌ من نوعٍ آخر هو الغزل التقليدي الذي كان يقوله أصحابه بحكم الاستجابة الفنيّة لتقاليد بناء القصيدة العربيّة أكثر ممّا يقولونه بحكم الاستجابة النّفسية التي كانوا يُحسّونها أو التناغم العاطفيّ الذي كانوا يجدونه.

فالغزل العذري تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرج وتذهب مذهب النّقي، وتؤثر السلامة والعافية على المُقامرة والمخاطرة، وترى أنّ النّفس أمانةً بالسوء، وأنّ النّار قد حُفّت بالشهوات وأنّه من الخير لها أن تصبر، ولذلك أثرت هذه الطائفة أن تعدل عن شهواتها فكانت مثلاً واضحةً للتربية الإسلاميّة في سموها وتعاليتها.

والغزل العمري تعبيرٌ عن طبقةٍ متحرّرةٍ منطلقاً، تضع شهواتها وملاذها فوق كلّ شيء وتلّوب في حياتها تنشد هذه الملاذ والشهوات. إنّها لم تنس نصيبها من الدّنيا ولكنّها نسيت نصيبها من الآخرة، وعادت إلى شيء من بقايا الجاهليّة فغلب عليها الخمر والنساء والإماء. **أما الغزل التقليدي** فقد كان تعبيراً عن الطائفة التي كانت تستبيح لنفسها ما أباح لها الدّين في غير ما حرج أو تزمت⁽³⁾ والتي كانت تتمثل الآية الكريمة:

{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }⁽¹⁾.

الغزل في العصر الأموي:

أولاً: الاتجاه العذري:

شاع الغزلُ العذريُّ العفيف في العصر الأموي وعرفته أكثر من قبيلة، وهو ليس وليد العصر الأموي، بل تمتدّ جذوره إلى العصر الجاهلي، وعرف العصر الأموي عدداً من العذريين وكانت لكلّ منهم قصة حبّ لا تختلف في إطارها العام عن قصص العشاق الجاهليين، وكانت خيوطها تنسج إمّا بالمرعى، أو في أثناء المرور بديار الأحبة، وسرعان ما تتطور وتتعدّد وتتشعب بها السبل، فإمّا أن يتزوَّج المُحبُّ من محبوبته، وإمّا أن يتعدّر عليه ذلك، فيهيئ في هذه الحال على وجهه إلى أن يلقي مصيره المحتوم، حتّى الذين تزوّجوا لم تدم لهم السعادة الزوجية إذ سرعان ما انفصمت عراها

(3) - فيصل، شكري، تطور الغزل بين الجاهليّة والإسلام، ص 279-281.

(1) - سورة القصص، 77.

لضغوط عائلية، تاركة الحب في القلوب يُوججها. وكان خيال الرواة يأبى إلا أن يجمع بين المحبين - في بعض الأحيان - من جديد بأساليب ووسائل ظاهرة التكلّف والغرايبة لما فيها من خروج على أبسط قواعد العرف والتقاليد.

يُنصّف شعُر العذريين بصدق الحبّ والحُرقة والألم والإخلاص وصدق العواطف وتُبلها (2). والديمومة إلى جانب العقّة، والعذريون هم الذين دعاهم الجمال وأغرتهم اللذائذ وثارت في نفوسهم الشهوات، ولكنهم انعتقوا من هذه الشهوات، وانصرفوا عن هذه اللذائذ، وتحصّنوا بالعقّة... ولذلك لم يخشوا أن يُعبروا عن عواطفهم هذه ما دامت البراءة تكسوها والعقّة تملؤها... فانطلقوا يُغنّون عواطفهم ويُنشدون آلامهم وآمالهم (3).

ثانياً: الاتجاه الحسيّ (العُمري):

يجمعُ هذا الاتجاه بين:

أ. الغزل الحسيّ الفاحش. ب. وغير الفاحش ، وقد شاع هذا الغزل في مُدن الحجاز وخاصة في مكّة والمدينة، وكان زعيمه في مكّة عمر بن أبي ربيعة، وفي المدينة الأوص ، وفي الطائف العرجي، الذي كان هو وجماعته أكثر فحشاً من عمر ورهطه (4)، وكانوا يتغزلون في العرييات وغير العرييات من الإماء والجواري.

أمّا الغزل الحسيّ غير الفاحش ففيه كثير من الأوصاف الجاهليّة القديمة، والأوصاف الجديدة حتى قيل إنّها تكادُ تستوعب المظاهر الحضاريّة الجديدة وتُورّخُ للحياة الاجتماعيّة في هذه الفترة (1).

ومن ميّزات هذا الغزل بشقيّه الفاحش وغير الفاحش عدمُ ثبات الشعراء على امرأة واحدة؛ بل كانوا دائمي التقلّة كالنحلة من زهرة إلى أخرى، ممّا دعا إلى كثرة الأسماء عندهم.

ولم يخلُ هذا الغزل من الوقوف على الأطلال وذكرها. ومن البوادر الجديدة في الغزل الحسيّ الأموي كثرة الرّسل والإشارة إلى الرّسائل الغزليّة مع النّساء وقد نمت هذه الظاهرة واتسعت في الغزل العبّاسي وخاصة عند العبّاس بن الأحنف (2).

(2) - بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص 54-55.

(3) - فيصل، شكري، تطوّر الغزل بين الجاهليّة والإسلام، ص 287-289.

(4) - ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط6، (د.ت)، ص 148.

(1) - حسين، طه، حديث الأربعاء، 1/296-297.

(2) - بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص 54.

ثالثاً: الاتجاه التقليدي:

وُجِدَ في العصر الأموي، ولا يعدو أن يكون صورةً مكرّرةً عن الغزل القديم، عند كثيرين من الشعراء مثل الأخطل والفرزدق وجريير والراعي التميمي ممّن انحصر غزلهم في مقدّمات القصائد فوقفوا على الأطلال وديار الأحبة ووصفوها ودعوا إلى تحية أهلها ومُخاطبتهم، وأكثروا من ترداد الأسماء المعروفة للنساء، والأمكنة، ومن ذكر العُدال والوشاة والرقباء وشكوا من نقض العهود، وإخلاف المواعيد، وتألّموا من المماثلة والتسوية، وحنّوا إلى أيّام الشباب، وذمّوا الشيب لأنّه مدعاةٌ لصدود النساء. والقارئ لهذا الغزل لا يجد فيه أثراً لعاطفةٍ قويّةٍ أو تعبيراً عن ألم حقيقي أو إحساسٍ عن نفسٍ مجرّبةٍ إلاّ في القليل النادر. وفي مطالع قصائد جريير خاصّة، وربما اتّجه الشعراء ذلك الاتجاه لعوامل سياسية وحزبية وشخصية شغلت أكثرهم عن الإجابة في الغزل. فأخذوا يقولون فيه كأيّ فنّ من فنون الشعر الأخرى ليتسنى لهم القول في أكثر الأغراض. ولذلك جاء غزلهم تقليدياً مُتكلّفاً ولسان حالهم قول جريير: - "لولا ما شغلني من هذه الكلاب لَشَبَّبتُ تشبيهاً تحنُّ منه العجوزُ إلى شبابها"⁽³⁾.

وقد أشار الدكتور الحوفي إلى ظهور لون آخر من الغزل في هذا العصر، أطلق عليه اسم الغزل الكيدي، وهو غزل تمهيدي يصطنعه الشاعر في شريفة من شريفات خصومه وخصوم قومه لا عن حبٍّ وعاطفة، بل عن تصنُّعٍ وتكلفٍ وادّعاء، يريد أن يعيظهم ويُسَهِّرَ بهم، وهذا الضرب من الغزل الهجائي هو الذي نسمّيه الغزل الكيدي، فلمّا جاء الإسلام توارى هذا الغزل لأنّه يتنافى وتعاليم الإسلام، ثمّ ابتعثه في العصر الأموي عبد الرحمن بن حسان عندما شبّب برملة بنت معاوية، ثمّ جاء شاعرُ الزُّبيريين عبد الله بن قيس الرقيّات الذي اصطنع الغزل بامرأة الوليد بن عبد الملك بنت عبد العزيز بن مروان المعروفة "بأمّ البنين" فأغضب الوليد وأباه وأباها⁽¹⁾.

(3) - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 466/1.

(1) - الحوفي، أحمد محمد، أدب السياسة في العصر الأموي، دار النهضة، مصر، ط2، 1965م، ص257.

المبحث الثاني: *الغزل زمن العباس:

كثُر الغزل في هذا العصر كثرةً مفرطة، فقد عُنِيَ جميع الشعراء بالنظم فيه، وهذه العناية أعدتهُ لازدهارِ الواسع، إذ تداوله أفذاذُ الشعراء، وصاغوه بعقليّاتهم الخصبّة الحديثة وما أوتوه من قدرةٍ على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثيرٍ من الخواطر والأخيلة الجديدة، وقد مضوا يتسعون بكلِّ صوره القديمة حتّى النسيب ووصف الأطلال والديار الدّارسة، فقد استبقوا هذا الوصف، وحاولوا أن يبيّنوا فيه طواع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضري المُرهِف. وقد مضى الغزلُ يجري في نفس النّيّارين اللذين اندفع فيهما منذُ عصر بني أميّة (الغزل الصّريح والغزل العفيف)، وكان النّيّارُ الأوّل أكثر حدّةً وعنفاً، بسبب انتشارِ دورِ النّخاسة وما كانت

تموجُ به من إماءٍ وقيانٍ روميَّاتٍ وخراسانيَّاتٍ، وقد أخذنَ يتسلَّطنَ على الحياة العباسيَّة ويُسعَنَ فيها كثيراً من صور التَّحلُّل الخُلقي مستبدات بمكان الحرائر.

كما كان أكثر شعراء هذا الاتِّجاه من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخُلقيَّة الإسلاميَّة والعربيَّة إمَّا بعامل الزندقة والشُّعوبيَّة، وإمَّا بعامل التَّرف وما ينتشرُ معه من فساد الأخلاق، وشتان بين الغزل الصَّريح في هذا العصر عند مطيع بن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبين الغزل الأموي عند عمر بن أبي ربيعة والأحوص وأمثالهما، إذ كانوا يحتفظون بشيء من الوقار والحشمة، أمَّا مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيُّون فقد خرجوا عن كلِّ حشمةٍ ووقارٍ خروجاً يُشبه أن يكون ثورة، فهم يتحدَّثون في غزلهم عن غرائزهم في غير تعفُّفٍ ولا حياءٍ ولا كرامةٍ وقد استحدث كثير من منهم - باستثناء بشار - ضرباً جديداً من هذا الغزل الصَّريح وهو الغزل بالغلما.

وكان يجري بجانب هذا التِّيَّار بشقيِّه الحسيِّ الفاحش وغير الفاحش تيارُ الغزل العفيف، ولكنَّ مجراه أخذ يضيقُ ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بني أمية. وطبيعي أن يضعفَ هذا التِّيَّار في العصر العباسي الأول الذي قلَّما عرف فيه الشعراء العفة والطَّهر ومع ذلك فقد بقيت له بقيةٌ عند العباس بن الأحنف، وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجواري ثمَّ فإذا ما تمَّ بيعهن وضربَ بينهم وبينهنَّ حجاب صفيق، فعاشوا يتعذبون بالحبِّ، وعاش الحبُّ في قلوبهم قوياً حاداً⁽¹⁾.

الغزل في العصر العباسي:

أولاً: الغزل الحسي (الصَّريح):

الغزلُ الحسيُّ بنوعيه الصَّريح الفاحش، وغير الفاحش أكثر اتِّجاهات الغزل شيوعاً وكماً في القرن الثاني الهجري خاصَّة، وفي عصور الأدب العربي عامَّة، وإنَّ ما عرف من غزل في الجاهلية و الإسلام، لم يصل إلى ما وصل إليه في هذه الفترة كثرةً وصراحةً وتطوراً، فالمرأة العربيَّة الحرَّة لم تعدْ موضوعاً لهذا الغزل إلاَّ في القليل النادر لكثرة الإماء والجواري والقيان وغزوهم المجتمع العباسيَّ غزواً لم يشهد له المجتمع العربيُّ مثيلاً، إذ تقدم هؤلاء الصفوف وتحت المرأة الحرَّة جانباً⁽¹⁾.

(1) - ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ص370-371.

(1) - ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط10، (د.ت)، ص145.

لهذا أصبح الغزل بضاعةً رائجةً رابحة، وكثرة الجوازي واتخاذهنَّ للهو والغناء والعبث قلَّ من شأن المرأة، ولم تعد تُثيرُ في النفوسِ تلك المعاني العميقة أو تلك العواطف المشبوبة، وأصبح الغزل في جملته تعبيرًا عن لذة عابرة وشهوة طارئة لا تصلُّ إلى طوايا النفس ولا تلبثُ على حال. وإلى هذا المظهر السيِّئ للإماء وأثره في الغزل أشارَ الدكتور طه حسين ولكنَّه دعا إلى القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر لأنَّ الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تُمثِّلُ المرأة العربيَّة الحرَّة، أو المسلمة الحرَّة وإنما تمثلُ الرقيق الذي كان يُجلب إلى حواضر المسلمين فيتخذ منها تجارة ولهوا⁽²⁾. لقد كانت بيوتُ القيان مسارحَ لروادِ اللهو والمتعة من المُجان وطلابِ اللذة من الشعراء وغير الشعراء. وأسهمت الغلامياتُ قصرِيَّات وساقيات مثل ما أسهمت جوازي بيوت القيان من رواج سوق الغزل الحسيِّ الفاحش الرخيص، وكذلك الغلمان؛ فإنَّ كثرتهم في هذه الفترة والمغالاة في طلبهم والاهتمام بهم وإيثارهم على الجوازي أشاعَ ظاهرة الغزل بالغلمان (المذكَّر).

١. الغزل الحسيِّ الفاحش:

يدور هذا الغزل حول جوارٍ لسنَّ من الطبقتين السالفتين (بيوت القيان والغلاميات)، جوارٍ من نوعٍ آخر، من الأغلبية السَّاحقة التي كانت تسود المجتمع، فكنَّ مادةً خصبة وأرضًا معطاء لهذا الغزل، وقد تفتنَّ الشعراءُ في هذا الضرب في وصف المرأة حتَّى لا يكاد يفلت عُضوٌّ من أعضائها دون أن يأخذ نصيبه من الوصف والذكر أو التشبيه مدفوعين إلى هذا بالدوافع الحسيَّة الماجنة التي تعشقُ جسدَ المرأة لا روحها، وتقصد إلى التمتع بها لا إلى الإبقاء عليها، تنتسلي ولا تحب. وكان جُلُّ الشعراء من المُجانِ والمتهتكين الذين عرفهم المجتمع وارتفعت الصيحات عاليةً ضدهم، إلا أنَّه ليس ينكرُ أنَّ البيئةَ هي التي ساعدت على خلق هذا الغزل بما كان يسودها من تهتكِ الجوازي وخلاعتهنَّ، فإذا وجد الشاعر جوًّا مُهيئًا انطلقَ من عقاله ورتعَ في المرعى الخصيب وليس ثمة ما يمنع من التعبير عن ذلك الجوّ ونقل بعض صورهِ وأشكالهِ. ولقد بلغَ سوءَ ظنِّ الشعراءِ بالمرأة في هذه الفترة أنَّهم كانوا يتعرضون لأية فتاة تُصادفهم، وتحدِّث الشعراء في غزلهم هذا عمَّا كانوا يريدون من النساء، وما كانوا يفعلون معهم بكلِّ صراحةٍ وجرأة ووقاحة⁽¹⁾.

٢. الغزل الحسيِّ غير الفاحش:

(2) - حسين، طه، حديث الأربعاء، 104/2-105.

(1) - بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص 124-125.

هذا الضرب من الغزل هو الرافد الثاني للاتجاه الحسي، وأكثر شعرائه من أصحاب الرافد الأول. والفارق بين الرافدين أنّ الشعراء في الأوّل قد تبادوا في الوصف والفحش وخرجوا على الشرائع والأعراف والتقاليد، أمّا في الآخر فقد كانوا معتدلين في الغالب إذ قصرُوا غزلهم على الحديث عن جمال المرأة وذكر مفاتها وتشبيها بتشبيهات فيها القديم المعروف عند من سبقهم من الشعراء، وفيها الجديد الذي استمدوه من واقع عصرهم وما وصل إليه مجتمَعهم من تقدّم حضاري. كانوا يعجبون بالجمال أينما وقعوا عليه فيصوّرونه ويقولون فيه، وكانوا في غزلهم هذا كالنحلة دائمي التقلّة من زهرةٍ إلى أخرى. وكانت الأوصافُ الغالبة فيه أوصافاً قديمة طالما ردها الشعراء في الجاهليّة والإسلام⁽²⁾.

وهناك ضربٌ آخر من الغزل عند شعراء القرن الثاني عند الذين كان المجون ديدنهم والتّهتك والفجور مذهبهم، يبدو فيه أصحابه مُحبيّين صادقين في عواطفهم وأحاسيسهم تبرّحهم الصباية، ويُعذّبهم الألم. وفيه شكوى وحرقةٌ من هجران الحبيب وصدوده، ولوم اللاتمين ومراقبة العَدال، إلا أنّ الباحث يستطيع أن يحكم على هذا الحبّ المصطنع لأنّ أكثر الشعراء كانوا ميّالين إلى القول في الغزل وكأنّه هوايةٌ ومتعة⁽³⁾.

ثانياً: الغزل العفيف:

إنّ الغزل في القرن الثاني كان في أكثره غزلاً مكتشفاً لم يشهد له الأدب العربي من مثيل في العصور التي سبقته، ولم يعرف أيّ عصر أدبيّ من الشعراء المجان ما عرفه هذا القرن. ولكن شاءت سنّة الطبيعة ألاّ يخلو هذا القرن من غزلٍ عفيفٍ يبتعدُ أصحابه عن التّعابير المكشوفة، والألفاظ الفاضحة، والصراحة المُخجلة؛ ليحلُّوا محلّها حصيلة ما اعتور نفوسهم من حبّ صادق عفيف، عاشوا له وقضى بعضهم دونه أو كاد. وليس بغريب أن يجدَ هذا الباحث في هذا القرن شعراء من هذا النوع، لأنّ المجتمعات الإنسانيّة مهما بلغ بها الانحطاط مداه في أيّ عصرٍ من العصور لا تعدم أن تجدَ فيها أناساً يقفون في الصّفوف المقابلة مهما كان عددهم قليلاً. وفي هذا يقول الدكتور يوسف بكّار: "إنّ الغزل العفيفَ شجرةٌ نبتت بذرتها في الجاهليّة، ثمّ ترعرعت في العصر الأموي، واستمرّت في العصر العبّاسي"⁽¹⁾.

وهكذا ظلّت لهذا الغزل فروعه في القرن الثاني، وهو ظاهرة طبيعيّة توجبها سنّة الحياة، ولأنّ العفة في القول والعمل غير مرهونة بعصر من العصور، وأنّ انغماس أكثر النّاس ومنهم الشعراء في

(2) - المرجع السابق، ص 138، 139 .

(3) - نفسه، ص 147.

(1) - بكّار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص 249.

القرن الثاني بالمجون ومفانتن الحضارة الجديدة لا يعني انتفاء العفة واختفاءها نهائياً. إذ لا بدّ من أن يوجد في كل مجتمع الخيرون والأشرار، المُجَان والزَّهَاد، وأهل الطَّهر والعفاف. فإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً؛ نلاحظ أنه في الوقت الذي كان يعيش فيه الغزل العذري، وقصص الحب الطاهر في بوادي الحجاز، وعند فقهاء مكة والمدينة، كان عمر بن أبي ربيعة وأضرابه من الشعراء يخرجون على الناس بغزلهم الفاحش الصريح مثلما كان يفعل امرؤ القيس ومن لفّ لفه من قبل وعليه نتساءل: هل هناك من يمنع أن يظهر العباس بن الأحنف ومعه عدد قليل من الشعراء بهذا الغزل العفيف في إزاء غزل بشّار، وأبي نواس، والحسين الخليل، وغيرهم من شعراء العصر؟

هذه سنّة الحياة، لذلك كان الدكتور شوقي ضيف على حقّ عندما عدّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجمعه⁽²⁾.

فقد كان يظنّ أنه لا يوجد إلاّ العباس بن الأحنف ممثلاً لهذا الاتجاه، حيث قال: "وبذلك أصبحنا نفتقد في هذا العصر الشاعر العفيف إلاّ ما كان من العباس بن الأحنف وهو يعدّ شذوذاً على ذوق العصر وذوق إمامه وشعرائه"⁽³⁾.

غير أنّ الدكتور مصطفى هدارة نبّه إلى وجود شعراء آخرين في القرن الثاني ممن امتازوا بالعفة والطهارة من أمثال عكاشة العمي، وابن الأديم، وابن رهيمة، فيكون قد أضاف جماعة إلى العباس تُشاركه في اتجاهه⁽⁴⁾.

وقد التفت الدكتور شوقي ضيف إلى ما جاء به هدارة، فقال: "وكان يجري بجانب تيار الغزل الصريح تيار الغزل العفيف، ولكنّ مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بني أمية... وطبيعي أن يضعف هذا التيار في العصر العباسي الأوّل الذي قلّمَا عرف فيه الشعراء العفة والطهر، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين

هاموا ببعض الجوّاري، ثمّ بعنّ وضرب بينهم وبينهنّ حجاب صفيق، فعاشوا يتعدّبون بالحبّ، وعاش الحبّ في قلوبهم قوياً حاداً " ⁽¹⁾.

(2) - ضيف، شوقي، العصر العباسي الأوّل، ص73.

(3) - ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص64.

(4) - هدارة، محمّد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص536.

(1) - ضيف، شوقي، العصر العباسي الأوّل، ص371.

إنَّ انحصارَ الغزلِ العفيفِ في خمسة شعراء برئاسة العباس بن الأحنف وعضوية عكاشة العمي، وعلي بن الأديم، والمؤمل بن جميل، وابن رهيمة، يؤكد ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف من ضيق مجرى هذا التيار، إذا ما قيس بمثيله في العصر الأموي، ويلاحظ على هؤلاء الشعراء ندرة أخبارهم وقلة أشعارهم - باستثناء العباس - كما أنَّ هؤلاء الشعراء لم يُحطِّهم الرواةُ بهالات التَّهويل والتَّعظيم والتَّزويد، ولم يُسبغوا عليهم ما أسبغوه على أكثر زملائهم من الجاهليين والأمويين ما يشبه الأساطير ومناهات الأحلام أحياناً، ثمَّ إنَّهم قصرُوا شعرهم على فنِّ واحد هو الغزل العفيف الذي يكشف عن حبِّهم الذي ظلُّوا يتعدَّبون من جرَّاءه، ويُعانون بسببه كثيراً من الأمور، وهم فضلاً عن هذا قصرُوا تغزُّلهم على امرأة واحدة بعينها، وكانت أكثر صاحباتهم من الجواري، في حين كانت صواحب زملائهم السابقين من الحرائر، بذا تنطبق عليهم خصائصُ العذريين السابقين من عفة، وتوحيد، وديمومة، وصدق، وإخلاص⁽²⁾.

(2) - بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص 251.

المبحث الثالث: *مكانة العباس بين شعراء عصره:

العباس بن الأحنف، تلميذ عَفَّ وأستاذ الحبّ النبيل، هو تلميذ لأمثال ابن الملوّح، وجميل، وهو ظاهرة فريدة في عصره الذي اضطرب بشئى أنواع العشق، ولا سيّما الغزل الماجن، حتّى أنه لم يُعرف عصر ماجن مثل عصر بني العباس الأوّل، أي القرن الثاني الهجري، ولكن سنّة الحياة تأبى إلا أن يستقيم ميزانها، فيكون غزل العقّة ردّ الفعل المواتي، ويكون العباس ذلك العاشق المتعفف الذي خفّف بغزله الرفيع النبيل غلواء الغرائز المشبوبة، وقد مضى في تجربة عشقه منذ بدايتها حتّى نهايتها في ألوان متعدّدة من صور المعاناة المورّعة ما بين عتب، وصدّ، وسُهد، وفراق، وبين ترحّل دائم، كلُّ هذا نجده في شعره وهو يسيلُ رقةً وعدوبةً، وألمًا للفراق الدائم، ونجده يمثل هذه المعاناة بين شعراء الغزل المترف المتحضّر في عصره. ولوّن العباس غزله بلون عصره وبيئته المتحضّرة من خلال حرارة عشقه، وخفوق قلبه، وهو بذلك يعطي ميزة إمامته للغزلي ن الثبلاء في عصرٍ غطّى الفحش فيه وجه الحياة على يد شعرائه الماجنين الذين عصفوا بكلّ شيء، وكفروا بكلّ شيء⁽¹⁾.

وقد رفع العباس راية الوجدان السليم في العصر الذي بلبله إمام الشعراء الخلعاء وهو أبو نواس⁽²⁾. وحين نقول إنّ العباس بن الأحنف إمام الغزليين الأعفاء أو الثبلاء فذلك يعني أنّ العباء فادحٌ عظيم، فالعقّة أو النبل مقياس تقاس به إرادة الإنسان وعزيمة الرجولة، إزاء أخطر الغرائز، غريزة الجنس.

والعفاف لا يكون من علائم الضعف إلا إذا كان عفاف العاجزين، أمّا إذا كان العفاف عند الرجل يصدر عن رغبة في التصون، فإنّه حينئذ يصبح أعظم قوّة، ومن حقّ الرجل أن يجاهد هواه ليضاف إلى الأشراف، وتلك غاية يتطع إليها أكابر الفتيان⁽³⁾.

وهذا ما نراه في مثل قول العباس:

أَتَأَذْنُونَ لِيَصَبَّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ [البسيط]

لا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفَّ الضَّمِيرَ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ⁽⁴⁾

(1) - سعد الدين، ليلي، العباس بن الأحنف، ص111-113.

(2) - مبارك، زكي، العشاق الثلاثة، المطبعة العصرية، لبنان، (د.ت)، ص90.

(3) - نفسه، ص100.

(4) - ديوانه، ص216.

وهذا الفسق في النَّظَرِ هو في مقياسِ عَفَّةِ الأَعْفَاءِ الَّذِينَ يَعُدُّونَ النَّظَرَ الْبَرِيءَ إِلَى الْمَحْرَمَاتِ
مَحْرَمًا، وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي مَجْتَمَعِ الْقَرْنِ الثَّانِي الْهَجْرِيِّ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَصْبِحُ نَسْبِيًّا، مَعَ بَقَاءِ الْمَقْيَاسِ
وَاحِدًا فِي نَفْسِهِمْ لَا يَتَغَيَّرُ. وَإِلَّا فَمَا حُكْمُ قَوْلِهِ تَعَالَى: { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }⁽¹⁾. وقوله-

سبحانه:-

{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا
ظَهَرَ مِنْهَا }⁽²⁾.

وترجعُ عَفَّةُ أَوْلَائِكَ الأَعْفَاءِ فِي قِصْرِ حُبِّهِمْ عَلَى امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَتَعَدَّهَا الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِلَى سِوَاهَا،
وَلَا يَكَادُ يَشْتَمُّ مِنْ شَعْرِهِمْ رَائِحَةَ الْحَسِّ أَوْ الشَّهْوَةَ الْمَكْشُوفَةَ.

وَمِمَّا يَرْفَعُ مِنْ مَكَانَةِ ابْنِ الْأَحْنَفِ بَيْنَ شَعْرَاءِ الْعَشْقِ تَحْدِيهِ لِلْمَوْجَاتِ الْمَاجِنَةِ الَّتِي كَانَ يَصْدُرُ
عَنْهَا أَهْلُ عَصْرِهِ وَخَاصَّةً إِذَا أُدْرِكْنَا مَدَى شِرَاسَةِ هَذِهِ الْمَوْجَاتِ، مَوْجَاتِ التَّغَزُّلِ بِالْغُلَمَانِ وَشَبَّوَعِ
الْخِلَاعَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَتَيْسَرِ الْحَصُولِ عَلَيْهِنَّ بِأَيْسَرِ السُّبُلِ، الْأَمْرُ الَّذِي دَفَعَ بَعْضَ الرِّجَالِ إِلَى الزَّهْدِ
فِي الْمَرَأَةِ، وَمَحَاوَلَةِ اقْتِنَاصِ اللَّذَّةِ فِي سَبِيلِ آخِرِ يُرْضِي شَهْوَاتِهِمُ الَّتِي تُوجِّجُهَا مَظَاهِرُ التَّرَفِّ وَالْفِرَاقِ
وَوَفْرَةِ الثَّرَاءِ فِي مَجْتَمَعِهِمْ. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ مَجَالِسَ الشَّعْرَاءِ الَّتِي شَاعَتْ فِي مُخْتَلَفِ الطَّبَقَاتِ
كَانَتْ سُقَاتِهَا مِنْ فِتْيَانِ الْفَرَسِ وَالرُّومِ الَّذِينَ تُرَبُّوا عَلَى هَذَا الْعَمَلِ خَيْرَ تَرْبِيَةٍ، وَكَانُوا عَلَى جَانِبِ كَبِيرٍ
مِنَ الْجَمَالِ وَالْخِلَاعَةِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ⁽³⁾.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الشَّدُوذَ الْجَنْسِيَّ يُمَثِّلُ قِمَّةَ الْفَسَادِ الْمَادِّيِّ فِي أَيَّةِ حَضَارَةٍ وَهُوَ بَدَايَةُ السَّقُوطِ
وَالْإِنْحِدَارِ. هَذِهِ الْمَوْجَةُ الْهَدَامَةُ تَجَنَّبَهَا الْعَبَّاسُ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ جَمَاعَتُهُ أَمْثَالَ أَبِي نَوَاسٍ،
وَالْحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ الْمَعْرُوفِ "بِالْخَلِيعِ"، وَ"صَرِيحِ الْغَوَانِي" مَنْغَمَسِينَ كُلَّ الْإِنْغَمَاسِ فِي غُلَمَانِ
مَجَالِسِهِمْ، كَانَ هُوَ فِي مَنْأَى عَنْهَا. وَقَدْ رَكَّزَ قَوَاهُ كُلُّهَا عَلَى مَحْبُوبَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَجِدْ عَنْهَا إِلَى سِوَاهَا.
بِرَغْمِ إِطْلَاقِهِ عَلَى الْمَحْبُوبَةِ أَسْمَاءً كَثِيرَةً نَفَسَرَ مَبْدَأَهُ فِي الْعَشْقِ، وَهُوَ أَنَّهُ أَحَبُّ وَاحِدَةً حُبًّا حَقِيقِيًّا -
هِيَ فَوْزٌ - وَانْتَهَى هَذَا الْحُبِّ. فَكَانَ كُلَّمَا رَأَى بَعْدَ ذَلِكَ امْرَأَةً رَأَى فِيهَا مِنْ فَوْزٍ شَيْئًا فَذَكَرَهَا وَلَهَجَ
بِحُسْنِهَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ وَجُودَ أَكْثَرَ مِنْ صُورَةٍ لِلْمَعْشُوقَةِ، أَيُّ أَنَّهُ كَانَ يَرَى فِي الْجَمِيلَاتِ فَوْزًا فَقَطْ.

(1) - سورة النور، 30.

(2) - سورة النور، 31.

(3) - هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص 539.

وتتجلى مكانة ابن الأحنف في العشق كذلك بتصويره التجربة العربية الموروثة أعظم تصوير
ويضفي على هذه التجربة ألواناً كثيرة زاهية، وصوراً مُشرقة لكثير من مواقف العشق التي لم يُسبق
إليها.

وهذه التجربة العربية الموروثة كان لها ردُّ فعل عند ابن الأحنف فمن أن اشتهاه مكبوح فهو
فيه حيّ لم يمت، وقد مكّنه الموروث الذي ينظر إلى تجربة الحب بالقياس إلى الماضي من أن يلتزم
الحدود الصارمة من الطهر، دون أن يضطره ذلك إلى عدم الإخلاص في تصوير إخلاصه. والميل
العام في هذا الشعر أنه يحسن وصف الحب الحزين، فلا يُشبهه المجنون الذي
وقع ضحية عاطفة أذى به كبئها إلى أن يُصبح مرفوضاً في المجتمع، هذا ما يراه غرونيبوم وهو
يُعزز مكانة ابن الأحنف الذي يتضاعف جهاده لشهوته الحية، ولكنها شهوة لم تدمره بل دمّرت
المجنون، فإنَّ ظروف عصرهما تختلف، فالقرن الثاني الهجري الهائج المائج الضاحك الباكي،
يختلف كلَّ الاختلاف عن جميع العصور قبله وبعده، هو عصرٌ غريب فريد لم يتكرر على مرّ
العصور⁽¹⁾.

(1) - سعد الدين، ليلي، العباس بن الأحنف، ص115.

المبحث الرابع: *أسس العشق عند العباس بن الأحنف :

أرسى العباس بن الأحنف دعائم الحب النبيل، وقاوم به تيارات عصره العشقية المنحرفة، معلناً ثباته في وجه إغراءات هذه التيارات، ولم يكتف بذلك، بل أراد أن يُعلم الناس "شريعة العشق والغرام"، على النحو الذي يراه في حبّ قوامه العذاب، والسهر، والدموع، والعتاب، والمداعبة، والملاحظة، فنقلَ إلى العشاق تجربةً خصبة، وأوقف حبّه على العقّة وجاهد في ميدان الحب وفي التمويه بشخصية معشوقته، والتزم الوفاء، وأكثر من التشكي واللوم والعتاب. وقد قام ابن الأحنف بتطبيق مبادئه على نفسه تطبيقاً استغرق حياته كلها، واستنفذ طاقاته التي لم تُبق منه غير النفس الرقيقة، الوداعة، المرهفة رهافة عفة العشق حيناً، والثائرة الهادرة حيناً آخر، حين يقسو المعشوق ويصد ويهجر⁽¹⁾. والأساس الأول في شريعة عشق العباس هو:

الوفاء:

وقد قلّ من يتّصف بهذه الخلّة في زمن ابن الأحنف، الزمن الذي طغت فيه المادية وتحكّم فيه سلطان الجسد.

والوفاء كما يُعرّفه ابن حزم: "من حميد الغرائز، وكريم الشيم، وفاضل الأخلاق في الحب وغيره، وإنه لمن أقوى الدلائل، وأوضح البراهين على طيب الأصل، وشرف العنصر، يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات".

"وأول مراتب الوفاء، أن يفى الإنسان لمن يفى له، وهذا فرض لازم، وحق واجب على المحبّ والمحبوب، لا يحول عنه إلاّ خبيث المحتد، لا خلاق له ولا خير عنده"⁽²⁾. كان العباس ابن الأحنف ظاهرة متفردة في الوفاء في عصره ومنذ بداية تجربته في العشق، حيث يقول:

وَكُنَّا عَاشِقِينَ ذَوِي صَفَاءٍ وَوَرِيٍّ فِي الْجَوَانِحِ ذِي اتِّقَادٍ⁽³⁾ [الوافر]

وَكُنَّا لَا نَبِيئُ الدَّهْرِ حَتَّى نَكُونَ مِنَ اللُّقَاءِ عَلَى اتِّعَادٍ

فَعَيَّرَهَا الزَّمَانُ وَكُلُّ شَيْءٍ يَصِيرُ إِلَى التَّغْيِيرِ وَالنَّفَادِ⁽⁴⁾

وهذه العلاقة وليدٌ نما في ظروف مواتية لنموها، يقول:

(1) - سعد الدين، ليلي، العباس بن الأحنف، ص118-119.

(2) - ابن حزم، علي بن أحمد، طوق الحمامة، مطبعة حجازي، القاهرة، 1369هـ-1950م، ص78.

(3) - في رواية أخرى: 'يكل لها من اللحظات هادي' بدل 'ووري في الجوانح ذي اتقاد'.

(4) - ديوانه، ص134-135.

وَيَا مَنْ دَعَانِي إِلَيْهِ الْهَوَىٰ فَلَبَّيْتُ لَمَّا دَعَانِي مُجِيبًا [المتقارب]
وَيَا مَنْ تَعَلَّقْتُهُ نَاشِئًا فَشَبَّيْتُ وَمَا آنَ لِي أَنْ أَشِيبَا⁽⁵⁾

والإنسان عامة، أو العاشق خاصة لا يعرفُ الوفاءَ إلا حين يحفظ غيبة من يحب، في حالِي
الغضب والرضا. وهذا كافٍ لتأكيد وفاء المرء كما تأكّد في العباس الذي يقول:

فَوَادِي وَعَيْنِي حَافِظَانِ لِعِيبِهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ رِضَاءٍ وَمِنْ عَتَبٍ⁽¹⁾

هذا هو شعار الحبّ والوفاء الذي يقضي ألا يضمّر القلب ما يُغضبُ المحبوب، وإلا فإنّ
الثمن الذي يدفعه العاشق باهظ، يقول العباس:

قَالَتْ: نَظَرْتُ إِلَىٰ غَيْرِي فَقُلْتُ لَهَا: يَمِينُ ذِي قَسَمٍ بِاللَّهِ مُجْتَهِدًا [البيسط]

مَا أَضْمَرَ الْقَلْبُ شَيْئًا تَعْضِبِينَ لَهُ إِلَّا رَفَعْتُ إِلَيْكَ الطَّرْفَ مُعْتَمِدًا

وَإِنْ هَوَيْتِ فَمَا عِنْدِي مُخَالَفَةٌ فَقَاتِي عَيْنِي حَتَّى لَا أَرَىٰ أَحَدًا⁽²⁾

والعباس العاشق متناهٍ في حساسيته إزاء وفائه لفوز، وهو يبذل قصاره ليبقى عليها، بإرضائها
في مغيبها قبل محضرها، يقول:

أَحَاوَلُ مَا يُرْضِيكَ غَيْرَ مُجَادِلٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ مَغِيبٍ وَمَشْهَدٍ [الطويل]

فَإِنْ جَاءَ مِنِّي بَعْضُ مَا تَكْرَهِيْنَهُ فَعَنْ خَطَأٍ وَاللَّهِ لَا عَن تَعْمُدٍ⁽³⁾

والعباس حين علق قلبه فوراً كانت له قدرًا، ولم يمل قلبه إلى سواها منذ رآها، فهو يراها في
مثل قوله:

وَمَا غَابَ عَنِّي وَجْهَهَا مُدُّ رَأْيِهَا وَلَا مَالٌ بِي عَنْهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا قَلْبِي⁽⁴⁾ [الطويل]

وَلَا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةً وَلَوْ أَنَّنِي تَجَنَّبْتُهَا يَوْمًا لَعَاقَبْتِي رَبِّي

وَلَا اخْتَلَفْتُ حَالِي فِي وَصْلِ حَبْلِهَا لِأَقْطَعَهُ فِي الْبُعْدِ مِنْهَا وَفِي الْقُرْبِ⁽⁵⁾

والعاشقُ الشّاعرُ وفيّ مع جفاء فوز له، وهذا أقصى ما يصنعه الوفاء، إذ إنّ النّفس البشريّة
مجبولة على التّغيير، وفقًا للتّغييرات التي تكتنفها، وعلى رأس هذه تغيّر قلب الإنسان إزاء من يعشق
فالأصالة هي الحفاظ على الودّ مع هذا التّغيير والجفاء يقول:

(5) - نفسه، ص 50.

(1) - ديوانه، ص 69.

(2) - نفسه، ص 138.

(3) - نفسه، ص 165.

(4) - في رواية أخرى: "وما مال" بدل "ولا مال".

(5) - ديوانه، ص 75.

أقول لما ملاني جفوة وهوى يا من كلفت به للشؤم والنكد [البيسط]

أشكو هواك ولا أبغي سواك وإن جرعتني غصص الأخران والكمد⁽⁶⁾

ومن مقتضيات الوفاء حفظ السر مهما يتقول الناس أو يظنون، والسر هو أخبار المحبوبة وصفاتها والإسهاب فيها، فإن ذلك يُغري غيره بها ، يقول:

يظنُّ النَّاسُ الظُّنُونَ وأنتم هَوَايَ الَّذِي أُخْفِي إِلَى يَوْمٍ أَقْبَرُ⁽¹⁾ [الطويل]

ويمرَّ العاشق بمواقف يمتحن به، تُهيئها له الظروف، ومن أشدَّ هذه المواقف أن يجد نفسه مُحاطاً بالحسان من كلِّ لون، ومجتمع العباس يموجُّ بأولئك اللواتي قدَّفت بهنَّ الحياةَ إلى بغداد، فأصبحن صورة ذلك العصر برمته. وقويَّ النَّفس والإرادة هو من يملك نفسه ويصونها في كلِّ المجالات، وهو من تنتصر في قلبه صورة المعشوقة من خلال كلِّ أولئك الحسان دون أن تطغى عليه إحداهنَّ بسحرها، وفي ذلك يقول:

وَأِنِّي لَتَبْدُو لِي الْكَوَاعِبُ كَالدَّمِي وَيَحْفَظُ قَلْبِي غَيْبِهَا وَهِيَ لَا تَدْرِي [الطويل]

وَيُحْجِرُنِي مَنْ لَا أَرَى دُونَ مَا أَرَى شَهِيدِي عَلَيْهِ عَالِمُ السَّرِّ وَالْجَهْرِ

وَيَخْرُنُ قَلْبِي سِرِّهَا وَيَصُونُهُ وَلَيْسَتْ لَدَيْهَا مِنْ حِفَاظٍ وَلَا شُكْرِ⁽²⁾

ومع وفاء العباس كلُّه فإنه يشقُّ عليه أن تقابل فوراً وفاءه بالصدِّ والهجر، على رغم ثقته بوفائه وإخلاصه، وهو يعلم ذلك فيها تماماً فإنَّ لسانَ حالها يقول:

وَأَشْهَدُ أَنَّكَ بِي وَائِقٌ وَإِنْ كُنْتَ تَظْهَرُ مَا تَظْهَرُ [المتقارب]

وَأَنَّكَ تَعْرِفُنِي بِالْوَفَاءِ وَسَتَرَ الْحَدِيثِ وَلَا تُشْكِرُ⁽³⁾

والوفاء عند ابن الأحنف يعني تذكُّر المحبوب، وعدم تناسيه أو نسيانه في جميع الأحوال، والعاشق الوفي لا يذوق السُّرورَ بعيداً عن معشوقته، يقول العباس:

لَا أَسْتَرِيحُ وَلَا أُنْسَاكُمُ أَبَدًا وَلَا أَرَى كَرَبَ هَذَا الْحَبِّ مُنْكَشِفًا [البيسط]

مَا دُنُوتُ بَعْدَكُمْ عَيْشًا سُرِرْتُ بِهِ وَلَا رَأَيْتُ لَكُمْ عِدْلًا وَلَا خَلْفًا⁽⁴⁾

إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ قَلْبٍ يُحِبُّكُمْ وَمَا أَرَى مِنْكُمْ بَرًّا وَلَا لَطْفًا

(6) - نفسه، ص155.

(1) - ديوانه ، ص191.

(2) - نفسه ، ص193.

(3) - نفسه، ص214.

(4) - العدل: النظير والمثل. وفي رواية أخرى: عدلاً ولا نصفاً، أي عدلاً وإنصافاً.

مَا زِلْتُ بَعْدَكُمْ أَهْدِي بِذِكْرِكُمْ كَأَنَّ ذِكْرَكُمْ بِالْقَلْبِ قَدْ رُصِفَا
يَا هَمَّ نَفْسِي وَيَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي حَتَّى مَتَى حُبُّكُمْ بِالْقَلْبِ قَدْ كَلَّفَا ؟ (5)

وفوز للعبّاس هي الحياة نفسها، وهي العالم والوجود ، يقول:

فَلَوْ قَامَ خَلْقُ اللَّهِ صَفًّا وَأُفْرِدَتْ لِشَايِعَتِهَا وَحْدِي وَمِلْتُ عَنِ الصَّفِّ [الطويل]
فَإِنْ شِنِتِ حَرَمْتَ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ بِحَلْفٍ وَإِيمَانٍ وَحَقٍّ لَكُمْ حِلْفِي
فَلَوْلَاكِ مَا زَيَّنْتُ نَفْسِي بِزِينَةٍ وَلَوْلَاكِ مَا أَلْفَتُ حَرْفًا إِلَى حَرْفٍ (6)

وفواء العبّاس أمرٌ أصيل في نفسه، وإنَّ طولَ العهد لا يزيد الشّاعرَ إلاّ تمسُّكًا بالمحبوب، مع ما يعرف من أنّ طولَ العهد يُغيِّر قلبَ الإنسان:

إِنِّي لِأَزَادُ - مَا بَقِيْتُ - لَهَا حُبًّا إِذَا أَزَادَ عَهْدُهَا قَدَمًا (1) [المنسرح]

ويؤكد العبّاس ذلك ويحلف عليه فيقول:

فَوُزُّ وَاللَّهِ مَا مَلَّتْ وَلَا كُدُّ تَلِقُومِ سِوَاكُمْ بِالْمُصَافِي [الخفيف]
أَيُّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي هَنِيئًا إِنَّ جَنْبِي عَنْ مَضْجَعِي مُتَجَافٍ (2)

ويقضي وفاء ابن الأحنف أن يندر الله نذرًا إن كان من فوز ما تقرُّ به عينه. يقول:

وَاشْهَدُوا قَدْ نَدَرْتُ إِنْ كَانَ مِنْ فَوْزٍ عَلَيَّ مَا يُقَرُّ عَيْنِي تَدْوِمُ [الخفيف]
حِجَّةً مَاشِيًا وَتَحْرِيرَ مَا أَمَلِ لَكَ شُكْرًا وَمَا حَيَّيْتُ أَصُومُ
لَيْتَ شِعْرِي أَتَذْكُرْنِي كَذِكْرِي لَكَ أَمْ عَهْدُكَ الَّذِي لَا يَدُومُ
لَيْتَ لِي كُلَّمَا ذَكَرْتُكَ يَا فَوْزُ زُ نَهَارًا أَوْ حِينَ تَبْدُو النُّجُومُ
رَقْدَةَ الرَّاقِدِينَ فِي الْكَهْفِ إِذْ رُوِيَ عَيَّ بِالْحِفْظِ كَهْفُهُمُ وَالرَّقِيمُ (3)

فالنذر الذي يقطعه العبّاس على نفسه هو الحجّ ماشيًا وتحرير ما يملك، وصيام الدهر، وذلك مقابل أن تذكره فوز كذكره لها وتدوم على العهد. ولكن ما الذكرى؟ لقد حددها ابن الأحنف بقوله:

لَيْتَ شِعْرِي أَتَذْكُرْنِي كَذِكْرِي لَكَ أَمْ عَهْدُكَ الَّذِي لَا يَدُومُ (4) [الخفيف]

(5) - ديوانه ، ص253-254.

(6) - نفسه ، ص256.

(1) - ديوانه ، ص330.

(2) - نفسه، ص260.

(3) - نفسه، ص312.

(4) - نفسه، ص312.

فالدُّكْرَى مشروطة، والشرط هو: أن تذكره كما يذكرها، ولكن هيهات لها ذلك، يقول:

مَلَّنِي وَاثِقًا بِحُسْنِ وَفَائِي مَا أَضَرَ الْوَفَاءَ بِالْإِنْسَانِ⁽⁵⁾ [الخفيف]

ودبوان العباس يغص بالغزل الذي يحمل اللفظ الشريف والمعنى العفيف، والوفاء حتى الفناء

تغمره المودة والصفاء، يقول:

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو وَصَلَكُمْ فَظَلَلْتُ مُنْقَطِعَ الرَّجَاءِ [مجزوء الكامل]

أَنْتِ الَّتِي وَكَلْتِ عَيْنِي بِالسُّهَادِ وَبِالْبُكَاءِ
إِنَّ الْهَوَى لَوْ كَانَ يَدٌ فَذُو فِيهِ حُكْمِي أَوْ قَضَائِي
لَطَلَبْتُهُ وَجَمَعْتُهُ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ أَوْ سَمَاءِ

فَقَسَمْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ حَبِيبِ نَفْسِي بِالسَّوَاءِ

فَنَعِيشُ مَا عَشْنَا عَلَى مَحْضِ الْمَوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ

حَتَّى إِذَا مُتْنَا جَمِيعًا وَالْأُمُورُ إِلَى فَنَاءِ

مَاتَ الْهَوَى مِنْ بَعْدِنَا أَوْ عَاشَ فِي أَهْلِ الْوَفَاءِ (1)

العباس وفي لنفسه، وفوز هي نفسه، وهي قدره، يقول:

يَا لَائِمِي فِي الْعِشْقِ مَهْ⁽²⁾ لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَيْسَ يَعْشَقُ [مجزوء الكامل]

أَتَلُومُنِي فِيمَنْ أَنَا مِنْ حُبِّهِ مِثْلُ الْمُعَلَّقِ
وَكَأَنَّ قَلْبِي مِنْ هَوَا هُوَ فِي وَثَاقِ لَيْسَ يُطْلَقُ
يَا مَنْ رَأَى مِثْلِي فَتَى يَسْعَى طَلِيقًا وَهُوَ مُؤْتَقُ
مِنْ حُبِّ خَوْدِ طَفْلَةٍ كَالشَّمْسِ حُسْنًا حِينَ تُشْرِقُ
فَإِذَا يُنَادِي بِاسْمِهَا ظَلَّتْ مَدَامِعُهُ تَرْفَرِقُ
وَإِذَا يَمُرُّ بِبَابِهَا لَثَمَ الْجِدَارَ وَظَلَّ يُصْعَقُ
وَإِذَا تَذَكَّرَهَا بَكَى حَتَّى تَكَادُ النَّفْسُ تَرْهَقُ
فَتَرَاهُ مِنْ وَجْدٍ بِهَا مُتَّوَجِّعًا يَبْكِي وَيَشْهَقُ
هَذَا الْبَلَاءُ بِعَيْنِهِ يَا إِخْوَتِي يَغْدُو وَيَطْرُقُ
أَصْبَحْتُ فِي لَجَجِ الْهَوَى ذَا صَبُوءٍ أَطْفُو وَأَغْرُقُ

(5) - نفسه، ص 350.

(1) - ديوانه، ص 44.

(2) - مه: اسم فعل بمعنى: اكفف.

وَإِذَا فَرَرْتُ مِنَ الْهَوَىٰ أَلْفَيْتُهُ يَسْعَى وَيَلْحَقُ
 أَيْنَ الْفِرَارِ مِنَ الْهَوَىٰ وَيَلِي وَمَنْهُ عَلَيَّ خَنْدَقُ
 وَاللَّهِ مَا لِي حِيلَةٌ لِكِنِّي أَرْجُو وَأَفْرَقُ
 يَا فَوْزُ مَنْنِي وَاجْمَعِي مِنْ شَمَلِنَا مَا قَدْ تَفَرَّقُ
 مَالِي أَحِبُّ وَلَا أُحِبُّ بُّ كَذَاكَ بَعْضُ النَّاسِ يُرْزَقُ
 الْحُبُّ سَخَّرَنِي لَكُمْ تَسْخِيرَ عَبْدٍ لَيْسَ يُعْتَقُ
 عَذَّبْتُمْ جَسَدِي بِحُدِّكُمْ فَلَوْ يَسْطِيعُ يَنْطِقُ
 لَشَكَا إِلَيْكُمْ بِالْبُكَاءِ وَبِالتَّضَرُّعِ وَالتَّمَلُّقِ⁽³⁾

-
 والأساس الثاني في شريعة العشق عند العباس بن الأحنف هو:

الخشوع المطلق أو الطاعة العمياء:

والخشوع في العشق يُحيلُ العاشقَ عبداً موقفاً وأسيراً ذليلاً والهوى مطية الهوان. وإن كان هناك موقع يقف العاشق عنده مُتمرداً على مَنْ يعشق، وهذا هو الغدر، غدرُ المعشوقة لعاشقها وتعلق سواه، عندها يثورُ العاشقُ على العشقِ كلِّه فلا طاعة عنده ولا خضوع. والعشقُ الأحنفي يقومُ على الخضوعِ الذي يُوجبُ الدَّمْعَ نتيجة الغبن والقهر، والدمع والبكاء معلّم من معالم العشقِ العَفِّ. فماذا يعني الدَّمْعُ عند العاشق، وهل هو أمرٌ يتفقُ مع الرجولة؟⁽¹⁾ لقد عشقَ العباسُ فأخلصَ ووفى حياته كلها، وهو على حقّ في هذا إذا كانت المعشوقة تُؤمنُ بمبادئه كما يؤمن هو نفسه بها، كأن يكون لها الإخلاص والوفاء والتوحد. أمّا إذا كانت المعشوقة في ميزان رجل آخر غير عاشقها، فإنَّ الأمرَ يختلفُ والمقياس يضطرب. والخضوعُ هو الطاعة العمياء التي لا تقبلُ الجدل، والميل إلى كلِّ ما يحبه المحبوب، وإيثار رضاه وتجنّب سخطه.

"ومن عجب ما يقع في الحبّ طاعةُ المُحبِّ لمحبوبه، وصرف طباعه قسراً إلى طباع من يحبه، وربما كان المحبوبُ كارهاً لإظهار الشكوى، مُتبرِّماً بسماع الوجد، فترى المحبَّ حينئذٍ يكتُم

(3) - ديوانه، ص 264-265.

(1) - سعد الدين، ليلي، العباس بن الأحنف، ص 128.

حزنه ويكظم أسفه، وينطوي على علته، وأن الحبيب متجنّ فعندها يقع الاعتذار عند كلّ ذنب، والإقرار بالجريمة، والمرء منها بريء تسليمًا لقوله وتزكًا لمخالفته⁽²⁾.

فالعنوان البارز لخضوع العباس هو الرضى بما يصنع المحبوب مُخطئًا أو مصيبًا، يقول:

فِيَا مَنْ رَضِيْتُ بِمَا قَدْ لَقِيْتُ مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبًا⁽³⁾ [المتقارب]

وهذا يدفعه إلى تحمّل دلالتها الذي يعاني فيه المذلة في معظم الأحيان، يقول:

وَقَدْ قَالَ لِي نَاسٌ تَحَمَّلُ دَلَالَهَا فَكُلُّ صَدِيقٍ سَوْفَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ [الطويل]

وَإِنْ تَكُ فَوْزٌ بَاعَدْتَنَا وَأَعْرَضْتَ وَأَصْبَحَ بَاقِي حَبْلِهَا يَتَّقَصَّبُ

وَحَالَتْ عَنِ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا وَصَارَتْ إِلَى غَيْرِ الَّذِي كُنْتُ أَحْسِبُ

وَهَانَ عَلَيْهَا مَا أَلَاقِي فَرِيْمًا يَكُونُ التَّلَاقِي وَالْقُلُوبُ تَقَلَّبُ⁽⁴⁾

ومع كلّ ما يلاقيه من فوز لیسلم بالخضوع ، يقول:

وَلَكِنِّي وَالْخَالِقِ الْبَارِي الَّذِي يُزَارُ لَهُ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ الْمُحَجَّبُ [الطويل]

لَأَسْتَمْسِكَنَّ بِالْوُدِّ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا نَاحَ قُمْرِيٍّ وَمَا لَاحَ كَوْكَبُ

وَأُبْكِي عَلَى فَوْزٍ بَعِينٍ سَخِينَةٍ وَإِنْ زَهَدَتْ فِينَا نَقُولُ سَتَرَعَبُ⁽¹⁾

أما تجنّي المحبوب على المحبّ دون ذنبٍ يجنيه فإنّ العباس يقول فيه:

عَاصٍ مُسِيءٍ مُذْنِبٍ مُتَعَتِّبٍ أَخْفَى رِضَاهُ وَأَظْهَرَ الْغَضَبَا [الكامل]

إِنِّي اعْتَدَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ لَهُ عِنْدِي لِيُظْهِرَ لِي الرِّضَى فَأَبَى

أَقْلَيْسَ ذَا يَا إِخْوَتِي عَجَبًا قَالُوا: بَلَى فَكَفَى بِذَا عَجَبًا⁽²⁾

لقد أعلن العباس لفوز خضوعه المطلق في كلّ ما تأتيه أو تتمناه له، فإنّ السمع والطاعة

شعاره، حتّى ولو كان الموت هو ما تتمناه له، يقول:

إِنْ كَانَ يُرْضِيكُمْ عَذَابِي وَأَنْ أَمُوتَ بِالْحَسْرَةِ وَالْكَرْبِ [السرّيع]

فَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ مِنِّي لَكُمْ حَسْبِي بِمَا تَرْضَوْنَ لِي حَسْبِي⁽³⁾

(2) - ابن حزم، علي بن أحمد، طوق الحمامة، ص 42-43.

(3) - ديوانه، ص 50.

(4) - نفسه، ص 52-54.

(1) - ديوانه، ص 54.

(2) - نفسه، ص 79.

ويُصبح العباس بخضوعه المطلق مسلوب الإرادة لا يكاد يملك نفسه، فهو مستعد لأن يفقأ عينه لأجل فوز، حتّى يُثبت لها أنّه عبدها وطوع أمرها في كلّ ما تشاء، وفي هذا المعنى يقول:

قالت: نَظَرْتُ إِلَى غَيْرِي فَقُلْتُ لَهَا: يَمِينُ ذِي قَسَمٍ بِاللَّهِ مُجْتَهِدًا [البسيط]
 مَا أَضْمَرَ الْقَلْبُ شَيْئًا تَغْضِبِينَ لَهُ إِلَّا رَفَعْتُ إِلَيْكَ الطَّرْفَ مُعْتَمِدًا
 وَإِنْ هَوَيْتِ فَمَا عِنْدِي مُخَالَفَةً فَقَاتُ عَيْنِي حَتَّى لَا أَرَى أَحَدًا
 وَلَا تَنْفَسْتُ إِلَّا ذَاكِرًا لَكُمْ لَا شَيْءَ يَشْعُنِي عَنْ ذِكْرِكُمْ أَبَدًا⁽⁴⁾

وفوز هي سيّدة العباس ومالكته ومليكته والمتصرّفة في شؤونه، السيّدة التي يستعذبُ استعبادها له، فيقول:

أَسَيِّدَتِي بِاللَّهِ الْأَرْحَمِئِنِّي وَفَرَّقْتَ أَحْزَانِي وَقَرَّبْتَ فِي الْوَعْدِ؟ [الطويل]
 أَلَا إِنَّمَا أَفْنَى الدُّمُوعَ تَلَقَّتِي إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ عَسْكَرِ الْمَهْدِيِّ
 وَأَنِّي لَصَادِي الْجَوْفِ وَالْمَاءِ حَاضِرٌ أَرَاهُ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَرْدِ
 وَمَا كُنْتُ أَحْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي بِكَفِّ أَحْصَ النَّاسِ كُلَّهُمْ عِنْدِي⁽⁵⁾

ويمضي العباس في توسلاته وابتهالاته إلى فوز، جاعلاً منها السيّدة التي في يدها مصيره، يقول:

سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا بِالْعَاشِقِينَ اِكْتِنَامُ [السريع]
 سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي إِنِّي أَعْجَزُ عَنِ الْبَلَايَا الْعِظَامِ
 سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي فَاسْمَعِي دَعْوَةَ صَبٍّ عَاشِقٍ مُسْتَهَامٍ⁽¹⁾

ومع هذا كلّهُ فقد كان يثور أحياناً ويتمرد، ويضحى هو السيّد وهي المسود، فيقول:

فَلَنْ رَدَدْتَ رِسَالَتِي وَشَتَمْتَنِي فَلَطَالَمَا نَادَيْتَنِي يَا سَيِّدِي [الكامل]
 فَسَلِي فَوَادِكَ كَيْفَ عَاصَى بَعْدَمَا قَدْ كَانَ يَتَّبِعُنِي ذَلِيلَ الْمَقْوَدِ
 إِنِّي لِأُصْبِحُ فِي جِهَادٍ مِنْكُمْ كَمَوْحِدٍ يُؤَدِّيهِ دَيْنَ الْمُلْحَدِ⁽²⁾

ويقول:

(3) - نفسه، ص 105.

(4) - نفسه، ص 138.

(5) - نفسه، ص 142-143.

(1) - ديوانه، ص 335.

(2) - نفسه، ص 148-149.

شَتَّانَ يَا سَيِّدَتِي بَيْنَنَا شَتَّانَ مِنْ وُدِّكُمْ وَدِّي [السريع]
إِذْ صِرْتُمْ تَلْهُونَ يَهْنِكُمْ وَدَمْعُ عَيْنِي عَلَى خَدِّي⁽³⁾

ونجدُ العباسَ يستعذب العذاب في حبِّ فوز، فيقول:

أَشْكُو هَوَاكَ وَلَا أَبْغِي سِوَاكَ وَإِنْ جَرَّعْتَنِي غُصَصَ الْأَحْزَانِ وَالْكَمَدِ⁽⁴⁾ [البسيط]

إنَّه استعذاب العاشق المقهور الذي فَقَدَ زَمَامَ نَفْسِهِ مَعَ هَذَا الْهَوَى الْعَاصِفِ، يَقُولُ:

خَصَّنِي اللَّهُ بِهَذَا الْحَبِّ دُونَ النَّاسِ وَحَدِي [مجزوء الكامل]
كُنْتُ أَغْنِي النَّاسَ عَنْ ذِي لِكَ لَوْلَا شَوْمُ جَدِّي⁽⁵⁾

وَالْخُضُوعُ يَدْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَى الْقَلْقِ الدَّائِمِ، الْقَلْقُ مِنْ سَخَطِ الْمَحْبُوبَةِ، وَمَا يَجْرُهُ هَذَا السَّخَطُ مِنَ الْبَلَاءِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِسَاءَتَهَا وَغَضَبَهَا حَتَّى يَبْرِحَ نَفْسَهُ مِنْ عِنَاءِ قَلْقِهِ، يَقُولُ:

وَإِنِّي لِأَخْشَاهَا مُسِيئًا وَمُحْسِنًا وَأَفْضِي عَلَى نَفْسِي لَهَا بِالَّذِي تَقْضِي [الطويل]
فَحَتَّى مَتَى رَوْحَ الرِّضَا لَا يُصِيبُنِي وَحَتَّى مَتَى أَيَّامُ سَخَطِكَ لَا تَمْضِي⁽⁶⁾

الْعَبَّاسُ فِي حُبِّهِ مَرْغَمٌ عَلَى الْخُضُوعِ فِي الْحَبِّ، إِذْ أَنْ حُبَّهُ لَهُ أُبْعَادُهُ الْخَاصَّةُ الَّتِي قَدْ لَا يَسْتَقِيمُ مَعَهَا أَيُّ حَبٍّ آخَرَ، وَمَنْ أَدَبَ الْمُحِبِّ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلًا دَائِمًا، يَقُولُ:

فَلَوْ قَوِيَتْ لَعَزَّتْ عَنْكَ نَفْسِي وَلَكِنَّ الْمُحِبَّ هُوَ الذَّلِيلُ⁽⁷⁾ [الوافر]

وَبَعْدَ هَذَا الصَّرْمِ الَّذِي تَقَابَلَهُ بِهِ الْمَحْبُوبَةُ يَعُودُ إِلَى اسْتِعْطَافِهَا مِنْ جَدِيدٍ، يَقُولُ:

بِحُرْمَةٍ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْوُدِّ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ إِلَى الْوَصْلِ! [الطويل]
وَإِلَّا أَقْتُلُونِي أَسْتَرِحْ مِنْ عَذَابِكُمْ عَذَابِكُمْ عِنْدِي أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ
فَلَمْ أَرْ مِثْلِي كَانَ عَاتِبَ مِثْلَكُمْ وَلَا مِثْلَكُمْ فِي غَيْرِ ذَنْبٍ جَافٍ مِثْلِي!⁽¹⁾

وَيُلْحِقُ الْعَبَّاسُ عَلَى فَوْزِ بِالْقِسْمِ، وَلَكِنَّهُ قَسَمَ بِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ أَسْبَابٍ، يَقُولُ:

بِحُرْمَةٍ مَا قَدْ يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْوُدِّ إِلَّا عُدَّتُمْ بِجَمِيلِ⁽²⁾ [الطويل]

(3) - نفسه، ص 151-152.

(4) - نفسه، ص 155.

(5) - نفسه، ص 156.

(6) - نفسه، ص 238.

(7) - نفسه، ص 287.

(1) - ديوانه، ص 289.

(2) - نفسه، ص 310.

ماذا يمكن أن يكونَ بينَ المُحبِّينَ في نهاية المطاف؟ لا شيءَ إلاَّ الهجر، وبالتَّحديد هجر الملل، والملل كما يقول ابن حزم: "مَنْ الأَخلاقِ المطبوعة في الإنسان، وأحرى لمن ذهى به ألاَّ يصفو له صديق. وهذه الصفة تكون في المحبوبين لأنَّهم أهل التجنِّي والتظنِّي"⁽³⁾. وهذا الهجرُ لا أمل في الوصال بعده، ماذا ينتظر العباس من قلبٍ شُغِلَ بغيره؟ لم يبقَ لدى العباس العاشق غير سوء الظنِّ يُضيفه على كلِّ أنثى بعد فوز، ولم يعد يثق بواحدة منهن، يقول:

لا عَرَنِي بَعْدَكَ إِنْسَانٌ فَقَدْ بَدَتْ لِي مِنْكَ أَلْوَانٌ⁽⁴⁾ [السريع]

لا شكَّ أنَّ ما بقيَ في قلب العباس على فوز هو رماد الحُبِّ الذي لا يشتعل بعدها، ولا يُظهرُ لهيباً، لأنَّ هجرها يعني الخيانة، فهي تخون العباس في إنسانٍ آخر، وخيانةُ أحد الحبيبين ليست مغفورة لدى الآخر، فهي الجرح الذي لا يندمل، ويصبح المرء بعدها في حالة تقربه من الجنون بوسواسه وشكِّه، حتَّى يضحي الشك مرضاً لا براءَ منه، يقول:

لو كُنْتُ حِينَ مَلَلْتِ وَصَلِي قُلْتِ لِي اكْفَيْ فَلَستُ مُواصِلاً إِنساناً [الكامل]

لَحَزَنْتُ وَوَدَّكَ فِي الفُؤادِ وَلَمْ أَزَلْ لَكَ حَافِظاً وَمَنْحَتُكَ الهِجْراناً⁽⁵⁾

إنَّ طبيعةَ فوزٍ تُشير إلى أنَّها ملول مُتقلِّبة، وكلَّ أمر لا بُدَّ أن يأخذ مجراه بادئاً بالبداية ومُنتهياً إلى النِّهاية. أمَّا البداية فهي بيد فوز:

أَبْكَى الَّذِينَ أَدانُونِي مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إِذا أَيْقَظُونِي لِلهُوى رَقَدُوا⁽⁶⁾ [البسيط]

(3) - ابن حزم، علي بن أحمد، طوق الحمامة، ص73.

(4) - ديوانه، ص354.

(5) - نفسه، ص355.

(6) - نفسه، ص142.

(1) _ ديوانه، 361.

(2) _ نفسه، ص142.

(3) _ نفسه، ص142.

(4) _ نفسه، ص146_147.

(5) _ نفسه، ص321.

(6) _ نفسه، ص344.

(7) - نفسه، ص349.

وكذلك النهاية فهي بيد فوز، وبداية هذه النهاية هو التَدَلُّ، والتَمَتُّع، والعتاب، والحساب،
والعذاب، والصدِّ، وخلف الوعد، ومنع الرِّسْلِ والرِّسائل، فيقول:

تَعْتَلُّ بِالشُّغْلِ عَنَّا مَا تُكَاتِبُنَا الشُّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشُّغْلُ لِلْبَدَنِ (1) [البسيط]

كلُّ هذا والعبَّاسُ مستغرقٌ في عشقه، بينما فوز المعشوقة تبدأ بداية ثانية في طريق آخر، غير
طريق العباس، وهي متقلِّبة لا تثبت ولا تستقرّ، وما أسرع تقلُّب الملول، عندها يكون على العاشق أن
يلهت وراء المعشوقة التي بها نفسية غريبة، يقول:

وَاسْتَنْهَضُونِي فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِبًا بِثِقَلِ مَا حَمَلُوا مِنْ وُدِّهِمْ قَعَدُوا (2) [البسيط]

وهذا نذيرٌ شوِّمٌ بالنهاية المحتمة، وخلف الوعد يؤذن بالخطب الفادح، يقول:

جَارُوا عَلَيَّ وَلَمْ يُوفُوا بِعَهْدِهِمْ قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ يُوفُونَ إِنْ عَهَدُوا (3) [البسيط]

وهنا تتفتح بصيرة العباس على الحقيقة التي كان يُماطل فيها، وكان إن راجع حسابات أيامه
مع فوز، لوجدها تُشير إلى معالم واضحة تُبين خيانتها، ويؤكد عدم احتفالها بهداياه وردّها إليه، رغم
تهاديبها في الماضي، يقول:

رَدَّتْ عَلَيَّ هَدِيَّةً لَوْ أَنَّهَا بَعَثَتْ إِلَيَّ بِمِثْلِهَا لَمْ أُرُدِّ [الكامل]

وَتَقُولُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ غَوَايِي فَأَذْهَبَ لِشَأْنِكَ رَاشِدًا لَمْ تُطْرِدْ (4)

فالماضي يؤكد أنّهما كانا يتهاديان، وقد كانت فوز تهدي العباس هدايا منها السواك، واللبان
تمضغه وترسله على تفاحة، وحقاب، وخاتم وغير ذلك، يقول:

فَلِي عِنْدَهَا بُرْدٌ تُسَكِّنُ قَلْبَهَا بِهِ وَلَهَا عِنْدِي حِقَابٌ وَخَاتَمٌ (5) [الطويل]

ويقول:

أُرْسَلْتُ بِاللُّبَانِ قَدْ مَضَعْتُهُ فَوْقَ تَفَاحَةٍ عَلَى رِيحَانٍ

وَبِمِسْوَاقِهَا الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّـهُ لَهَا لَفِيهَا مِنْ أَطْيَبِ الْأَغْصَانِ (6) [الخفيف]

أمّا حين تنقطع الرسائل فذلك يعني أنّ رسائل المعشوقة قد وجدت لها متنفساً آخر وهذا هو
نزاع الموت بالنسبة للمعشوق، يقول:

وَأَلَيْتِ أَنْ لَا تُكْتُبِي فَفَجَعْتِي بِأَكْبَرِ شَيْءٍ مِنْكَ كَانَ يَكُونُ (7) [الطويل]

وتأكيداً لما آلت عليه فوز من مقاطعة عاشقها بالتراسل فقد عززت هذا بالفعل فقال:

أَيَّ مَنْ لَا يُجِيبُ لَدَى السُّؤَالِ وَيَا مَنْ لَا يُثِيبُ عَلَى الْوِصَالِ [الوافر]

وَيَا مَنْ قَوْلُهُ لِي حِينَ أَشْكُو إِلَيْهِ مَتَّ بِدَائِكَ لَا أَبَالِي

أَلَسْتَ تَرَى الَّذِي أَلْقَى فَتْرَتِي لِطَوْلِ صَبَابَتِي وَلِسُوءِ حَالِي؟ (1)

ويعد ذلك ، ماذا يُجدي العتاب وهل ينفع الرجاء؟ فقد تحوّل القلبُ إلى سواه، ولا رادّ له،

يقول:

إِنَّ جُهْدَ الْبَلَاءِ حُبُّكَ إِنْسَانًا هَوَاهُ بِأَخْرٍ مَشْغُولٌ (2) [الخفيف]

لم يبقَ للعبّاس ما يتوسّل به إلى فوز، لقد جاءت النّهاية، وأدرك أنّه لا جدوى من التوسّلات، وما على العاشق إلا أن يصبرَ لحكم الأيّام بالهجر، يقول:

هَجَرْتُكَ لَمَّا رَأَيْتُ الْجَفَاءَ وَإِنْ كَانَ هَجْرُكَ عِنْدِي عَظِيمًا (3) [المتقارب]

ويتأكّد الأمر تمامًا، ولم يعد يقبل الشكّ، فقد علم أنّها تخونه، يقول:

حَبِيبٌ أَتَانِي أَنَّهُ خَانَ عَهْدَهُ فَبِتُّ بِلَيْلٍ مَا تَزُولُ كَوَاكِبُهُ [الطويل]

فَوَاللَّهِ مَا أُذْرِي أُغْضِي لِذَنْبِهِ كَأَنِّي لَمْ أَعْلَمْ بِهِ أَمْ أَعَاتَيْهِ

إِذَا مَا جَنَى ذَنْبًا ظَلَلْتُ كَأَنِّي بِهِ صَاحِبُ الذَّنْبِ الَّذِي هُوَ صَاحِبُهُ (4)

إنّ خيانة المحبوبة عاشقها تسمّم حياته وتُحيله إلى ثورة شكّ، ولا يعود بعدها يأمنُ امرأةً قطّ ، فقد بات يرى في كلّ امرأة (فورًا) التي خانته بعد أن أفنى شبابه في عشقها، فكيف الحال بسواها؟!

القلبُ بعدها يحترق، ولا يقوى على حبّ جديد، وإن كان فيه بعض الوقفات التي يُعزّي بها نفسه، ولكنّها تحت أي ظرف ليس حبًّا أو شبيهاً بالحبّ. يقول:

لَيْسَ الْحَبِيبُ عَلَى مَا كُنْتُ تَعَهَّدُهُ قَدْ غَيَّرَ الدَّهْرُ ذَاكَ الْحُبِّ أَلْوَانًا [البسيط]

فَلَا تَزَالُ عَلَيْهِ الْعَيْنُ بَاكِئَةً وَلَنْ يَعودَ إِلَى مَا كَانَ مَا كَانَا (5)

بدأ العبّاس بحبّ وحيد متوحّد، وكان سبب تفتح مشاعره وأحاسيسه على أعظم عواطف الوجود ، ومضى في عشقه مع فوز، يقول:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ فَاصْطَلَى بِالْحُبِّ فَاحْتَرَقَا (6) [المديد]

(1)_ ديوانه ، ص 303 .

(2)_ نفسه ، ص 306 .

(3)_ نفسه ، ص 323 .

(4)_ نفسه ، ص 99 .

(5)_ نفسه ، ص 351 .

(6)_ نفسه ، ص 226 .

لم تعد الأنثى تساوي في نظر العبّاس شيئاً، ولكنّها تُعيده بطريقة أو بأخرى إلى فوز فيبعد أن كانت معشوقته لا نظير لها في البشر، وبعد أن كانت من الحور العين، أضحت واحدةً من أولئك

اللواتي يموجُ بهنَّ مجتمعه الصّاحب، واختلطت الأمورُ عليه، إلاّ أنّه مضى بتلقين العُشّاقِ خلاصة تجاربه التي أنفذهَا عملاً وفعالاً بمشاعره وأحاسيسه وروحه وقلبه بكلِّ ما في هذا الحُبِّ من رقةٍ وعذوبة.

لم يعد العشقُ اللاهب شُغلَ العباس، ولكنّها الأمانةُ في ذمّته وعليه أن يُؤدّيها، يقول:
سلامٌ على الوصلِ الذي كانَ بيننا تداعتُ بهِ أزمائهُ فتَضَعُصعا⁽¹⁾ [الطويل]

لقد كان الثمنُ فادحاً، كانت كرامةُ العباسِ هي الثمن، ويُقال: "إنَّ الهوى مطيئةُ الهوان"، هذا إذا حافظت المحبوبةُ على العهد، أمّا إذا خانت فإنَّ أيسرَ الأثمانِ يصبح فادحاً، يقول:
أليسَ بحسبي أن أبيعَ كرامةً بذلٌّ وأن أُعطي المُبهرجَ بالصَّرْفِ⁽²⁾ [الطويل]
ولو أنصفتني في المودّةِ والهوى رضيتُ ويَرْضيني أقلُّ من النِّصْفِ⁽³⁾

إنَّ الحُبَّ الصادقَ العفّ، لا يموت، لكن يستتر بين الجوانح ليكون لصاحبه زاداً وعوداً، ونوراً يهديه ويُبَيِّرُ قلبه وعقله ولبّه، ولكنّه زادٌ فيه الألمُ المكتوم، والحزنُ الهادئ، والمشعل، والرّاية، فيقول:
ورضيتُ بعدَ تنكُّبِ طُرُقِ الهوى أن قيلَ صاحبُ رايةِ العُشّاقِ⁽⁴⁾ [الكامل]

وشريعةُ ابن الأحنف العشقية المتوحّدة تقتضي الألمَ والدّمعَ والحزنَ، حزنٌ موطأً بالكفِّ والكبح، فإنَّ العاشقَ كما يراه ابن الأحنف يجاهد دائماً في أن يبقيها على نحو ما يريد، ولا تريد هي، وتجبره تقاليد الحضارة على أن يُدَلَّ بها ويذرف الدّموع... فهو فارس، ولا حرجَ على الفارسِ إذا ضعف أمام صاحبتّه. يقول:

ما يصنَعُ الصَّبُّ الحزِينُ جفاهُ أهلُ صَفائِهِ [مجزوء الكامل]
لا شيءَ إلاّ صَبْرُهُ حتّى يموتَ بدائِهِ
أو يشنّفي ممّا يُجِنُّ إذا خلا بِبُكائِهِ⁽⁵⁾

وثالثُ الأسس والأصول عند ابن الأحنف هو:

(1) - ديوانه، ص 243.

(2) - المُبهرج: - الدرهم الزائف. الصَّرْف: - الخالص، أي الدرهم الصحيح.

(3) - ديوانه، ص 255.

(4) - نفسه، ص 275.

(5) - نفسه، ص 43.

الكتمان:

وهو من أبرز ما يُميّز عشق ابن الأحنف، وقد اتخذ الكتمان عند ابن الأحنف صوراً كثيرة،
وتفنّن فيه العباسُ تفنُّناً سكب فيه لوعة مشاعره وتدفّق أحاسيسه.

وأبرزُ صور الكتمان على الإطلاق إخفاء اسم المحبوبة والنّمويه عليه بإطلاق أسماء أخرى
كثيرة عليها. وبلغ به الأمرُ إلى حدّ أنّه كان يجمع بين اسمين من أسمائها في بيت واحد ليشعرنا
أنّهما شخصيتان مختلفتان، يقول العباس:

اشْفَعِي يَا ظَلُومَ لِي عِنْدَ فُوزٍ طَالَمَا قَد نَفَعْتِي يَا ظَلُومَ⁽¹⁾ [الخفيف]

والعباسُ يكتُم اسمَ المحبوبة صوتاً لعرضه، لأنّ ما يمسّها يمسّه، وما يشينها يشينه، لذا
فالكتمان أشدّ حماية لها وله فيقول:

كَتَمْتُ اسْمَهَا كِتْمَانَ مَن صَانَ عَرِضَهُ وَحَادَرَ أَنْ يَفْشَوْ قَبِيحَ التَّسْمَعِ [الطويل]

فَسَمَّيْتُهَا فَوْزًا وَلَوْ بَحَثْتُ بِاسْمِهَا لَسَمَّيْتُ بِاسْمِ هَائِلِ الذُّكْرِ أَشْنَعِ⁽²⁾

الدّمعُ رفيقُ العاشق، وهو حين يبكي بعذابِ العشق وقوّة المعشوق، فإنّما يبكي من قاتلٍ لا
يعرفه سواه، فهذا العاشقُ أحقُّ العشاقِ بالبكاءِ عليهم، يقول:

بَكَى وَكُنَى عَمَّنْ يُحِبُّ وَلَمْ يَبْحُ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ قَائِلُهُ [الطويل]

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ يَكْتُرَ الْبُكَاءَ عَلَيْهِ قَتِيلٌ لَيْسَ يُعْرِفُ قَاتِلَهُ⁽³⁾

والعباسُ حين يُنادي معشوقته يُجسّدُ أشواقه ويجعلها لمعشوقته اسماً، فيقول:

يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ يَا مَنْ لَا أُسْمِيهِ يَا مَنْ إِذَا خَدِرْتُ (4) رَجَلِي أُنَادِيهِ [البسيط]

وليس كتمان الاسم إلاّ لوناً من ألوانه، وبعض هذه الألوان كتمان الحبّ، وهو ما لم يستطعه
العباسُ، برغم مجاهدته الجهاد العنيف، وإنّ أموراً كثيرة تفضحُ عشقه، وأبرز علاماتِ الدّمعِ الهتون

(1) _ ديوانه ، ص 312 .

(2) _ نفسه ، ص 241 .

(3) _ نفسه ، ص 309 .

(4) - كان في اعتقاد العرب أنه إذا خدرت رجل امرئ وسمى من يهواه ذهب الخدر .

(5) _ ديوانه ، ص 376 .

الذي يذرفه بغير ما سبب، إلا من سبب عشقه الدفين اللاهب، ومع هذا فالعبّاسُ يحتالُ إلى هذا الكتمان بأساليب شتى. ومن هذه الأساليب تجاهله المحبوب حتى لا يعرف به، فإذا سُئل عنها وكلّمهم إلى أخرى، فيقول:

وَإِذَا سُئِلْتُ عَنِ الَّتِي شَغَفْتِ قَلْبِي وَكَلْتُهُمْ إِلَى أُخْرَى [الكامل]
مَا زِلْتُ أَكْذِبُهُمْ وَأَكْتُمُهُمْ حَتَّى شَهَرْتُ بِغَيْرِ مَنْ أَهْوَى (1)

ويقول:

سَأَسْتُرُ وَالسُّتْرُ مِنْ شِيَمَتِي هَوَى مَنْ أَحَبُّ بِمَنْ لَا أَحِبُّ [المتقارب]
وَلَا بُدَّ مِنْ كَذِبٍ مِنَ الْهَوَى إِذَا كَانَ دَفْعُ الْأَذَى بِالْكَذِبِ (2)

إنّ العبّاسَ بن الأحنف فتان في مبدأ الكتمان، فهو يتشوق إلى المحبوبة، ويتلهّف إلى سماع أخبارها، ولكن كيف وهو يخشى أن يكشفَ عن هواه؟ إنّه يستفسرُ عن غيرها ممّن يلدنُ بها، ومن خلال هذا يعرف أخبار معشوقته، يقول:

وَأَبْدَأُ مَا اسْتَخْبِرْتُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا لِتَحْسِبَنِي عَنْ غَيْرِهَا أَتَخَبَّرُ (3) [الطويل]

والمبالغة في التكنّم تغري الناس بالفضول، فإذا كان العاشقُ حريصاً على إخفاء اسمها، فلن تكن محاسنها، فقد يتوصلون من خلالها إلى اسم صاحبته، ولكنّ العبّاسُ أشدُّ حرصاً منهم فهو يُموّه حتى في محاسنها، ويقول:

قَالُوا كَتَمْتَ اسْمَهَا فَانَعَتَ مُحَاسِنَهَا وَذَلِكَ خَطْبٌ جَلِيلٌ غَيْرُ مُحَقَّرٍ [البسيط]
وَهَلْ يَقَوْمُ بِوصفِ الشَّمْسِ وَاصِفُهَا وَالشَّمْسُ مِنْ جَوْهَرٍ عَالٍ وَمِنْ نُورٍ (4)

ويضطربُ العبّاسُ أحياناً، فيزعم أنّ في خدّها خالاً وما بالخدّ من خال، يقول:

أَقُولُ بِالْخَدِّ خَالَ حِينَ أَنْعَتُهَا خَوْفَ الْوَشَاةِ وَمَا بِالْخَدِّ مِنْ خَالٍ (5) [البسيط]

(١) _ ديوانه ، ص 42 .

(٢) _ نفسه ، ص 86 .

(٣) _ نفسه ، ص 190 .

(٤) _ نفسه ، ص 216 .

(٥) _ نفسه ، ص 301 .

والعبّاسُ حريصٌ على كتمان اسمها ووصفها حتّى في حال مفاجأته بالسؤال "مَنْ يُحِبُّ؟" يقول:
فَإِذَا قِيلَ مَنْ تُحِبُّ؟ تَخَطَّأَ كِ لِسَانِي وَأَنْتِ فِي الْقَلْبِ ذَاكَ (1) [الخفيف]

وفوز العبّاسِ هي غرض أيّ حديث يُحدّثه في محضرها ولكنّه يخشى عليها أن تُعرّف به ،
 ويُعرّف بها، فلا يوجّه إليها نظره بالحديث ويتّقيها، فيقول:

**أُرِيدُكَ بِالْكَلَامِ فَأَتَّقِيهِمْ فَأَعْمَدُ بِالْكَلَامِ إِلَى سِوَاكَ [الوافر]
 وَأَكْثَرُ فِيهِمْ ضَحِكِي لِيَخْفَى فَسِنِّي ضَا حِكْ وَالْقَلْبُ بَاكِ (2)**

وحين يُطلبُ منه أن يصفَ صورةَ فوز ليتوصّلوا إلى حقيقة شخصيتها، لا يصفها وصفًا
 جزئيًا، بل يكتفي بالخطوطِ العريضة لمقاييس الجمال فيقول:

**يَا مَنْ يُسَائِلُ عَن فَوْزٍ وَصَوْرَتِهَا إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَهَا فَانظُرْ إِلَى الْقَمَرِ [البسيط]
 كَأَنَّمَا كَانَ فِي الْفَرْدَوْسِ مَسْكُنُهَا صَارَتْ إِلَى النَّاسِ لَلآيَاتِ وَالْعَبْرِ
 لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لَهَا شَبَهًا إِنِّي لِأَحْسَبُهَا لَيْسَتْ مِنَ الْبَشَرِ (3)**

أمّا إذا أراد العبّاسُ أن يزدادَ تحرُّجًا وتحرُّرًا وصوتًا لمحبيبته، فإنّه يلجأ إلى لون آخر من
 التكتّم، وهو أن يصدّ عن فوزٍ إذا رآها ولكنّه صدودٌ خدود لا صدودَ قلوب، يقول:

(1) _ ديوانه ، ص 281 .

(2) _ نفسه ، ص

(3) _ نفسه ، ص 209 .

(4) _ نفسه ، ص 159 _ 160.

سَاهَجُرُ إِنْفِي وَهَجْرَانُنَا إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودُ الْخُدُودِ [المتقارب]
 كلانا مُحِبٌّ وَلَكِنَّا نُدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِالصُّدُودِ (4)

ومن صور الكتمان كذلك غَضُّ البصر عن المعشوقة، يقول:

وَأَرَانِي إِذَا التَّقِينَا أَعْضُ الطَّرِّ فَ مِنْ دُونِهَا وَمَا بِي صُدُودٌ (1) [الخفيف]

أما حين يتأزَّم الموقف ويخشى العَبَّاسُ أن يُفْلِتَ زمام الأمور من يده بالكشف عن حقيقة المعشوقة فإنه يصدُّ عنها صدًا كاملاً ذرًّا للرَّماذ في العيون، يقول:

وَأَهْجُرُ عَمْدًا كَيْ يُقَالَ لَقَدْ سَلَا وَلَسْتُ بِسَالٍ عَنْ هَوَاكِ إِلَى الْحَشْرِ [الطويل]

ولكن إذا كان المُحِبُّ عَلَى الَّذِي يُحِبُّ شَفِيقًا غَافِلَ النَّاسِ بِالْهَجْرِ (2)

والعَبَّاسُ العَاشِقُ ذَكِيٌّ لَمَّاحٌ، فهو يعلم وهي تعلم أيضًا أن صدوده عنها أمام النَّاسِ جُنَّةٌ وَتَقِيَّةٌ، ومع هذا فهو يُصَرِّحُ لها بذلك خشية أن يداخلها ولو شيء من السخط، يقول:

وَمَا الْهَجْرُ إِلَّا جُنَّةٌ لِي لِبَسْتِهَا أَقْبِكَ بِهَا مِمَّا نَخَافُ وَنَفْرُقُ [الطويل]

عَطَفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتِهَا قَمِيصًا مِنَ الْكُتْمَانِ لَا يَتَمَرَّقُ (3)

وسرَّ هذا الصَّدود، هو العهد الذي قطعه العَبَّاسُ على نفسه وفيه يقول:

وَأَكْتُمُ سِرَّهَا مَا عَشْتُ حَتَّى أَمُوتَ وَلَا أُحُونَ وَلَا أُحُولُ (4) [الوافر]

فالصَّدود تَقِيَّةٌ، والهَجْرُ تَقِيَّةٌ، يتَّقِي بها كَيْدَ العَدُوِّ الكَاشِحِ، يقول:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ إِلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ [الكامل]

وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعِدِي وَتَسْتُرِي أَوْفَى لِيُوصَلِّكَ مِنْ دُنُوِّ فَاضِحٍ (5)

ويمرُّ العَاشِقُ قَرِبَ دَارِ المعشوقة فيقول:

وَإِذَا يَمُرُّ بِبَابِهَا لِنَّمَّ الْجِدَارَ وَظَلَّ يُصْنَعُ (6) [مجزوء الكامل]

ومع ذلك فهو يخالف هذا ويقول:

إِذَا تَعَمَّدْتُمْ جَاوَزْتُ بَابَكُمْ كَيْ لَا تَكُونُوا لِإِقْبَالِي وَإِدْبَارِي [البسيط]

(1) - ديوانه، ص 137.

(2) - نفسه، ص 201.

(3) - نفسه، ص 270 .

(4) - نفسه، ص 287.

(5) - نفسه، ص 129.

(6) - نفسه، ص 264.

أَخْبِرَ النَّاسَ أَنِّي قَدْ سَلَوْتُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا مَكْنُونُ إِضْمَارِي⁽⁷⁾

ويجهد العباس في هذا الحرص المضني حتى في حال بكائه لا يرحم، فيقول:

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلهم مما يلي الغرب خوف القيل والقال⁽⁸⁾ [البسيط]

وهذا كله يحدد علاقات ابن الأحنف بمن يحب في نطاق السرية العفة، والتكتم الشاق والتحرُّج خوفاً على حبيبه، وحرصاً على سمعته.

أما زيارة العشاق فهي معلم آخر يُخَفِّف من غلواء العاشق وحده المعشوق. إنها تعني في عرف العشاق العفة الشاقة القاسية التي تكلفهم العناء النفسي، أما إذا بلغت هذه المعاناة النفسية أوجها فإن الزيارة تُصبح ضمن المحرمات المحظورات حفاظاً على العفة التي لا يريد لها العباس أن تفسد بعد طول مجاهدة، يقول:

إِنِّي لِأَجْتَنِبُ الزِّيَارَةَ جَاهِداً وَالشُّوقُ بَيْنَ جَوَانِحِي يَتَضَرَّمُ⁽¹⁾ [الكامل]

وتلك المجاهدة العفيفة يُفسرها العباس بقوله:

إِذَا التَّقِينَا شَكُونَا مَا نَكَاتِمُهُ فِي عِفَّةٍ وَحَدِيثٍ مِنْ هُنَا وَهُنَا⁽²⁾ [البسيط]

والكتمان يُنهك قوى صاحبه ويضنيه، وهو داء يسري في جسده سريان النار في الهشيم، وقل من يقوى على كتمان سره من البشر، وخاصة إذا كان هذا السر يُكلفه حياته كلها، يقول:

كَتَمْتُ وَمَنْ أَهْوَى هَوَانَا فَلَمْ نَبْجِ وَقَدِ كَانَتْ الْأَسْرَارُ بِاللَّمْحِ تَظْهَرُ [الطويل]

فَنَحْنُ كِلَانَا مُقْصَدٌ فِي فُؤَادِهِ مِنْ الشُّوقِ نَارٌ حَرُّهَا يَتَسَعَّرُ

فَلَا أَنَا أُبْدِي مَا أُجِنُّ وَلَا الَّذِي بِهِ مِثْلُ مَا بِي لِلْمَخَافَةِ يَذْكَرُ

فِيَا عَجَبًا مِنِّي وَمِنْهَا وَصَبْرُنَا عَلَى مَا نُلَاقِي كَيْفَ نَصَبُو وَنَصَبِرُ

وَمَا صَبْرُنَا إِلَّا نَبُوحَ فَنَشْتَكِي سَرَائِرَ مَا يُخْفِي الضَّمِيرُ وَيُضْمِرُ

مَلَالًا وَلَكِنْ نَتَّقِي قَوْلَ كَاشِحٍ يُبَلِّغُ عَنَّا مَا نَقُولُ وَيُظْهِرُ

فَنَكْتُمُ مَا يُخْفِي الضَّمِيرُ تَحْفُظًا وَخَيْرُ الْهَوَى مَا كَانَ يُخْفِي وَيَسْتَرُ

عَلَى أَنَّهُ يَبْدُو مِرَارًا مِنَ الْفَتَى طَوَالِغِ إِنْ هَاجَ الْفُؤَادَ التَّنَكَّرُ

إِذَا غَلَبَ الصَّبْرَ الْبُكَاءُ وَهَيَّجَتْ تَبَارِيحُهُ فَالصَّبُّ بِالذِّكْرِ يُعْذَرُ⁽³⁾

(7) - نفسه، ص 175.

(8) - نفسه، ص 301.

(1) - ديوانه، ص 318.

(2) - نفسه، ص 353.

(3) - نفسه، ص 206.

ماذا يصنع الصَّبُّ الحزين إذا ما برح به الألم والسُّهد والعذاب فبكى؟

العبَّاسُ العاشق قد غلبه صبره فبكى، لأنَّ ذاك الصَّبْرُ فوق روحه وقلبه وجسده، برغم ما في عصره من مغريات قد تخفف من لهيبه ولو للحظات، ولكنَّه يجاهد نفسه كي يغسلها ويطهِّرها بدمعه، بعيداً عن مطهِّرات الحياة الماديَّة، وما أسرع ما يبكي العاشق، وما أشدَّ ما تذرْفُ دموعه ذرفاً تغسلُ معه أعماقه، فيضحى العاشق أكثر شفافية، وأشدَّ رفاهة في جسِّه وحده، وقد يبكي العاشق لغير سبب وقد تبكيه أنفه الأمور.

ولدموع العاشق أنواعٌ أمرُّها ما كان بسبب الهجر، وغالبًا ما يكون هذا الهجر بسبب وشاية واشٍ أو حسدٍ حاسدٍ أو عدلٍ عاذلٍ، ويكون أحياناً بغير سبب يجنيه العاشق إلا ما يمليه على المعشوقة خيالها ومزاجها وهكذا، يقول:

إذا هَجَرَ المُحِبُّ بكي وأبدي عتاباً كي يَرَاخَ من العتابِ [الوافر]
وإن رَامَ اجْتِنَاباً لم يُطِفَّهُ ولا يقوى المُحِبُّ على اجْتِنَابِ⁽¹⁾

والهجرُ يعدل الموت، وبه يبكي العاشقُ دماً لا دموعاً، وإذا ما عصى العاشقُ دمه أجراه بتذكُّر المعشوق ما كان منه، يقول:

وإذا عصاني الدَّمْعُ في إحدى مُلِمَّاتِ الخُطوبِ [مجزوء الكامل]
أجرِيتهُ بتذكُّري ما كان من هَجْرِ الحبيبِ⁽²⁾

فالهجرُ هو معلَّم العاشقِ البكاء، يقول:

أهْمُ بالهَجْرِ أحياناً وأُفْتَرِفُ⁽³⁾ فَلَيْتَ شِعْري أَمْضِي فيه أَمْ أَقِفُ [البيسط]
عَلَّمَتِ عَيْني بُكاً لم تَبْكِهِ أَحَدٌ من كُلِّ شُفْرِ⁽⁴⁾ بَعَيْني دَمْعَةً تَكْفُ⁽⁵⁾

وهكذا حياةُ العشاقِ بكاءً وانتداب وسهر، يقول:

يَنَامُ الهاجِعُونَ ونومُ عيني إذا هَجَعَتْ بُكَاءً وانتحاب⁽⁶⁾ [الوافر]

(1) - ديوانه، ص 62.

(2) - نفسه، ص 81.

(3) - أفترف: أرتكب.

(4) - الشُّفْرُ: معزز الشعر في جفن العين. تكف: تسيل.

(5) - ديوانه، ص 258.

(6) - نفسه، ص 83.

مُدَارَةٌ عَجِيْبَةٌ تَلِكُ الَّتِي يَدَارِي بِهَا الْعَاشِقُ مَحْبُوْبَتَهُ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَسْخِطُهَا، وَكُلُّ أَمْرٍ يَغْضِبُهَا،
وَعَلَى الْعَاشِقِ أَنْ يَجْرِيَ لَاهِيًا وَرَاءَهَا فِي كُلِّ ذَلِكَ، يَقُولُ:
أَبْكِي إِذَا سَخِطْتُ حَتَّى إِذَا رَضِيْتُ بِكَيْتُ عِنْدَ الرِّضَا مِنْ حَشِيَّةِ الْغَضَبِ⁽⁷⁾ [البسيط]

وَمَنْ يُشَارِكِ الْعَاشِقَ هُمُومَهُ دُونَ أَنْ يَبْوَحَ بِهَا؟ إِنَّهَا الْحَمَائِمُ؛ فَهَدِيلُهَا يَهِيْجُ دَمْعَ الْعَاشِقِ
وَيَبْكِيهِ. وَظَاهِرَةٌ مَنَاجَاةُ الْحَمَائِمِ مَعْرُوفَةٌ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَلَا يَكَادُ شَاعِرٌ عَاشِقٌ يَغْفَلُهَا، وَكُلُّ شَاعِرٍ
عَاشِقٍ يَعْكَسُ عَلَى الْحَمَائِمِ مَشَاعِرَهُ وَحَزَنَهُ وَأَلَمَهُ، يَشْعُرُ بَعْدَهَا أَنَّهَا تُشَارِكُهُ بِهَدِيلِهَا الْحَزْنَ وَالْأَلَمَ. وَإِذَا
هَدَلَ الْحَمَامُ كَانَ ذَلِكَ الْهَدِيلُ دَعْوَةً لِأَلَيْفِهِ. وَالْعَبَّاسُ الْعَاشِقُ يَفْتَقِدُ الْأَلَيْفَ الَّذِي خَانَ وَغَدَرَ وَهَجَرَ،
يَقُولُ:

رَأَيْتُ الْحَمَامَ فَهَيَّجَنِي وَفِيضَنَ مِنْ عِبْرَاتِي غُرُوبًا [المتقارب]
نَوَاعِمُ بَيْنَ غُصُونِ الْأَرَاكِ كِ صَادِقُنْ أَمْنَا وَخَفْضًا وَطِيْبًا
فَلَمَّا بَكَيْتُ وَأَبْكَيْتُهُنَّ تَمَنِّيْتُكُمْ أَنْ تَكُونُوا قَرِيْبًا (1)

فَالشُّوقُ دَاعِيَةُ الْبِكَاءِ، وَالْعَاشِقُ فِي شُوقٍ دَائِمٍ مُتَجَدِّدٍ، وَالْبِكَاءُ لَا يَنْقَطِعُ، فَيَقُولُ:
وَمَا نَزَحَتْ لِلْعَيْنِ بَعْدَكَ عِبْرَةٌ إِذَا انْحَدَرَتْ قَادَتْ لَهَا أُخُوَاتِ [الطويل]
وَأَسْتَرْزِقُ الرَّحْمَنَ لِلْعَيْنِ نَظْرَةً إِلَيْكَ تَدَاوِيْهَا مِنْ الْعِبْرَاتِ
فَإِنْ مَتُّ بِالشُّوقِ الَّذِي بِي إِلَيْكُمْ فَتِلْكَ لَعْمَرِي حَسْرَةُ الْحَسْرَاتِ (2)

بِكَاءٌ لَا يَنْقَطِعُ، وَدَمُوعٌ لَا تَرْقَأُ، فَمَا سُرُّ هَذِهِ الدُّمُوعِ فِي عَصْرِ مِثْلِ عَصْرِ ابْنِ الْأَحْنَفِ؟
سُؤَالٌ تَطْرَحُهُ الدَّكْتُورَةُ لَيْلَى سَعْدِ الدِّينِ، وَتَقُولُ: "إِنَّ دَمُوعَ ابْنِ الْأَحْنَفِ تَبْدُو غَرِيبَةً نَوْعًا مَا،
فَبِغْدَادِ الْقَرْنِ الثَّانِيِ الْهَجْرِيِّ، مَدِينَةٌ لَاهِيَةٌ صَاحِبَةٌ، يَغْطِيُ اللَّهُ وَجْهَهَا. وَتَتَحَكَّمُ فِيهَا الْمَادِّيَّاتُ
بِأَنْوَاعِهَا، وَأَفْعَلُهَا مَادِّيَّاتُ الْجَسَدِ، وَالْأَمَاكِنُ اللَّاهِيَةُ الَّتِي يَرْتَادُهَا أَهْلُهَا كَثِيرَةٌ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ.

وَالْعَبَّاسُ شَارِكٌ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ، وَانْغَمَسَ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ، وَلَكِنَّهُ انْغَمَسَ مِنْ يَتَعَاطَى الْفِتْوَةِ عَلَى
سِتْرِ وَعَقَّةٍ، فَشَرِبَ وَطَرِبَ لَهَا. وَلَكِنْ بِمِقْدَارِ مَا أَتَاحَتْ لَهُ جِرَاتُهُ.

(7) - نفسه، ص 84 .

وتضيف قائلة : هل كان لدموع العباس مكان في حياته ؟ وتعني بالدموع الدموع الحقيقية
 اللاهية الكاوية، وليست تلك التي يذرفها الخيال. وللإجابة على هذا السؤال تعرض هذه القصيدة
 لتقف على جوهر دموع العباس العاشق الموله، (3) حيث يقول:

(١) _ ديوانه ، ص 113 .

(٢) _ نفسه ، ص 92 .

(٣) _ سعد الدين ، ليلي ، العباس بن الأحنف ، ص 148 _ 149 .

[المتقارب] عَطَفْنَا إِلَى مَنْزِلِ حَاضِرٍ كَثِيرِ اللَّذَاذَةِ مُسْتَبْشِرِينَا

وقد احكموا جمع آلاته وكنا بأحكامه الآمرينا
 فلما انتهينا إليه وقد حننا إليه جميعاً حيننا
 أقمنا على أنها نعمة تقر بها أعين الناظرينا
 نكب ونبزل مثل العز ل لم تحمل الرأس منه قرونا (1)
 ندير على القوم مستبدلاً لهم بالشراب كفيلاً ضمينا
 يظل لأكؤوسهم راعياً كثير السجود وما يركعوننا

يُدِيرُونَ أَكْؤُوسَ مِنْ فِضَّةٍ وَمَا يَفْتَرُونَ وَمَا يَمْتَرُونَ

فَحَفَّتْ عَلَى ذَاكَ أَيْدِي السَّقَاةِ وَطَابَتْ بِهِ أَنْفُسُ الشَّارِبِينَا
 وَنَحْنُ عَلَى حُسْنِ آدَابِنَا نُدِيرُ الْكؤُوسَ عَلَيْنَا يَمِينَا
 إِذَا مَا أَمَرَتْ عَلَى أَوْلَيْنَ مِنَ الشَّارِبِينَ أَتَتْ آخِرِينَا
 فَلَا هِيَ تَفْتَرُ مِنْ مَرَّهَا وَلَا نَحْنُ مِنْ شُرْبِهَا فَاتِرُونَ
 إِذَا أَمَكَنْتَ بَعْضُنَا لَمْ يَزَلْ يُرْفَعُهَا أَوْ يَصُكُّ الْجَبِينَا
 وَلسْنَا نُؤَخَّرُ مِنْ شُرْبِهَا فَنجعل منها علينا ديونا
 نُحْيَا بِهَا وَنُسْقَى مَعَا وَنُتْبَعُهَا الْوَرْدَ وَالْيَاسَمِينَا
 وَعَيْنُ الْجَوَارِي يُغْنِينَا بِهَا نَتَلَّهَى وَمَا يَلْتَهِينَا
 حَسَنُ الْوَجْهِ عِظَامُ الْجُسُومِ كَغِرْلَانِ بَرِيَّةٍ يَرْتَعِينَا

يَكْدُنْ إِذَا هُنَّ غَنَيْنَا لَنَا يَلْتَوِينِ وَمَا يَلْتَوِينَا
 رَضِينَا بِهِنَّ لِلذَّاتِنَا هُنَاكَ وَهُنَّ بِنَا قَدْ رَضِينَا
 إِذَا النَّأْيُ جَاوَبَ أَصْوَاتَهُنَّ وَأَوْتَارَهُنَّ فَرَنْتُ رَبِّنَا
 وَرُوْعَنَ بِالصُّبْحِ أَبْصَرْتَنَا نُفْدِي بِأَنْفُسِنَا أَجْمَعِينَا
 فَحَنُّ عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالِنَا كَأَنَّا سِيوْفٌ لِدَاكَ انْتَضِينَا
 نُحِبُّ السَّمَاعَ وَنَلْتَذُهُ وَنَشْرَبُ مَا عِنْدَنَا آمْنِينَا
 وَفِي تِلْكَ نُنْفِقُ أَمْوَالِنَا وَنَشْرَبُهَا أَبَدًا مَا بَقِينَا
 نَظَلُّ الشُّهُورَ وَأَيَّامَهَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَطَوَّلَ السَّنِينَا⁽²⁾

هل مثل تلك المجالس تخفف لوعة ابن الأحنف؟. تقول الدكتورة ليلي سعد الدين: "إنها لا تعتقد هذا في الشاعر العاشق، وإن كان يلجأ إلى هذا اللهو حين تسافر محبوبته إلى بلدها الحجاز، وكثيراً ما كانت ترتحل وتطول إقامتها، فليس له بعدها إلا أن يترك بغداد مسافراً إلى أي بقعة أخرى. فلعل ذلك يُنسيه نفسه وألم فراق فوز، أو يحضر مجالس اللهو، وقد تجدد هذه المجالس شوقه إلى فوز وتمده بطاقة من الصبر انتظاراً لقدمها(1). حتى إذا عادت أنشأ يقول:

مَرْحَبًا بِالْأَحِبَّةِ الْقَادِمِينَ فَلَعْمَرِي لَطَالَ مَا أَوْحَشُونَا⁽²⁾ [الخفيف]

ويقول:

مَرْحَبًا وَاللَّهِ حَقًّا بِحَبِيبِي وَأَمِيرِي [مجزوء الكامل]
 وَيَمَنْ شَوْقِي إِلَيْهِ شَفَّ جَهْرِي وَضَمِيرِي
 وَيَمَنْ يَذْهَبُ بِالْهَـ مَّ وَيَأْتِي بِالسُّرُورِ⁽³⁾

لقد بالغ العباس بن الأحنف في الكتمان، وطال طوافه حول هذا المعنى حتى صار عنواناً عليه وقد أولع بهذا المعنى وقد افتنَّ فيه افتتناً يشهد بأنه كان غاية في الذكاء، كالذي نراه في هذين البيتين:

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِيْنَا قَوْلَهُمْ فِرْقَا [البسيط]
 فَجَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرِكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا⁽⁴⁾

(1) _ يصف الدن . نكب ، من كب الأبناء : قلبه وأكفاه . نيزل ، من بزل الخمر : تقب إناها .

(2) - ديوانه، ص 338-342.

ويقول إنّه كتم حبه عن حبيبه حيناً من الزمان:

هذا كتابٌ بدمعِ عيني أملاه قلبِي على بناني [مخلع البسيط]
إلى حبيبٍ كُنيتُ عنه أجلّ ذكرٍ اسمه لِساني
قد كُنْتُ أطوي هواهُ عندي مُدُّ كُنْتُ في سالفِ الزَّمانِ
فَبَحْتُ إذ طالَ بي بلائي ولم يكن لي به يدان (5)

- (١) _ سعد الدين ، ليلي ، العباس بن الأحنف ، ص 150 ،
(٢) _ ديوانه ، ص 352 .
(٣) _ نفسه ، ص 218 .
(٤) _ نفسه ، ص 274 .
(٥) _ نفسه ، ص 356 .

وفوز اسم ابتدعه العباس، ليخفي هوية المحبوبة، وقد تنذرت إحدى جاراته فسَمَّتْ خادمتها فوزاً لتبالغ في السُّخريّة منه، ولهذا قال:

ما يَنقُضي عَجبي من جَهْلٍ حاسِدَةٍ كانت بذي الأثَلِ من خِذني وأنصاري [البسيط]
سَمَّتْ وَليدَتِها فوزاً مُغايِظَةً عذرتُ لو لَطَمَتني ذاتُ إسوارِ
وما يَزالُ نِساءً من قَرابَتِها من كُلِّ نَاحِيَةٍ يَهتَكُنَّ أَسْتابِري (1)

وفي هذه الأبيات تصريح بأن أقارب محبوبته، كانوا يحاولون فضح هواه، وهو هوَى لم تفضحه غير الدُموع ، فقد قال:

لا جَزى اللهُ دَمعَ عيني خيراً وَجَزى اللهُ كلَّ خيرٍ لِساني [الخفيف]
نَمَّ دَمعي فَلَيْسَ يَكُنُّمُ شَيْئاً وَوَجَدْتُ اللِّسانَ ذا كِتمانِ
كُنْتُ مِثْلَ الكِتابِ أَخْفاهُ طَيِّياً فَاسْتَدَلُّوا عَلَيهِ بِالْعِنوانِ (2)

ثمَّ قال:

هَبوني أَعْضُ إذا ما بَدَتْ وَأَمْلِكُ طَرْفي فلا أَنْظُرُ [المتقارب]

فَكَيْفَ اسْتَتَارِي إِذَا مَا الدُّمُوعُ نَطَقْنَ فَبُحْنَ بِمَا أُضْمِرُ⁽³⁾

ويعزّي قلبه أنه سيموت مكتوم السرّ إلا عمّن يحبّ فيقول:

أبكي الذين أذافوني مودّتهم حتى إذا أيقظوني رقدوا [البسيط]
 واستنهضوني فلما قمتُ مُنْصَبًا بِثَقَلٍ مَا حَمَلُوا مِنْ وُدِّهِمْ قَعَدُوا
 جَارُوا عَلَيَّ وَلَمْ يُوْفُوا بِعَهْدِهِمْ قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهُمْ يُوفُونَ إِنْ عَهَدُوا
 لِأَخْرَجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَحُبُّكُمْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ
 أَلْفَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْهَمِّ مَعْرِفَةً لَا تَنْقُضِي أَبَدًا أَوْ يَنْقُضِي الْأَبَدُ
 حَسْبِي بِأَنْ تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ أَحَبَّكُمْ قَلْبِي وَأَنْ تَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي أُجِدُّ⁽⁴⁾

إنّ عذوبة هذه المعاني تجعل القلب به يغني، وتشجن به الروح، ويضطرب له الوجدان، ويطيب للعبّاس أن يذيع أنه سلا عن الحبّ، لينصرف الناس عن إيذاء محبوبته. وفي هذا يقول:

كذبتُ على نفسي فحدّثتُ أنّي سلّوتُ لِكَيْمَا يُنْكَرُوا حِينَ أَصْدُقُ [الطويل]
 وما عن قلبي منّي ولا عن ملّالة ولكنني أبقّي عليكِ وأشفقُ
 عطفْتُ على أسراركم فكسوتُها قَمِيصًا مِنَ الْكِثْمَانِ لَا يَتَخَرَّقُ⁽¹⁾

ويتمنى لو استطاع سنّر حُبّه عن قلبه، فيقول:

إذا لم يكن للمرء بُدٌّ من الردى فأكرّم أسباب الردى سببُ الحبّ [الطويل]
 ولو أنّ خلقًا كاتمَ الحبّ قلبه لمتُّ ولم يعلم بحبكم قلبي⁽²⁾

وييأس العبّاس من الكتمان فيقول:

(١) - ديوانه ، ص 176 _ 177 .

(٢) - نفسه ، ص 366 .

(٣) - نفسه ، ص 189 .

(٤) - نفسه ، ص 142 .

(1) - ديوانه، ص 270.

(2) - نفسه، ص 80.

إِنَّ الْمُحِبِينَ قَوْمٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ وَسَمٌّ مِنَ الْحَبِّ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ⁽³⁾ [البسيط]

إِنَّ شَهْرَةَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ بِالكَتْمَانِ قَدْ مَلَأَتْ الْأَنْدِيَةَ فِي زَمَانِهِ، وَدَعَتْ إِلَى التَّرْحُمِ عَلَيْهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقَدْ حَدَّثُوا أَنَّهُ مَاتَ هُوَ وَإِبْرَاهِيمَ الْمُوصِلِيَّ وَالْكَسَائِيَّ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى الرَّشِيدِ، فَأَمَرَ الْمَأْمُونَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِمْ، فَصُفُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَأَمَرَ بِتَقْدِيمِ الْعَبَّاسِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ وَانصَرَفَ، دَنَا مِنْهُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، كَيْفَ آثَرَتِ الْعَبَّاسَ بِالنَّقْدَمَةِ؟ فَأَنْشَدَهُ الْمَأْمُونُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

سَمَّاكَ لِي قَوْمٌ وَقَالُوا إِنَّهَا لَهِيَ الَّتِي تَشْقَى بِهَا وَتُكَابِدُ [الكامل]
فَجَحَدْتُهُمْ لِيَكُونَ غَيْرَكَ ظَنُّهُمْ إِنِّي لِيُعْجِبُنِي الْمُحِبُّ الْجَادِدُ⁽⁴⁾

ثُمَّ قَالَ: اتَّحَفْظُهُمَا؟

قَالَ: نَعَمْ!

فَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْ قَالَ هَذَا الشَّعْرُ أَوْلَى بِالنَّقْدَمَةِ؟

فَقَالَ: بَلَى يَا سَيِّدِي.⁽⁵⁾

لِصَلَاةِ الْمَأْمُونِ عَلَى الْعَبَّاسِ مَعْنَى مِنْ أَكْرَمِ الْمَعَانِي، فَمَا يُصَلِّي الْمَأْمُونُ عَلَى مَيِّتٍ بِأَمْرِ الرَّشِيدِ إِلَّا إِنْ كَانَتْ لِلْمَيِّتِ مَكَانَةٌ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَمَا يُرْفَعُ أَمْرُ ثَلَاثَةِ مِنْ الْأَمْوَاتِ إِلَى الرَّشِيدِ إِلَّا إِنْ كَانُوا مِنْ مَشَاهِيرِ الرِّجَالِ. فَكَيْفَ كَانَتْ مَكَانَةُ الْعَبَّاسِ؟

كَانَ يُجَالِسُ الرَّشِيدَ فِي أَوْقَاتِ الْجَدِّ، وَكَانَ يَصْحَبُهُ فِي بَعْضِ الرِّحَالِ الْجَدِّيَّةِ، وَكَانَ أَهْلُ عَصْرِهِ يَتَعَنَّنُونَ بِشَعْرِهِ، وَتِلْكَ مَزَايَا تَقَرَّدَ بِهَا بَيْنَ شُعْرَاءِ ذَلِكَ الزَّمَانِ. وَقَدْ سَرَى هَذَا الْإِحْتِرَامُ إِلَى صُدُورِ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ، فَقَدْ كَانَ الْوَائِقُ مِنَ الْمَفْتُونِينَ بِشَعْرِهِ إِلَى أْبَعْدِ حُدُودِ الْفَنُونِ.

يُضَافُ إِلَى هَذَا تَعَفُّفُهُ عَنْ هَدَايَا الْأَمْرَاءِ، وَتَرْقَعُهُ عَنِ النَّزَعَاتِ السُّوقِيَّةِ وَحِرْصِهِ عَلَى كِتْمَانِ الْحُبِّ، وَلَا يَكْتُمُ اسْمَ الْمَحْبُوبَةِ غَيْرَ الْمُحِبِّ النَّبِيلِ. وَالْأَسَاسُ الرَّابِعُ هُوَ:

التَّصَوُّفُ وَالْعَفَافُ:

(3) - نفسه، ص 146.

(4) - نفسه، ص 139.

(5) - ابن خَلَّانَ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَفِيَاةِ الْأَعْيَانِ، تَحْقِيقُ: إِحْسَانُ عَبَّاسٍ، دَارُ النَّقَافَةِ، بَيْرُوتَ، (د. ت.)، 25/3.

من المعروف أنّ الشهوة قوّة لأنّها اقتحام وانتهاج، وأنّ العفاف ضعف لأنّه زهد وانسحاب،
والعاشق المنسحب أقوى شعورًا من العاشق غير المنسحب، فهو بذلك أقدر على الغزل السّاحر
والتشبيب الفتّان، يقول زكي مبارك: "إنّ العفاف لا يكون من علائم الضّعف إلّا إن كان عفاف
العاجزين وإنه يكون أعظم قوّة حين يصدر عن الرغبة في التصوّن. ومن حقّ الرّجل أن يُجاهد هواه
ليُضاف إلى الأشراف، وتلك غاية يتطلّع إليها أكابر الفتيان"⁽¹⁾.
ومن هنا تظهر قيمة الصدق العذب في هذين البيتين:

أَتَأذَنُونَ لِيَصَّبَ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ [البسيط]
لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفَا الضَّمِيرَ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ⁽²⁾

هذه عدوية الصدق، وهي نهاية في السّموّ الخُلقي، فالفسق الذي يصدر عن النّظر غير
دَنِس، وهو ليس بإثم عند ضمان عفة الضمير. إنّ العباس قد فصل في قضية أخلاقية كانت في
جميع العهود مما يشغل رجال الأخلاق، إنّ عفاف العباس عفاً أوحت به نيّة صحيحة، والنيّات
الصّحاح هي الأصل في التماسك الأخلاقي، وبدونها لا يقوم للأخلاق بُنيان. وقد طرب المؤرخون
لعفاف العباس، وعدوّه ظاهرة أدبية تستحقّ التسجيل، وهذا يشهد أنّ الأخلاق الشريفة كانت مما
يستهوّي أولئك الرّجال، يقول:

رَأَيْتُ الْيَأْسَ يُلْبِسُنِي خُشُوعًا وَأَرْجُوهَا فَيَعُوْزُنِي الرَّجَاءُ⁽³⁾ [الوافر]

ويقول:

مَا زِلْتُ أَزْهَدُ فِي مَوَدَّةِ رَاغِبٍ حَتَّى ابْتُلِيْتُ بِرَغْبَةٍ فِي زَاهِدٍ⁽⁴⁾ [الكامل]

ومن شواهد ذلك قوله:

وَمَا لِي مِنْ حُبِّي لَهَا غَيْرَ أَنْنِي إِذَا ذُكِرَتْ يَرْتَاخُ قَلْبِي وَيَسْتَقِرُّ⁽¹⁾ [الطويل]

وقوله:

هَبِي لِي دَمِي لَا تَقْتُلِينِي بِلَا دَمٍ فَمَا يَسْتَحِلُّ الْقَتْلَ أَهْلُ التَّوْرَعِ⁽²⁾ [الكامل]

وخامس الأسس في شريعة العشق والغرام عند العباس هو:

(1) - مبارك، زكي، العشاق الثلاثة، ص 90.

(2) - ديوانه، ص 216.

(3) - نفسه، ص 43.

(4) - نفسه، ص 169.

(1) - ديوانه، ص 218.

(2) - نفسه، ص 241.

النوم والتشكي والعتاب:

إنه لأمرٌ طبيعي أن يتشكى المحبُّون، وأن يتوجَّع العاشقون، والعبَّاس بن الأحنف سلطان المحبين في عصره دون منازع، فهو زعيم الشعراء العاشقين، وهو صادق الودِّ، ملتهب الحبِّ، رقيقُ اللفظ، مهتاج المزاج، مرهف الإحساس، والذي يتابع شعره في شكواه ويعيش معه في لوعته، ومداراته، ومراوغته، ليحجب شخصيَّة من يحبِّ، حفاظاً عليها من أن يشتهر أمره وأمرها، فيكون قد وضع نفسه وقلبه بين ناري ن: نار الشكوى واللوعة، ونار الضنِّ بالبوح والتزام الكتمان. وفي هذا المعنى يقول:

إِنِّي وَضَعْتُ الْحُبَّ مَوْضِعَهُ وَاحْتَلْتُ حِيلَةَ صَاحِبِ الدُّنْيَا [الكامل]

وَإِذَا سُنِّتُ عَنْ التِّي شَغَفْتُ قَلْبِي وَكَلْتُهُمْ إِلَى أُخْرَى

مَا زِلْتُ أَكْذِبُهُمْ وَأَكْتُمُهُمْ حَتَّى شَهَرْتُ بِغَيْرِ مَنْ أَهْوَى⁽³⁾

ويمضي العبَّاسُ العاشق الموله سادراً في شكواه، ملحاً على إبداء لوعته وضناه، ملتزماً النهج الذي سار عليه، محافظاً على العهد الذي قطعه على نفسه وقتاً طويلاً ألاَّ يبوح باسم صاحبه، أو يذكر قرينة تتم عن شخصيتها، يقول:

أَبْكِي إِلَى الشَّرْقِ إِنْ كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ مِمَّا يَلِي الْغَرْبِ خَوْفِ الْقَيْلِ وَالْقَالِ [البسيط]

أَقُولُ بِالْخَدِّ خَالَ حِينَ أَنْعَتْهَا خَوْفَ الْوَشَاةِ وَمَا بِالْخَدِّ مِنْ خَالَ

يَا أَغْفَلَ النَّاسِ عَمَّا بِي وَأَغْلَمَهُمْ مِمَّا يُدَاوِي بِهِ حُزْنِي وَيَلْبَالِي⁽⁴⁾

لَسْنَا وَإِنْ كُنْتَ تَجْفُونَا وَتَقْطَعُنَا بِنَارِكِيكَ عَلَى حَالٍ مِنَ الْحَالِ⁽⁵⁾

ويعزفُ العبَّاسُ على قيثارة العذريَّة في شكواه، ويعمق ويرقِّ، ويشف ويلتاع، ولكنه عمق الإيجاع، ورقَّة الصَّبابة، وشفافية العفاف، والنتياع العاشقين، ويلعبُ بعواطف النَّاسِ، ويحرِّكُ أشجاناً عند الخليين حتَّى يكاد يستعذب الألم، ويفلسف الشكوى، محتفظاً بصمته، ملتزماً بكتمانه، مستلذاً بحرمانه، وهو يقول:

خَلِيلِي مَا لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبٌ وَلَا لِلْعَيُونَ النَّظَرَاتِ دُنُوبٌ [الطويل]

وَيَا مَعْشَرَ الْعُشَّاقِ مَا أَوْجَعَ الْهَوَى إِذَا كَانَ لَا يُلْقَى الْمُحِبُّ حَبِيبُ

أَمُوتْ لِحِينِي وَالْهَوَى لِي مُطَاوَعٌ كَذَلِكَ مَنَايَا الْعَاشِقِينَ ضُرُوبُ

عَدَمْتُ فُؤَادِي كَيْفَ عَذَّبَهُ الْهَوَى أَمَا لِفُؤَادِي مِنْ هَوَاهُ نَصِيبُ⁽¹⁾

(3) - نفسه، ص42.

(4) - اللبلال: شدة الهم.

(5) - ديوانه، ص301.

ثم لا يلبث الشاعر العاشق أن يفيض به الوجد، ويورقه البعد، ويقض مضجعه الحرمان، فهو وحده المحروم، وكل العاشقين -سواه- قد استمتعوا بالوصل ونعموا باللقاء، يقول:

أرى كُلَّ مَعْشُوقَيْنِ غَيْرِي وَغَيْرِهَا قَدْ اسْتَعْدَبَا طَعْمَ الْهَوَى وَتَمَتَّعَا [الطويل]
وَإِنِّي وَإِيَّاهَا، عَلَى غَيْرِ رِقْبَةٍ وَتَفْرِيقِ شَمَلٍ، لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
وَقَدْ عَصَفَتْ رِيحُ الْوُشَاةِ بِوَصْلِنَا وَجَرَّتْ عَلَيْهِ ذَيْلُهَا مُتَقَطَّعَا
إِنِّي لِأَنْهَى النَّفْسَ عَنْهَا وَلَمْ تَكُنْ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سِوَاهَا لِتَقْتَعَا⁽²⁾

وإكمالاً للصورة السابقة التي استنآس الشاعر من خلالها من السلو والتأسي يعود ليفضي بما في خاطره حيال المحبين من طرف واحد، والمفروض أن مثل هؤلاء العشاق الغافلين يكونون عرضة للتندر ومثارة للسخرية، وقد كان العباس يشارك الناس هذا الرأي حتى ابتلي بحب من لا يحبه فيسارع إلى نسخ رأيه في هذه الأبيات التي تتميز بالأسلوب الحضري والنهج الذي لم يؤلف في شعر العاشقين فيقول:

مَا زِلْتُ أَسْخَرُ مِمَّنْ يُحِبُّ مَنْ لَا يُحِبُّهُ [المجتث]
حَتَّى ابْتُلَيْتُ بِمَنْ لَا يُحِبُّنِي وَأُحِبُّهُ
يَهْوَى بُعَادِي وَهَجْرِي وَمُنِيَّتِي الدَّهْرَ قُرْبَهُ
فَلَيْتَ قَلْبِي لَهُ كَمَا نَ مِثْلَ مَا لِي قَلْبُهُ⁽³⁾

وإذا كان العباس قد استنآس من الشكوى يفصح بها مبطنة ويلقي بها غير مباشرة فلم تُصب هدفاً، ولم تُحرك قلباً، ولم توقظ وجداناً، فقد بات من المحتم عليه أن يجعل شكواه عالية الصدى موجّهة إلى المخاطب مباشرة، بعد أن كان ضمير الغائب يسود سياق شكواه، ولكنّه مع ذلك لم يخرج عن نطاق العذرية في الحب، ولم يبعد عن مذهب الرقة في القول، بل يُصرُّ على التزام صيغة الاحترام وسمة الإجلال، وهو يتحدث عن فانتته ومُعدّبتته التي يصفها بملكه، إنَّ محبوبة العباس تنوي الرحيل ولا يتيسر للشاعر توديعها، فنفيض قريحته بهذه الأبيات:

كفى حُزناً أَنِّي أَغِيبُ وَلَيْسَ لِي سَبِيلٌ إِلَى تَوْدِيعِكُمْ فَأُودِعُ [الطويل]
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ مَلِكِي أَصَابِرُ إِذَا غِبْتُ عَنْهُ أَمْ يَرِقُّ وَيَجْرَعُ
تَلَفَّتْ خَلْفِي حَيْثُ لَمْ تَبْقَ حَيْلَةٌ وَزَوَّدَتْ عَيْنِي نَظْرَةً وَهِيَ تَدْمَعُ⁽¹⁾

(1) - ديوانه، ص 97.

(2) - نفسه، ص 243.

(3) - نفسه، ص 100.

(1) - ديوانه، ص 247-248.

ويرحلُ العباسُ العاشقَ المُحبَّ في إثرِ معشوقته، فلا ينالُ قريباً ولا يُصيبُ وصالاً، وهنا يشعر
بمرارتين، ويتجرَّعُ عُصَّتَيْن: غصّة الهجر، ومرارة الاغتراب، فتصدر قريحته عن هذه الشكوى التي
توجّه بها مباشرة إلى هاجرته بهذا القول السّاحر الحزين:

لا تَجْمَعِي هَجْرًا عَلَيَّ وَغُزْبَةً فَالْهَجْرُ فِي تَلْفِ الْغَرِيبِ سَرِيعٌ [الكامل]
مَنْ ذَا -فَدَيْتُكَ- يَسْتَطِيعُ لِحْبِهِ كَنَمًا إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعٌ⁽²⁾

وتشتدُّ لوعةُ العباسِ كلّما بعدت فرصةُ لقائه من يحب، ونأى به وصلُ الوصالِ فيصف حاله،
بل حاله، من خلال هذه الأبيات الجياشة بالعاطفة، المترعة بالشكوى الغنيّة بالإيقاع:

هَجَرَ الْمَجَالِسَ مَذْهَجَتْ لِعَلِمِهِ أَنْ لَا يَطِيبُ لَهُ بَغِيرِكَ مَجْلِسٌ⁽³⁾ [الكامل]
إِنَّ السُّرُورَ تَصَرَّمَتْ أَيَّامَهُ مِنِّي وَفَارَقَنِي الْحَبِيبُ الْمُؤْنِسُ
حَالَانَ مَا أَنْفَكُ مِنْ إِحْدَاهُمَا مُسْتَعْرِبًا أَوْ بَاكِيًا أَنْفَسُ
فَلَمِثْلِهِ بَكَتُ الْعَيُونَ دِمَاعَهَا وَلَمِثْلِهِ حَزَنْتُ عَلَيْهِ الْأَنْفُسُ⁽⁴⁾

والطّريف في هذه الأبيات أنّ العباسَ قد قلب الآية رأساً على عقب، لقد كان يتحدث عن
صاحبته بضمير الغائب رغم كونه يشكوها، ثمّ غير من أسلوبه في مرحلة تالية، فجعل يذكرها
بضمير المخاطب ويتحدّث عن حاله بضمير المتكلم. أمّا في هذه الأبيات فلقد عمد إلى الحديث عن
نفسه بضمير الغائب في الوقت الذي ذكرها بضمير المخاطب الحاضر، إنّ العباسَ لم يصنع ذلك
عبثاً أو دون قصد، فإنّه حين تحدّث عن نفسه بضمير الغائب إنّما أراد أن يُعبّر عن أنّه لم يعد
كامل الحياة، إنّهُ قَتِيلُ الْهَوَى وشهيد العشق، ومن ثمّ خرط نفسه في قافلة الغائبين⁽⁵⁾.

وينتقل العباسُ إلى مرحلةٍ أشدّ من مراحل الشكوى، ويُلقي القفاز في وجه معشوقته، ويصبّ في
سمعها بيتاً يجمعُ بين الشّعْر والحمم:

إِنَّكَ لَا تَعْرِفِينَ مَا الْهَمُّ وَالِدِ عَمُّ وَلَا تَعْلَمِينَ مَا الْأَرْقُ⁽⁶⁾ [المنسرح]

ويرى العباسُ أنّ ذلك يكفي للنيل منها، فتلك خلالٌ إذا توقّرت في حسناء جَنَّبَتْهَا سَمَاتِ
العاشقات حيث يشترط في العاشقة توقّر العاطفة، ورقّة الإحساس، وإنّ محبوبته خلو من ذلك كلّهُ.

(2) - نفسه، ص 247.

(3) - وفي رواية أخرى: "أن لا يطيب لغيره بك مجلس" بدل "أن لا يطيب له بغيرك مجلس".

(4) - ديوانه، ص 234.

(5) - الشكعة، مصطفى، الشّعْر والشّعراء في العصر العباسي، ص 379.

(6) - ديوانه، ص 271.

وبعد ذلك يعود العباس إلى نفسه يشكو ويبكي ويغني ويمنطق القول، ويفلسف العشق ويرسل التشبيه الذي سار في قلم الزمان وسرى على صفحة التاريخ حين جعل من نفسه ذبالة تضيء للناس وهي تحترق:

إِنَّكَ لَا تَعْرِفِينَ مَا الِهَمُّ وَالـ عَمُّ وَلَا تَعْلَمِينَ مَا الْأَرْقُ [المنسرح]
 أَنَا الَّذِي لَا تَنَامُ عَيْنِي وَلَا تَرَقًا دُمُوعِي مَا دَامَ بِي رَمَقُ
 أَحْرَمٌ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنَ عَشِقُوا
 صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ⁽¹⁾

إن هذه الأبيات قد جمعت من المعاني ما لم يجمعه قول عاشق من قبل: عشق، وحرمان، وتقريع، ومنطق، وواقعية في نطاق المعنى، وبيان وبديع في نطاق الأسلوب. أكثر الشعراء من أحاديث العتاب، ولكن العباس تفرد في هذا الفن بأفانين، فهو تارة يراه من النعم، كأن يقول:

وَأَحْسَنُ أَيَّامِ الْهَوَى يَوْمُكَ الَّذِي تُرَوِّعُ بِالْهَجْرَانِ فِيهِ وَبِالْعَتَبِ⁽²⁾ [الطويل]
 إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَبِّ سَخَطٌ وَلَا رِضًا فَأَيْنَ حَلَاوَاتِ الرِّسَائِلِ وَالْكُتُبِ؟⁽³⁾

وفي هذه الالتفاتة موجات وجدانية تؤكد من أن الهوى الواحد كان له في حياة الشاعر ألوان، وتارة يوصي محبوبته بنبذ ما تسمع من أخبار شركه بهواها فيقول:

وَصَالِكِ مُظْلَمٍ فِيهِ التَّبَاسُ وَعِنْدَكَ لَوْ أَرَدْتَ - لَهُ شِهَابُ [الوافر]
 وَقَدْ حُمِلْتُ مِنْ حُبِّكَ مَا لَوْ تَقَسَّمَ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ شَابُوا
 أَفِيقِي مِنْ عِتَابِكِ فِي أَنَا سِ شَهَدَتِ الْحِظَّ مِنْ قَلْبِي وَغَابُوا
 يَظُنُّ النَّاسُ بِي وَبِهِمْ وَأَنْتُمْ لَكُمْ صَفْوُ الْمَوَدَّةِ وَاللُّبَابُ
 وَكُنْتُ إِذَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ أَشْكُو ظَلَمْتُ وَقُلْتُ لَيْسَ لَهُ جَوَابُ
 فَعِشْتُ أَقْوَتُ نَفْسِي بِالْأَمَانِي أَقُولُ لِكُلِّ جَامِحَةٍ إِيَابُ
 وَصِرْتُ إِذَا انْتَهَى مِنِّي كِتَابُ إِلَيْكَ لِتَعْطِفِي نُبْدَ الْكِتَابُ
 وَهَيَّاتِ الْقَطِيعَةَ لِي فَأَمْسَى جَوَابَ تَحِيَّتِي مِنْكَ السَّبَابُ
 وَأَنَّ الْوُدَّ لَيْسَ يَكَادُ يَبْقَى إِذَا كَثُرَ التَّجَنِّي وَالْعِتَابُ
 خَفَضْتُ لِمَنْ يَلُودُ بِكُمْ جَنَاحِي وَتَلْقَوْنِي كَأَنَّكُمْ غِضَابُ⁽⁴⁾

(1) - ديوانه، ص 271.

(2) - في رواية أخرى: "وأطيب" بدل "وأحسن".

(3) - ديوانه، ص 111.

في هذه الأبيات تعريفٌ لمحبوته الغالية، فهي ذاتية لها مكان، ولأهلها مكان، وهي تغار عليه، وتهجره حين تسمع أنه أشرك بحبها بعض الإشرار.

ومن شعره نعرف أن محبوبته كانت على جانبٍ من التثقيف فهي تقرأ رسائله وتُجيبُ أو لا تجيب. ولم تكن القراءة في ذلك العصر تيسرُ للمرأة إلا إذا كان أهلها من الميسير، وقد أفصح عن لوعته من ضننها بالمراسلة حين قال:

وَيُقْنِعْنِي -مِمَّنْ أَحَبُّ- كِتَابُهُ وَيَمْنَعْنِيهِ إِنَّهُ لَبَخِيلٌ⁽¹⁾ [الطويل]

والعبّاس الذي يفرح بالعتاب، لآته الوسيلة إلى تذوق حلاوات الكتب والرسائل، هو نفسه العبّاس الذي يخاف أن ينقلب العتاب إلى عتبٍ وإيذاء، فيقول:

قَاسِمِي هَذَا الْبَلَاءِ وَإِلَّا فَاجْعَلِي لِي مِنَ السُّلُوفِ نَصِيبًا⁽²⁾ [الخفيف]

إِنَّ بَعْضَ الْعِتَابِ يَدْعُو إِلَى الْعَدْوِ وَيُوْذِي بِهِ الْمُحِبُّ الْحَبِيبَا⁽³⁾

وَإِذَا مَا الْقُلُوبُ لَمْ تُضْمِرِ الْعَطْفَ⁽⁴⁾ فَلَنْ يَعْطِفَ الْعِتَابُ الْقُلُوبَا⁽⁵⁾

وقد بلغ الغاية في التّقرّيق بين صدّ العتاب، وصدّ الملول حين يقول:

لَوْ كُنْتُ عَاتِبَةً لَسَكَنْتُ لَوْعَتِي⁽⁶⁾ أَمْلِي رِضَاكِ وَزُرْتُ غَيْرَ مُرَاقِبٍ [الكامل]

لَكِنْ مَلَلْتُ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً⁽⁷⁾ صَدُّ الْمُلُولِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ⁽⁸⁾

وقد يبأس من نفع العتاب، فيقول:

سُكُوتِي بَلَاءٌ لَا أُطِيقُ احْتِمَالَهُ وَقَلْبِي أَلُوفٌ لِلْهُوَى غَيْرُ نَازِعٍ⁽⁹⁾ [الطويل]

فَأُقْسِمُ مَا تَرَكِي عِتَابِكَ عَنْ قَلْبِي وَلَكِنْ لِعِلْمِي أَنَّهُ غَيْرُ نَافِعٍ

وَأَنِّي إِذَا لَمْ أَلْزِمِ الصَّبْرَ طَائِعًا فَلَا بُدَّ مِنْهُ مُكْرَهًا غَيْرَ طَائِعٍ⁽¹⁰⁾

(4) - ديوانه، ص 64.

(1) - ديوانه، ص 300.

(2) - في رواية أخرى: "من التعزّي" بدلا من "السّلو". السّلو: - العزاء.

(3) - في رواية أخرى: "البغض" و"الهجر" مكان "العتب". العتب: اللوم.

(4) - في رواية أخرى: "الحب" و"الودّ" مكان "العطف". و"ينفع" مكان "يعطف".

(5) - ديوانه، ص 93-94.

(6) - وفي رواية أخرى: "عبرتي" مكان "لوعتي".

(7) - في رواية أخرى: "قما لصدك حيلة" بدل "فلم تكن لي حيلة".

(8) - ديوانه، ص 79.

(9) - في رواية أخرى: "سكوت بلاء" مكان "سكوتي بلاء".

(10) - في رواية أخرى: "الصمت" بدل "الصبر".

(11) - ديوانه، ص 246.

وَلَوْ كَانَ مَا يُرْضِيكَ عِنْدِي مِمثلاً لَكُنْتُ لِمَا يُرْضِيكَ أَوَّلَ تَابِعٍ
إِذَا أَنْتِ لَمْ يَعْطِفْكَ إِلَّا شَفَاعَةً فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ بِشَافِعٍ (11)

وقد يحاول تأريث نيران الغيرة في صدر محبوبته لتسمع صوت العتاب، فيقول:

يَا رَبِّ جَارِيَةً أَسْبَرْتُ عَبْرَتَهَا مِنْ رَقَّةٍ وَلِغَيْرِي قَلْبُهَا قَاسٍ [البسيط]
كَمْ مِنْ كَوَاعِبَ مَا أَبْصَرْنَ خَطَّ يَدِي إِلَّا تَشَهَّيْنَ أَنْ يَأْكُلَنَّ قُرْطَاسِي (1)

وقد يصرخ العباس من تجني محبوبته فيقول:

كَفَى حَزْناً أَنِّي وَفَوْزاً بَبْلُدَةٍ مُقِيمَانِ فِي غَيْرِ اجْتِمَاعٍ مِنَ الشَّمْلِ [الطويل]
أَمَا وَالَّذِي نَاجَى مِنَ الطَّوْرِ عَبْدُهُ وَأَنْزَلَ فُرْقَانًا وَأَوْحَى إِلَى النَّخْلِ
لَقَدْ وُلِدْتُ حَوَاءً مِنْكَ بَلِيَّةً عَلَيَّ أَقَاسِيهَا وَخَبَلًا مِنَ الْخَبْلِ (2)

ولعل خير ما أختتم به مذهب العباس بن الأحنف في الشكوى والتوجع والعتاب إثبات هذه الأبيات المغرقة في الاستمساك بخناق الحب، والإصرار عليه، والفناء فيه، والاستغراق في استعباده، يقول:

يَا وَيْحَ مَنْ عَلِقَ الْأَحْبَبَةَ قَلْبُهُ حَتَّى إِذَا ظَفَرُوا بِهِ قَتَلُوهُ (3) [الكامل]
عَزُّوا وَمَالَ بِهِ الْهَوَى فَاذَلَّهُ أَنْ الْعَزِيزَ عَلَى الذَّلِيلِ يَتِيهِ (4)
انْظُرْ إِلَى جَسَدٍ أَضْرَّ بِهِ الْهَوَى لَوْلَا تَقَلَّبُ طَرْفِهِ دَفَنُوهُ
مَنْ كَانَ خَلُوقًا مِنْ تَبَارِيحِ الْهَوَى فَأَنَا الْهَوَى وَحَلِيفُهُ وَأَبُوهُ (5)

(1) - ديوانه ، ص 228.

(2) - نفسه، ص 285.

(3) - في رواية أخرى: "ختل" بدل "علق".

(4) - في رواية أخرى: "فإذا به" بدل "فأذله".

(5) - ديوانه، ص 369.

الفصل الثالث :

صورة المرأة عند العباس بن الأحنف.

المبحث الأول :

المرأة عند العباس بن الأحنف.

المبحث الثاني :

صورة المرأة الحسيّة عند العباس .

المبحث الثالث :

المظاهر الحضاريّة في غزل العباس .

المبحث الرابع :

صورة المرأة المعنويّة عند العباس.

عاش العباس بن الأحنف في العصر العباسي ، وهو عصر الغزل المادي الحسي ، ومن ثمّ فإننا نتوقع من العباس غزلاً مادياً أو _ في أحسن الأحوال _ مزيجاً من الغزل المادي والعذري ، ولكنّ العباس بشفافيته وريادته للعشاق من شعراء عصره ، وضع المرأة في مكان رفيع غير متهافت ، ولا ممتن حين وصفها ، ووضعها في مكانة عالية حين أحبّها ، ولم يجعل منها هدفاً للتّرفيه أو مقصداً للشّهوة ، ونكاد نجمع ملامح مذهب العباس في وصف المرأة من خلال شعره في كلّ من " فوز " و " ظلوم " وهما أشهر من شبّب بهما ووقع في حبال عشقهما . إنّ فوزاً عنده هي الشّمس رفعة وسمواً وإشراقاً ، وهي أسمى أن تكون من الإنس ، وأرفع أن تكون من الجنّ . يقول :

إني طرّبتُ إلى شمسٍ إذا طلّعت كانت مشارفُها جوفَ المقاصيرِ [البسيط]
شمسٌ ممثلةٌ في خلقٍ جاريةٌ كأنما كشحُها طيُّ الطواميرِ (1)
ليست من الإنسِ إلّا في مناسبةٍ ولا من الجنِّ إلّا في التّصاويرِ
فالجسم من لؤلؤٍ والشعر من ظلمٍ والنّشر من مسكّةٍ والوجه من نورٍ
إنّ الجمالَ حبا "فوزاً" بخلّعتِه حدواً بحذوٍ وأصفاها بتحويرِ
كأنّها حين تمشي في وصائفِها تخطو على البيضِ أو خُضِرِ القواريرِ (2)

وإذا كان القمر هو من تشبّه الحسناوات به ، فإنّ العباس يشبّه "فوزاً" به ولكن بطريقة ذكية غير مباشرة ، فهي عنده حورية من سكان الفردوس يقول :

يا من يسائلُ عن "فوزٍ" وصورتها إنّ كنتَ لم ترها فانظر إلى القمرِ [البسيط]
كأنما كان في الفردوسِ مسكنها صارت إلى الناسِ للآياتِ والعبرِ
لم يخلقِ الله في الدنيا لها شَبهاً إنّي لأحسبُها ليست من البشَرِ (3)

(1) _ في رواية أخرى : "بطنها" بدل "كشحها" : والكشح : ما بين الخاصرة ووسط الظهر . وقيل : ما بين السرة ووسط الظهر .

الطوامير : مفردا الطامور وتعني : الصحيفة .

(2) _ ديوانه ، ص 178 _ 179 .

(3) _ نفسه ، 209 .

وهي عنده أيضاً شبيهة الشمس والقمر معاً يقول :

تأملتُها يوم الخميس وقد بدت تمشي كما يمشي التريف من النفر (1) [الطويل]
 فسبحت تعظيماً لها وجلالةً وقد سقرت عن مشبه الشمس والقمر
 وما لي من حبي لها غير أنني إذا ذكرت يرتاح قلبي ويستقر (2)

فوز هي الفتاة التي ألهمته الشعر كله ، والتي استغرق فيها ثلثي ديوانه إن لم يكن أكثر من ذلك ، فلا نكاد نقرأ قصيدة أو مقطوعة إلا ويطالعا اسم فوز ، أو صفتها _ وربما كنى عنها بهذا اللقب "فوز" ، "ظلوم" _ حتى لا يكشف عن الاسم الحقيقي لصاحبته ، وربما كان صنيعه هذا عن قصد منه زيادةً في التعمية ، وإيغالاً في المغالطة كعادته في شدة تكتمه في حبها ، فإذا قرأنا شعره ولم ندرك صنيعه في التكم والمغالطة شبه لنا أن فوزاً غير ظلوم ، يقول :

اشفعي يا ظلوم لي عند فوز طالما قد نفعني يا ظلوم [الخفيف]
 أسقم الله قلبها مثل ما أسد قم قلبي ، فإن قلبي سقيم (3)

وفي مقطوعة أخرى يعكس الأمر فيقول :

جمعتم بفوز شمل من كان ذا هوى ولم تجمعوا بيني وبين ظلوم [الطويل]
 فإن أحي لا أحمد حياتي وإن أمت فإن قتيل الشوق غير ملوم (4)

وإذا عمد العباس إلى وصف ظلوم فإنه يرق ويُدع ويُمِنع ، كما هو شأنه مع فوز ويأتي بالصور البارعة البعيدة عن المعاني المادية المبتذلة ، فهي إن برزت في ليلة ظلماء تكون قمرًا مضياً . يقول :

(1) _ تمشى : تتمشى. التريف : من الترف أي النعيم والرّفاه . وفي رواية أخرى : التريف أي السكران .
 (2) _ ديوانه ، ص 218 .
 (3) _ نفسه ، ص 312 .
 (4) _ نفسه ، ص 329 .

ظلوم قد رأيناها فلم نر مثلها بشراً [مجزوء الوافر]

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظراً
 إذا ما الليلُ سالَ علَيَّ كَ بِالظَّلْمَاءِ وَاعْتَكْرَا
 وَدَجَّ فَلَمْ يَكُنْ قَمَرٌ (1) فَأَبْرَزَهَا تَكُنْ قَمْرَا (2)

ولا يفوت العباس أن يصف حسن صاحبتة وجمالها وهي تشترك في جنازة ، ويبدو أن وصف النساء في الجنازات والمآتم كان مما يستهوي خيال الشعراء ، فالعباس في هذه الأبيات يركّز على حسن صاحبتة الذي هو سجيّة وطبع فيها إذا ما قورن حسنها بحسن النساء في مجمع حزين ، يقول:

يا زينَ مَنْ رَأَتْ العيونُ إذا بدت وَسَطَ النِّسَاءِ وَلَفَّ هُنَّ المَجْمَعُ [الكامل]

الحسنُ منكِ سجيّةٌ مطبوعةٌ ومن النساءِ تحلُّقٌ وتَصنُّعُ
 يومَ الجنّازةِ لو شهدتُ تمتعتُ عيني بها ولقلّما تتمتّعُ
 خرجتُ ولم أشعرُ بِذاكِ فلينتني كنتُ الجنّازةُ وهي فيمن يتبعُ (3)

(1) _ في رواية أخرى : وراخ وما به قمرٌ ، فبادرُها ترَ قمرًا .

(2) _ ديوانه ، ص 195 _ 196 .

(3) _ نفسه ، ص 246 .

العبّاس وفوز

من هي فوز التي افثتن بها العبّاس ؟

سؤال يفرض نفسه على القارئ لديوان العبّاس بن الأحنف ، ولا بدّ من إجابة عليه .
فقد روى أبو الفرج الأصفهاني : "إنّ فوزًا كانت جارية لمحمّد بن منصور الذي كان يلقّب بـ: -
فتى العسكر-، ثمّ اشتراها أحد شباب البرامكة وحوّج بها".
وفي رواية أخرى : "إنّها كانت لرجل جليل من أسباب السّلطان ، وكان العبّاس يتشبّه في أشعاره
وذكر فوز بما قاله أبو العتاهية في عتبه (1).

وفي رأي آخر للشاعرة العراقيّة الدّكتورة عائكة الخزرجي أورده الدّكتور يوسف بكّار ، تقول : "
فوز من المدينة ، استوطنت العراق ، أصلها عريق ونسبها كريم ، تنتمي هي وشاعرها إلى نزار ،
هاشميّة من أسرة مترفة منعمة ، سيّدة من سيّدات القصر ؛ ولكنّها لم تقف عند هذا الحدّ ؛ بل رأت
أن تكشف عن شخصيّة هذه المحبوبة التي هي عندها عليّة بنّة المهدي،أخت الخليفة هارون الرّشيد
، وقد اعتمدت في استنتاجاتها هذه على أخبار عليّة وأوصافها كما جاء في الأغاني(2) .

وفي رأي للمستشرق الفرنسي بلاشير قال : " لعلّ العبّاس لم يحيّ في مغامراته التي أنشدها في
شعره ، وفي المحقّق أنّه لم يكن لتلك المغامرات ما رسمه لها من صور ، ولكنه تخيلها في ألوان
رفيقة مثلتها أشواقه العلويّة ، فلما استحالت شعراً أصبحت حقيقة " ولما قال : " أمّا عن المرأة التي
يتحدّث عنها فهي معروضة في قالب أسلوبّي (يمكن أن تكون خياليّه) ، ولذلك لا تستطيع القول فيما
إذا كان الشّاعر ينشد أشعاراً على أنّها قوالب أو أنّها تعبّر عن تجربة حقيقية" (3) .
إذن نكاد نحصر الآراء السّابقة في تحديد شخصيّة فوز في ثلاثة :
جارية ، أميرة ، خياليّة من نسج خيال العبّاس .

(1) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 141/15 .

(2) _ بكّار ، يوسف حسين ، اتجاهات الغزل في القرن الثّاني الهجري ، ص 267 .

(3) _ المرجع السابق ، ص 269 .

لنبحث في هذه الآراء .

هل فوز جارية ؟

من خلال قراءتنا لديوان العباس نقف عند كثير من القصائد التي نستطيع من خلالها أن نتبين نسب محبوبته ومكانتها ، فهي عربية الأصل ، ونحن نعرف أن الجواري والإماء لسن من أصول عربية ، فمنهن الفارسيات والتركييات والزنجيات ... ونجد أن العباس بن الأحنف يقول إن حب الإماء ليس من شغل مثله ولا من شأنه :

زَعَمَ الْجَاهِلُونَ بِي أَنَّ قَلْبِي بِالْجَنَابِ الشَّرْقِيِّ صَبَّ عَمِيدُ [الخفيف]

ليس عَشِقُ الإِمَاءِ مِنْ شَغْلِ مِثْلِي إِنَّمَا يَعْتَشِقُ الإِمَاءَ الْعَبِيدُ
لا وِفَاءً وَلَا حِفَاطًا وَلَكِنْ كُذِّبَ الْوَدَّ مَا لَهْنَ عُهُودُ
صِلْ إِذَا مَا وَصَلْتَ حُرَّةً قَوْمِ شَرَفَتْهَا آبَاؤُهَا وَالْجُدُودُ
ليس لي يا ظَلُومٌ غَيْرِكَ هَمٌّ أَنْتِ هَمِّي طَرِيفُهُ وَالتَّلِيدُ (1)

وقد ذهب البعض إلى اعتبار فوز جارية ، لورود هذه الكلمة في ديوان العباس في أكثر من موضع ؛ ولكن لا بد من الإشارة إلى أن كلمة جارية في معناها القديم هو: المرأة الغنية الشابة(2) بهذا نستطيع أن نستبعد أن تكون جارية ، فلو كانت جارية حقاً هل يلجأ العباس بن الأحنف إلى التكنم والتستر وعدم التصريح باسمها ؟

هل هي الأميرة عليّة بنت المهدي ؟

ورد في معجم الأدباء أن العباس بن الأحنف مات وسنه أقل من ستين سنة وتُحصر وفاته ما بين: 189_193 هـ (3) ، أما عليّة بنت المهدي فقد ورد في الأغاني أنها ولدت سنة 160 هـ وتوفيت سنة 210 أو 209 هـ. (4) فعندما كان العباس في العقد الرابع من عمره كانت لا تتجاوز العاشرة ، وفي شعره ما يؤكد أن حبل المودة امتدّ بينهما وهما صغيران ، يقول :

أَقَامَ قِيَامَتِي نَظْرِي فَمَنْ يُعْدي عَلَيَّ بِصَرِي ؟ [مجزوء الكامل]
تَعَرَّضَ لِي الْهُوَى غِرًّا فَشَيَّبَنِي عَلَيَّ صِغْرِي (5)

(1) _ ديوانه ، ص143 .

(2) _ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة جري .

(3) _ الحموي ، ياقوت ، معجم الأدباء ، 4/1481-1482 .

(4) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 9/83_85 .

(5) _ ديوانه ، ص224 .

ويقول : **وَيَا مَنْ تَعَلَّقْتَهُ نَاشِئًا فَشَبِّتُ ، وَمَا أَنْ لِي أَنْ أَشَبِّبَا (1) [المتقارب]**

لِعَضْرِي لَقَدْ كَذَبَ الرَّاعِمُو نَ أَنْ الْقُلُوبَ تُجَازِي الْقُلُوبَا
 ويقول : يا فوز هل لك أن تعودني للذي كُنَّا عليه مُنذُ نَحْنُ صِغَارُ ؟ (2) [الكامل]
 إذن ؛ هذا الرأى ضعيف ولم يجد التأييد عند كثير من الدارسين .
 هل هي امرأة من نسج خيال الشاعر؟ فهذا هو الرأى الأضعف ، فديوان الشاعر مليء بالأدلة
 على أنها عاشت معه في الواقع وتبادلا الحب فترة من الزمن وانتهى حبهما إلى الفراق .
 شدة تكتم العباس في الكشف عن هويّة محبوبته ، وتعدد الأسماء في شعره حيّرت الدارسين
 فقد ذهب الظنّ ببعضهم : أنّ العباس بن الأحنف لم يكن له غير صاحبة واحدة ذكرها في شعره
 بأسماء مختلفة ، فهي تارة " ذلفاء " وتارة " ضياء " وتارات أخرى " نسرین " و " ترجس " و " سحر " و
 " خنث " و " ظلوم " و " فوز " . إلا أنّ الدكتور مصطفى الشكعة يقول : " إنّ ما عرضناه من
 نماذج شعريّة جمع البيت منها أكثر من واحدة من أولئك المعشوقات يقطع بأن هذه ليست لمعشوقة
 واحدة وإنما هي لعديد من المعشوقات " . (3) غير أنّ دارسين آخرين سلّموا بتعدد المعشوقات ،
 وأصروا على أنّ " فوزاً " هي نفسها " ظلوم " ، ويضيف الدكتور مصطفى الشكعة قائلاً : " ولعلهم
 استأنسوا في رأيهم هذا بالظروف المتشابهة والملابسات المتقاربة التي عاشتها كل من " فوز " و
 " ظلوم " فكلّ منهما عاشت في بغداد ، وكلّ منهما وطئت قدماها أرض الحجاز ، هذا فضلاً عن
 الشحنات العاطفيّة التي تضمّنها شعر العباس في كل من المعشوقتين الفاتنتين " .
 ويقول : " إنّ استقراء ديوان الشاعر في تودة وأناة يقطع بأنّ هذه غير تلك؛ وإنما هما
 شخصيتان منفصلتان ، ومحبوبتان لعبت كلّ واحدة منهما على حدة بقلب الشاعر العاشق ، منحنه
 ألواناً من الوصل حيناً ، وأذاقته صنوفاً من الحرمان أحياناً ، وجرّعته نفثات حرّى " . (4)
 ويقول : إن ما يؤكّد أنّ " فوزاً " غير " ظلوم " هو قول العباس:

جَمَعْتُمْ " بفوز " شَمَلٌ من كان ذا هوى ولم تجمعوا بيني وبين " ظلوم " (5) [الطويل]
 أو قوله : إشفعي يا " ظلوم " لي عند " فوز " طالما قد نفّعتني يا " ظلوم " (6) [الخفيف]

(1) _ ديوانه ، ص 50 .

(2) _ نفسه ، ص 183 .

(3) _ الشكعة، مصطفى ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، ص 358 .

(4) _ المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(5) _ ديوانه ، ص 329 .

(6) _ نفسه ، ص 312 .

أما الدكتور يوسف حسين بكار فيورد نفس هذه الأبيات مؤكّداً على أنّ " فوزاً " هي نفسها
 " ظلوم " يقول : " لم يكتف العباس بإطلاق اسم " فوز " على صاحبتة ، إنّما خاطبها وذكرها بأسماء

أخرى لا تعدو أن تكون صفات في أكثرها . فذكر ظلوم ، وظليمة ، وذات الخال ، وسدوم، وذلفاء ، ونرجس ، ونسرين . غير أن أكثرها ذكرًا كان فوز وظلوم "(1) وأنا أوافق الدكتور يوسف حسين بكّار الرأي أن فوزًا هي ظلوم .

ويضيف : " أنه ربّما كان صنيعه هذا عن قصد زيادة منه في التعمية ، وإيغالا في المغالطة كعادته في شدة تكتمة في حبّها .

ويقول: "إذا قرأنا شعره ولم ندرك صنيعه في التكتّم والمغالطة شبّه لنا أن فوزًا غير ظلوم"(2). ولكن لا ينبغي أن نصدق الشاعر أن " فوزًا " اسم حقيقي لمعشوقته التي قال فيها ما يقرب من ثلثي شعره . و " فوز " ليس اسمها الحقيقي ، إنّما هو اسم اختاره واخترعه على سبيل التفاضل ، وهو يصرّح بذلك في مواطن كثيرة من شعره ، لعلّ أعمقها أثرًا في النفس والقلب والوجدان هذا القول الموسوم بالعدريّة ، المتلفّع بالتوسّل ، المشحون بالشكوى والضراعة :

وَحَاذِرَ أَنْ يَفْشُو قَبِيحَ النَّسَمِ [الطويل]	كَتَمْتُ اسْمَهَا كَتْمَانٍ مِنْ صَانَ عَرِضَهُ
لَسَمِيْتُ بِاسْمِ هَائِلِ الذِّكْرِ أَشْنَعِ	فَسَمِيْتُهَا فَوْزًا وَلَوْ بَحْتُ بِاسْمِهَا
وَلَمْ يُغْنِ عَنِّي طَوْلُ هَذَا النَّصْرِعِ	فَوَا حَسْرَتِي إِنْ نُحْتُ لَمْ تُقْضِ نَهْمَتِي
فِيَا لَكَ مِنْ مَعْطٍ وَمِنْ مُتَمَنِّعِ !	وَهَبْتُ لَهَا نَفْسِي فَضَنْتُ بِوَصْلِهَا
وَقَدْ دُقْتُ طَعْمَ الْمَوْتِ لَوْلَا تَشْجُعِي	إِلَيْكَ _ بِنَفْسِي أَنْتِ _ أَشْكَو بَلِيَّتِي
فَمَا يَسْتَحِلُّ الْقَتْلَ أَهْلُ التَّوَرُوعِ (3).	هَبِي لِي دَمِي لَا تَقْتُلِينِي بِلَا دَمٍ

(1) _ بكّار ، يوسف حسين، اتّجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 264 .

(2) _ المرجع السابق ، نفس الصّفحة .

(3) _ ديوانه ، ص 241 .

وتعلّق العباس بن الأحنف بفوز كان من الصّبابة العشق ، بحيث ملك عليه مجامع قلبه فهو يترجّح بين اليأس والرّجاء ، والسُّخط والرضى ، والقنوط والأمل ، وإنه في كلّ خطرة نفس وخفقة قلب

، ينزع إلى الشَّعر يفضي إليه بذات نفسه ، ويشكو إليه عصيَّ وصله ، وإته يعمد إلى القول الرقيق
إذا امتدَّت أسباب الصّدود وانقطعت حبال الرّجاء . يقول :

إنْ تكوني ملئتِ يا فوزٌ وصلي وتناسيتيني وعهدكِ أمسِ [الخفيف]
فعلّيكِ السّلامُ خار لكِ اللـ له لعنري لأكفيتك نفسي
سوفَ يافوزُ تدمينَ إذا جربُ تِ غيري والدَّهرُ يبكي ويُنسي! (1)

ومثل جميع العاشقين يعزو العباس هجر " فوز " إلى قول كاشح أو وشاية حاسد ،
فبيعت إليها بهذه القصيدة الحارة ، مدافعاً عن حبه مترجماً عن وجدّه ، متضرعاً إليها ألا تأخذه بريية
قبل أن تتبين أسباب الحقيقة . يقول :

وإن كنتِ قد بلّغتِ يا فوزُ باطلاً تُقُولُ عني فاسمعي ثم عاتبي (2) [الطويل]
ولا تعجلي بالصّرم حتى تبيتي أقولُ مُحقِّقٌ كان أم قولَ كاذبِ (3)
أريدُ لأدعو غيرها فيجرّني لساني إليها باسمها كالمغالِبِ
يظلُّ لساني يشتكى الشّوق والهوى وقلبي كذي حبسٍ لقتلِ مراقِبِ
كأنّ بقلبي كلّما هاج شوقُهُ حراراتِ أقباسِ تلوحُ لراهِبِ
ولو كان قلبي يستطيعُ تكلمًا لحدّثكم عني بكلِّ العجائبِ
كتبتُ فأكثرُ الكتابِ اليكُم على رغبةٍ حتّى لقد ملّ كاتبِي
أما تتقينَ الله في قتلِ عاشقٍ صريعٍ نحيلِ الجسمِ كالخيطِ ذائبِ؟ (4)

لقد أحبّ العباس " فوزًا " حبًّا يُسلّكه في عقد العذريين من المحبين، والموحدين في محراب
الحبّ ، وسلطان في قافلة العاشقين .

(1) _ ديوانه ، ص 233 .

(2) _ في رواية أخرى للعجز : " يقول عدوّ فاسألني ثم عاقبي "

(3) _ في رواية أخرى : " أمبلغ حقّ " بدل " أقول مُحقِّق " .

(4) _ ديوانه : ص 55 _ 56 .

العبّاس وظلوم

إنَّ " ظلومًا " هي المرأة الثانية التي أوحى إلى العباس بن الأحنف الشطر الثاني من شعره، وترجم عن حبه " لظلوم " بأبيات عذبة المأخذ ، رقيقة الإيقاع ، كلها إعجاب وافتتان ، يصفها من خلالها بالطهر ، والحسن ، والعفة ، والنقاء ، ويضعها في مقام من الجلال لا يتسامى إليه مقام غيرها من بنات جنسها ، وذلك في قوله :

نَظَرُ الْعُيُونِ إِلَى " ظَلُومٍ " نَعِيمٍ إِنَّ السُّرُورَ يُقِيمُ حَيْثُ تَقِيمُ [الكامل]
 وَأَرَى النِّسَاءَ يَلْمُنُنِي فِي أَمْرِهَا أَبْغَضَ إِلَيَّ بِمَنْ أَرَاهُ يَلُومُ
 مَا قَوْمَتِكَ مَلُوكُ أَرْضٍ قِيَمَةً إِلَّا ارْتَفَعَتْ وَقَصَرَ التَّقْوِيمُ
 وَجَهٌ يَكُلُّ الطَّرْفُ عَنْهُ إِذَا بَدَا هُوَ بِالْعَفَافِ وَيَالْتَقَى مَوْسُومُ
 يَحْسُدُنَّ وَجْهَكَ يَا ظَلُومُ جَمَالَهُ هِيَهَاتَ! مَالِكُ فِي الْجَمَالِ قَسِيمُ
 وَعَبَّطْتُ نَفْسِي إِذْ رَأَيْتُكَ مَرَّةً مَنْ لَا يَرَاكَ فَإِنَّهُ مَحْرُومُ (1)

وينتقل حب العباس إلى مرحلة تلي الإعجاب والإكبار ، إنها مرحلة العشق بعد الإعجاب ، والإفصاح بعد الكتمان ، إنه يترجم عما يحس من جوى ، ويعبر عما يكابد من لوعة، بعد أن أخفقت الكتابة إليها في بلوغ مراده ، وعجزت الرسائل عن تيسير اللقاء. يقول العباس في هذه المرحلة من حبه :

ظَلُومٌ هَبِي لِي سَوْءَ ظَنِّكَ وَعِلْمِي بَأَنَّ الَّذِي بِي مِنْكَ عَنْهَنْ شَاغِلُ [الطويل]
 مَتَى _ لَيْتَ شِعْرِي _ نَلْتَقِي؟ وَإِلَى مَتَى تَوْدِي رِسَالَاتِي إِلَيْكَ الْأَنَامِلُ؟
 وَأَسْكُنْتُ كِي يَخْفَى الَّذِي بِي مِنَ الْهَوَى فَتَشْكُو إِلَى النَّاسِ الْعِظَامُ النَّوَاهِلُ
 وَأَكْتُمُّ جُهْدِي مَا أُجْنُ مِنَ الْهَوَى فَتَنْشُرُ مَا أَخْفَى الدَّمُوعُ الْهَوَامِلُ! (2)

(1) _ ديوانه ، ص 315 .

(2) _ نفسه ، ص 302 .

وتذهب " ظلوم " إلى الحجّ ، ويرى العباس في أداء " ظلوم " فريضة الحجّ بشرى للمناسك والشعائر . يقول :

بَشَّرَ "مَنِيَّ" بِظُلُومٍ أَنْ تَحِلَّ بِهَا وَبَشَّرَ " الْبَيْتَ " وَ" الْأَرْكَانَ " وَ" الْحَرَمَا " [البسيط]
لَ يَنْزِلَنَّ بِهَا طَيْبٌ تَطِيبُ بِهَا تَكُ الْبِقَاعُ وَنُورٌ يَكْشِفُ الظُّلْمَا (1)

ويستبدّ بالعباس عشق ظلوم ، ويبلّيه ويشقيه ، فيتصوّر أنّ وجده بها قاتلٌ له ، وأنّ لوعته بحبّها مودية به ، فيقول شاكياً ، باسطاً أكفّ التوسّل إليها ، ضارعاً إلى الله أن ينصره عليها :

أَظْلُومُ حَانَ إِلَى الْقُبُورِ ذَهَابِي وَبَلَيْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ فِي أَثْوَابِي [الكامل]
فَعَلَيْكَ يَا سَكْنِي السَّلَامُ فَإِنِّي عَمَّا قَلِيلٍ فَاغْلَمَنَّ حِسَابِي
جَرَعْتَنِي غُصَصَ الْمَنِيَّةِ بِالْهُوَى أَمَّا بَعِيثِكَ تَرْحَمِينَ شَبَابِي؟
سَبْحَانَ مَنْ لَوْ شَاءَ سَوَى بَيْنَنَا (2) وَأَدَالَ مِنْكَ لَقَدْ أَطَلَّتِ عَذَابِي (3)

(1) _ ديوانه ، ص 331 .

(2) _ في رواية أخرى : " ساوى " بدل " سوى " . أدال منك : غير فيك .

(3) _ ديوانه ، ص 61 .

المبحث الثاني: * صورة المرأة الحسيّة:

رواسب قديمة في غزل العباس

يبدو أن العباس اطلع على أخبار المتيمين الجاهليين والعذريين الأمويين وعرف قصصهم وقرأ شعرهم ، بدليل ما يرد في شعره من أسماء بعضهم من مثل قوله :

ما إن صبا مثلي جميلٌ ، فاعلمي حقاً ، ولا المقتول عروة إذ صبا [الكامل]

لا ، ولا قبلي المرقش إذ هويَ أسماء للحين المحتم والقضا (1)

ثم ما يظهر فيه من ملامح نجدها في غزلهم ، لكنه لم يكن تابعاً كل التبع لشعراء الحجاز وبخاصة جميل بثينة والأحوص والعرجي . لأن الرواسب القديمة في شعره فيها أثر من الجاهليين والإسلاميين على حد سواء ، ومن غزل العذريين وغير العذريين مثل ما نجده من أوصاف حسيّة عرفها الغزل العربي بكثرة عند العذريين . لكن الذي لا بد ملاحظته أن الرواسب القديمة في شعر العباس قليلة ، وحسبه أن شعره خلا من الأطلال والمقدمات خلواً تاماً أما عن العناصر الأخرى ، فهي بالإضافة إلى الأشياء العامة التي لا بدّ من وجودها عند العذريين وأهل العفاف أينما كانوا، وفي أي عصر وجدوا من مثل: الشكوى والألم والبكاء والصدّ والهجران، وغيرها (2) فإنها تتمثل عند العباس في النواحي التالية :

الأوصاف الحسيّة

الأوصاف الحسيّة قليلة عند العباس بن الأحنف ، ومنها تشبيهه المحبوبة بالقمر ، والشمس ،

والغزال من مثل قوله :

ألا أيها القمر الأزهرُ تبصّرَ بعينك هل تبصّرُ ؟ [المتقارب]

تبصّرُ شبيهك في حسنه لعلك تبغ أو تخبرُ (3)

(1) _ ديوانه ، ص 40 .

(2) _ بكار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 292 _ 293 .

(3) _ ديوانه ، ص 207 .

وهي بالإضافة إلى أنها قمر ، فهي دُرَّةٌ بحريَّةٌ تَخَلَّتْ عنها صدفتها ، يقول :

يا قمرًا عَطَّلَ الظَّلامُ به يا دُرَّةً لم يَكُنْها الصَّدْفُ (1) [المنسرح]

وهي شمس بغداد أيضًا ، يقول :

يا شمسَ بغدادَ إنَّني دَنَيْتُ إذ ماتَ منكِ الوِدادُ واللِّطْفُ [المنسرح]

كَلَفْتُ بالشَّمْسِ من رأى رجلاً بالشَّمْسِ يا قومُ قَلْبُهُ كَلَفُ (2)

ويقول :

صَادَتْ فَوَادِي مِكَسَالٍ مَنَعَمَةٌ كالبدرِ حينَ بدا بيضاءُ معطَّارُ (3) [البسيط]

خَوْدٌ تشيرُ بِرِخْصٍ حَفًّا مِعْصَمَةٌ دَرٌّ وساعِدُهُ للوجهِ ستَّارُ (4)

صَادَتْ بِعَيْنٍ وَثَغْرٍ رَفًّا لَوْلُوهُ فالعَيْنُ مُمْرِضَةٌ والثَّغْرُ سَحَارُ

يا لَيْتَ لي قَدْحًا في راحتي أبدأ قد مَسَّ فاها ففِيه منه آثَارُ (5)

يعرض العباس بن الأحنف صفات المرأة على ما صورها الشعراء ، ولكنه تصرف في عرضه ،

ولم يتبع طرقهم التقليديَّة في التراكيب والتعبيرات ، وتراه يصورها حورية من حوريات الجنة ، عذبة

الرَّضاب .

وكانت جارةً للحو ر في الفردوس أحقابا (6) [الهجج]

وهي أيضًا بدرٌ يجني ثمار القلوب :

منعَمَ كالبدرِ في طَرْفِهِ سِحرٌ به يجني ثمارَ القلوبِ (7)

[السريع]

(1) _ ديوانه ، ص 262 .

(2) _ نفسه ، ص 261 .

(3) _ مِكَسَال : كناية عن التتعم والرفاهية ، بيضاء : كريمة صالحة .

(4) _ الخود : المرأة الشابة ، الرِّخْص : صفة للأصابع أو اليد .

(5) _ ديوانه ، ص 172 _ 173 .

(6) _ نفسه ، ص 59 .

(7) _ نفسه ، ص 59 .

ولم يغب عن بال العباس أن الناس لا بدّ من أن يتساءلوا عن سرّ المرأة التي شغلته وملكت عليه زمام نفسه ، فقال :

يا من يُسائلُ عن فوزِ وصورتِها إن كنتَ لم ترها فانظرْ إلى القمرِ [البسيط]
لم يَخْلُقِ اللهُ في الدنْيا لها شَبهاً إنِّي لأَحسبُها ليست من البَشَرِ (1)

لقد بالغ في وصفها في البيت الأخير، ولكن هذا هو أسلوب المحبين ، فلا يكاد الأمر يخلو من مبالغة عندهم ، وقد ركّز العباس على وصف جمالها ومفاتها على نحو ما نرى من حديثه من حسن وجهها وجمالها بعامة حيث يقول :

تمّت وتمّ الحسنُ في وجهها فكلّ حسن ما خلاها محالٌ (2) [السريع]
للناس في الشهرِ هلالٌ ولي في وجهها كلّ صباحٍ هلالٌ (3)

وليس أدلّ على افتتانه بجمالها ، وشغفه بها ، من الصّورة اللطيفة التي رسمها في بيتيه التاليين حين شبهها بالبدر ، وأضاف إلى أنها تزيد على البدر ، في أنه ليس له عين مكحلة أو محاسن لفظ تبعث السقم فيمن تكلمه ، أو تتحدّث إليه . قال :

قالت ظلومٌ وما جارت وما ظلّمت إنّ الذي قاسني بالبدرِ قد ظلّما [البسيط]
البدرُ ليس له عين مكحّلةٌ ولا محاسنٌ لفظٍ تبعث السقما (4)

ويقول العباس أنّها كانت تننيه عليه أحيانا بسبب جمالها ، وتراجع عن إتيانه .

تاهت علينا بأن تمت محاسنها خودّ تكملُ في أعطافها الفتنُ [البسيط]
همت بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المرآة نهاها وجهها الحسنُ
ما كان هذا جزائي من محاسنها أغرت بي الشوقُ حتى شفني الشجنُ (5)

(1) _ ديوانه ، ص 209 .

(2) _ في رواية أخرى : " فكل شيء " بدل " فكل حسن " ، المحال : الباطل .

(3) _ ديوانه ، ص 307 .

(4) _ نفسه ، ص 334 .

(5) _ نفسه ، ص 364 .

ويشير إلى أن النساء كانت تحسدها لجمال وجهها .

ما قَوْمَتِكَ ملوكِ أرضٍ قِيَمَةً
إِلَّا ارْتَفَعَتْ وَقَصَرَ التَّقْوِيمُ [الكامل]
وجهٌ يَكُلُّ الطَّرْفُ عنه إذا بدا
هو بالعفافِ وبالتقى موسمُ
يَحْسُدُنَ وجهَكَ يا ظلومُ جماله
هيهاتَ ما لَكَ في الجمالِ قسيماً (1)

وقوله :

يا من رأى مثلي فتى
يسعى طليقاً وهو موثقٌ [مجزوء الكامل]
من حبِّ خَوْدِ طَفْلَةٍ
كالشمسِ حسناً حين تُشْرِقُ (2)

وقوله :

فكأنها شمسٌ تجلُّ
ت في البلاد له يراها [مجزوء الكامل]
خَوْدٌ كأنَّ بِرِيقِهَا
مِسْكَاً يَفُوحُ لدى كراها (3)

وهي مرّة أخرى غزال غرير ، فاتر الطّرف ساحره .

أُتِيحَ لِقَلْبِي من شقاوةِ جَدِّهِ (4) غزالٌ فاترِ الطَّرْفِ ساحره (5) [الطويل]

وغير هذه التشبيهات أوصاف أخرى رددتها الشعراء قبل العباس . فالمحبوب صحيح، ولكنّه

مريض المقلتين إذا ما نظر ، وهي ثقيلة الأرداف ، دقيقة القد ، جميلة الصورة :

ومن هو محجوبٌ كَلِفَتْ بِحُبِّهِ
صحيحٌ مريضٌ المقلتين إذا نظر [الطويل]
ومثقلّة الأرداف مهضومة الحشا
لصورتها في الحُسنِ فضلٌ على الصُّورِ (6)

(1) _ ديوانه ، ص 315 .

(2) _ نفسه ، ص 264 .

(3) _ نفسه ، ص 371 .

(4) _ في رواية أخرى : " حدّه " بدل " جدّه " . جدّه : حظّه .

(5) _ ديوانه ، ص 219 .

(6) _ نفسه ، ص 218 .

وهي دمية في معبد أو هيكل . يقول :

أَلَمْ خِيَالُ فَوْزٍ وَالثُّرَيَّا قُبَيْلِ الصُّبْحِ غَائِرَةٌ جَنُوحُ [الوافر]
 بِأَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَتَمِّ خَلْقِ يُزَيِّنُ حُسْنَهَا دَلُّ مَلِيحُ
 فَتَاةٌ قَدْ كَسَاهَا الْحُسْنُ تَاجًا يُلْجَلِجُ حِينَ يُبْصِرُهَا الْفَصِيحُ
 كَدَمِيَّةٍ بَيْعَةٍ (1) بِالرُّومِ أَضْحَتْ يُعْظَمُ عِنْدَ رُؤْيَيْهَا الْمَسِيحُ (2)

وهي أيضًا ظبية رآها في شرفه قصرها . يقول :

بِأَبِي وَأُمِّي ظَبِيَّةٌ أَبْصَرْتُهَا تَلِكِ الْعَشِيَّةِ فَوْقَ سَطْحِ مُشْرِفِ [الكامل]
 نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِمَقَلَةٍ مَحْزُونَةٍ نَظَرَ الصَّحِيحِ إِلَى الْمَرِيضِ الْمُدْنَفِ
 وَلَقَدْ رَفَعْتُ لَهَا الرِّدَاءَ مَوْدَعًا بَعْدَ الْبَكَاءِ وَبَعْدَ طَوْلِ الْمَوْقِفِ (3)

(1) _ الدَّمِيَّةُ : قصد بها التَّمثال ، البيعة : الكنيسة ، ودمية البيعة: التماثيل المقدسة عند النصارى التي يُرمز بها إلى القديسين والقديسات.

(2) _ ديوانه ، ص 126 .

(3) _ نفسه ، ص 260 .

البدوات واللّمحات الحسيّة

إنّ الغزل العفيف الجاهلي ، والعذري الأموي لم يكن يخلو من البدوات التي تتعلّق بالجسد ، ولم يكبح الحاجات الجسميّة ، ولكنها ليست هدفه الأول كما عند شعراء الحسّ والفحش والمجون ، وفي شعر العباس بن الأحنف بعض هذه البدوات التي وُجد مثلها عند المرقّش ، وعروة ، وجميل ، وغيرهم ، وهي كما يقول الدكتور يوسف بكار " لا تعدو أن تكون أمنية المتمني أو شطحة من شطحات الخيال والتأمل التي قد توجد عند المحبين ، والأدلة على هذا في شعر العباس كثيرة"(1) ففي هذه الأبيات نلاحظ أن وصف العباس لمحبوته جرّه إلى الحديث عن طعم ثناياها دون خبرة منه .

والله لولا نظري كلما	غابت إلى الشمس أو البدر [السريع]
أغلّ النفس بأشباها	لما استقرّ القلب في الصدر
كأن كاساً سلسبيلية	مملوءة بالمسك والخمر
طعم ثناياها بعيد الكرى	أخبزها منها بلا خبز
تلك التي لو دُقت من ريقها	ما دُقت سقماً آخر الدهر (2)

والأبيات الآتية التي يطلب فيها العباس من جارية لفوز أن تأتيه بقبضة من ترابها ، فهي عنده تغني عن كثير ممّا يتمناه منها ، ولعلّه كان يجد في هذا منتقساً له عمّا يضطرم في نفسه، قال:

يا سعد هاتي لي بعيشك قبضة	من بيتها لأشمّ ريح ترابها [الكامل]
فأكون قد أسقيت منها ريقها	وأثلت حسن بنانها وخضابها
يا ليتني مساوكها (3) في كفها	أبداً أشمّ العبر (4) من أنيابها
أو ليتني مرط (5) عليها باطن	ألتذّ نعمة جلدتها وثيابها
فأكون لا أنحلّ عنها ساعة	دون الثياب مجاوراً لحقابها (6)

(1) _ بكار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 294 .

(2) _ ديوانه ، ص 187 .

(3) _ المساوك : العود الذي تتطّف به الأسنان .

(4) _ في رواية أخرى : "الغر" مكان "العبر" والعبر: قصد بها العبير .

(5) _ المرط: ثوب غير مخيط ، كساء من صوف يؤتزر به . الحقاب : ما تشده المرأة على وسطها تعلّق به الحلي . باطن : خفيّ .

(6) _ ديوانه ، ص 101 .

وفي هذا المجال كان العباس يتحدث في بعض الأحيان عن أشياء تخص المحبين، والحب عامة، بحيث لا يمكن أن تحسب عليه بآية حال، أو تؤخذ مأخذاً على عفته ينفذ منها إلى التشكيك فيها، فهل يمنع أن يقول؟

والحبُّ لا تكملُ لذاتهُ **لأهلهِ إلاّ بكشفِ القناعِ (1)** [السريع]

أو يقول:

لم يخلقِ الرحمنُ أحسنَ منظرًا **من عاشقينَ على فراشٍ واحدٍ (2)** [الكامل]

وهنا يفرض السؤال الآتي نفسه، هل كان العباس وصاحبه يلتقيان؟ وما طبيعة هذا اللقاء، شكا العباس في شعره قلة اللقاء، ولكن فيه ما يدل على أنهما كانا يلتقيان، ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن تلك اللقاءات كانت حقيقية أم من صنع خياله، ومهما كان أمرها فإنها كانت خاطفة لا يدور فيها أكثر من الكلام والأقوال واستماع كل منهما إلى الآخر، يقول:

كأني لم أكن شجنًا لفوز **ولم يكثر عليّ لها عويلُ** [الطويل]

ولم يسع الرسولُ إليّ منها **بأحسن ما يجيء به الرسولُ**

ولم نجلس جميعاً في خلاءٍ **نُسرُّ بما أقولُ وما تقولُ (3)**

ويبدو أن قلة اللقاء لم تكن إلا بسبب الوشاة والسعاة، حتى إذا التقيا فإنهما لم يكونا يستمتعان باللقاء، يقول:

حتى متى نحنُ على رُفبةٍ **لا نلتقي خشيةً واشٍ وساعٍ** [السريع]

فإن تلاقينا ففي خُفيةٍ **لا نشتفي من نظرٍ واستماعٍ (4)**

(1) _ ديوانه، ص 243 .

(2) _ نفسه، ص 168 .

(3) _ نفسه، ص 287 .

(4) _ نفسه، ص 243 .

فليس غريباً إذن أن يقول :

أرى كلَّ معشوقينٍ قد استغذباَ طعمَ الهوى وتمتعاَ [الطويل]
 وإنِّي وإياها على غير رغبةٍ وتفريقٍ شمل ، لم نبت ليلةً معا
 وقد عصفت ريحُ الوشاةِ بوصلنا وجرت عليه ذيلها فتقطعاَ (1)

التَّمَنِّيَات

تمنى العباس لنفسه ولصاحبه العمى المؤقت إلى أن يلتقيا فينجلي بصرهم من جديد :
 ألا ليتنا نغمى إذا حيل بيننا وتجلي لنا أبحارنا حين نلتقي (2) [الطويل]

وإدعى أنها كانت تشاركه هذه الأمنيات والدعوات ، وربما تقولها عليها ، وقد يكون منشأ هذه
 التَّمَنِّيَات اليأس من الوصول إلى المحبوب ، وفقد الأمل في الحصول عليه . يقول :

قالت وإنسانُ ماء العينِ في لُججٍ يكادُ ينطقُ من كربٍ ووسواسٍ [البسيط]
 يطفو ويرسو غريقاً ما تكفكفُهُ كفُّ فيا لك من طافٍ ومن راسٍ
 عباس ليتك سربالي على جسدي أو ليتني كنتُ سربالاً لعباسٍ
 أو لئيتَه كان لي راحاً وكنتُ له من ماء مُزِنٍ فكُنَّا الدهرُ في كاسٍ (3)
 أو ليتنا طائرا إلفٍ بمهمهةٍ (4) نخلو جميعاً ولا ناوي إلى الناس (5)

(١) _ ديوانه ، ص 243 .

(٢) _ نفسه ، ص 276 .

(٣) _ الزاح : الخمر . المزن : السحاب الممطر .

(٤) _ المهممة : الفلاة .

(٥) _ نفسه ، ص 227 .

المبحث الثالث * المظاهر الحضارية في غزل ابن الأحنف:

من يقرأ شعر الأحنف وأمثاله من شعراء الغزل العفيف ، يلاحظ بعض الجوانب الحضارية في شعرهم ، هذه الجوانب تميز شعرهم عن من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والأمويين ، وأهم هذه المظاهر:

تبادل الهدايا

في شعر العباس ما يكشف عن أنه كان هو وصاحبته يتبادلان الهدايا ، ولكنه لم يكن يكشف عن نوعها في أكثر المرات ، وأن ردّها لهداياها كان مظهرًا من مظاهر الجفوة والقطيعة بينهما:

رَدَّتْ عَلَيَّ هَدِيَّةً لَوْ أَنَّهُ . بَعَثَتْ إِلَيَّ بِمِثْلِهَا لَمْ أَرُدِّ [الكامل]

وتقول: إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ غَوَائِي . فَلْهَبْ لِشَانِكَ رَاشِدًا لَمْ تُطْرِدِ (1)

ويذكر في أبيات غيرها السبب الذي ردّ هو من أجله هديتها، ثم طلب هديةً وحدّدها بنفسه، فقال:

ولمّا وهبتم خاتماً فرددتُهُ . لمعرفتي أن الخواتيم تقطعُ [الطويل]

فأهدي سواكاً مسّ فاك، فإنه . يسكنُ ناراً في جوى القلب تلدع (2)

وقد استجابت فوز لطلبه فأرسلت إليه بمسواكها ولبانها فوق تفاحة على ریحان ، وهو موافق لما كان يطلب ويأنس به، قال:

إن فوزاً لمّا أتلها الجوّاري . يتبالئني لمّا قد شجاني [الخفيف]

وتعطفنّها عليّ ويحلفنّ . بن علي ما ذكرن بالأيمان

أرسلت بللبان قد مضغته . فوق تفاحة على ريحان

وبمسواكها الذي اختاره اللّ . هـ لفيها من أطيب الأعصران

فكأنّي وجدتُ ريحاً من الفو . دوسٍ فاحت من ريح ذاك اللبلان

وكأنّ المسواك مسواك فوزٍ . أخلصّ النبت في رياض الجنان

أيّ شيء يا قومٍ أطيب من شي . ع سقتهم من ريقه فسقاني

ليت شعري هل لي إليها سبيلُ . فلأراها في خلوة وتواني؟ (3)

(1) _ ديوانه، ص 146_147.

(2) _ نفسه ، ص 252 .

(3) _ نفسه ، ص 344 .

ولعلّ طمع العباس في أشياء تتعلّق بها لم يكن إلّا لأنه كان يعتقد أنها تؤنسه وتُسليّه بحيث لا يفارقه ذكرها ولا صورتها . وهذا يشبه إلى حدّ بعيد ما يقدّمه الأحبة إلى بعضهم في هذه الأيام من

هدايا ،وأشياء أخرى للذكرى ، وغيرها من الاعتبارات المعنوية الأخرى.وقد كان العباس نفسه يطلب من صاحبه مثل هذا، فيقول

فوزُ ماذا عليك أن تؤنسيني بحقابٍ أو خاتمٍ أو وشاح (1) [الخفيف]

ونجد في قصيدة أخرى أنهم تبادلوا فعلاً بعض هذه الأشياء فأعطته هي حقاباً وخاتمًا كما أراد ، وأعطاه هو بردًا، يقول :

فلي عندها بردٌ تُسِّ كُن قلبها به ولها عندي حِقَابٌ وخاتمٌ (2) [الطويل]

هدايا العشاق أعظم تعبير عما في قلوبهم. ونوع الهدية يدلّ أيضاً على نفسيّة العاشق وعواطفه وإحساسه يقول:

أهدى له أحبابه أُترجةً فبكى وأشفقَ من عيافةٍ زاجر (3) [الكامل]

متطيراً لما أتته لأنها لوان باطنها خلاف الظاهر (4)

يبدو الخوف في أمر الهدية ، لأنّ العاشق يفسرها بمشاعره ويزنها بميزان قلبه.

(1) _ ديوانه ، ص 127.

(2) _ نفسه ، ص 321 .

(3) _ الأترج :شجر وثمر من جنس الليمون اسمه "الكبار". العيافة : زجر الطائر ، يتشائم زاجرها إذا اتّجّعت شمالاً ، ويتفاعل إذا اتّجّعت جنوباً .

(4) _ ديوانه، ص 194.

وصف المحاسن

لم يكتف العباس بوصف محبوبته وصفاً تقليدياً أو تشبيهها بأشياء قديمة، إنّما نعتها وشبّهها بأشياء جديدة استقاها من عصره ومما كان في بيئته، فأكثر ما ذكر من أوصافها : الرّيحان ، والورد ، والنّرجس ، وها هو ذا يشبّه قوامها بقضيب من الرّيحان ريّان أخضر: وقد مُلِّيتُ لِينَ الشَّبَابِ كَأَنَّهَا قَضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ رِيَّانٌ أَخْضَرُ (1) [الطويل]

وكان كلّما شمّ رائحة الرّيحان ذكر رائحتها :
أصبحتُ أذْكَرُ بالرِّيحَانِ رائحةً منها فللنَّفْسِ بالرِّيحَانِ إِيناسُ (2) [الطويل]
ويقول:
كيف يبغى الرّيحَانُ أهلَ ظلوم؟ وظلومُ الرّيحَانُ للرّيحَانِ (3) [الخفيف]

كما أنه لم يكن يحبّ أن يسمّيها بالنّرجس؛ لانتصافه بالصدر، إنّما كان يحبّ أن تسمّى آسةً لوفاء الآس.

إنّ الذي سمّاك مُنِّيَّتي بالنّرجسِ الغدَارِ ما أنصَرَفَا [السريع]
لو أنّه سمّاك بالآسةِ وفِيَّتِ ، إنّ الآسَ أهلُ الوفا (4)

ويبدو أنّه كان مغرماً بالآس ، حتّى أنّهم يقبل أن يشبّه عهدها بالورد لسرعة ذبوله ، بل فضّل تشبيهه بالآس لاستمراره أكثر من الورد . وريّما كانت هذه الأشياء منه أمنية المتمنّي ورجاء المتوسّل بعد الذي عرفه من تصرّفات صاحبتّه، على نحو ما يفهم من قوله:
ووالله ما شبّهتُ بالوردِ عهدَها إذا ما انقضى فيما تقولُ الأعاجمُ [الطويل]
ولكنني شبّهتُ الآسَ دائماً وليسَ يدومُ الوردُ والآسُ دائماً (5)

(1) _ ديوانه ، ص190.

(2) _ نفسه ، ص232 .

(3) _ نفسه ، ص 346.

(4) _ نفسه ، ص 263.

(5) _ نفسه ، ص 321 .

والعبّاس يعود ويناقض نفسه فيقول إنّه يبغض الآس والخلاف لمكان اليأس والخلاف من صاحبتّه، ويحبّ التفاح والورد لأنّهما يشبهان ريقها ونكهة فيها وينبئان بالطيب والحلاوة عنها .
ويقول :

أبغضُ الآسِ والخلافِ جميعاً لِمكانِ الخلافِ والياسِ منها [الخفيف]
وأحبُّ التفاحِ والوردِ حتّى لو ورزنتيهِ بالجبالِ ورزنتها
أشبهها ريقها ونكهةً فيه. فهما يُنبئان بالطيبِ عنه! (1)

ومن المظاهر الحضاريّة الأخرى عنده أن صاحبتّه كانت فتاة منعمة تسكن القصور ، يقوم على خدمتها الوصائف والخدم . أمّا عن ملابسها ووسائل زينتها فإنّ شعره لا يكاد يعطي صورة عنها إلّا م. ذكر من حقابها وخواتمها ووشاحها ، وم. يذكره في البيت الآتي من أنّها كانت تلبس المصقّلات وهي تطلّ من شرفة قصرها. قال :

إنّ شمساً أبصرتُها فوقَ سطحٍ غادرتني من البواكي قتيلاً (2) [الخفيف]
أشرقّت في المصقّلاتِ فيا من أبصَرَ الشمسَ تلبسُ المصقولاً (3)

ويظهر الأثر الحضاري في الأمكنة التي كانا يجتمعان فيها ، إذ أنّ اجتماعاتهما كانت في أماكن ومجالس مزدانة بأنواع الزينة والورود وكان فيها الغناء والطرب _ كما يقول العباس _ وهذه الإشارة تشكّك في صحة تلك الاجتماعات وحقيقتها في رأي الدكتور يوسف حسين بكّار حيث يقول : "إنّ مجالس من هذا الطراز لا يمكن أن تكون إلّا في أماكن عامّة كالمتنزهات والملاهي في الوقت الحاضر، وأرّى للعبّاس وصاحبتّه ارتياد مثلها وعيون الرقباء والوشاة تلاحقهما" (4) ومهما يكن فهذا وصف جوّ المجلس ، قال :

وكأنتنا لم نجتمع في مجلسٍ فيه الغناء ونرجس وبهارُ (5) [الكامل]

(1) _ ديوانه ، ص 367.

(2) _ في رواية أخرى للعجز : غادرتني بسهم طرف قتيلاً .

(3) - ديوانه ، ص 307 _ 308 .

(4) _ بكّار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 300 .

(5) _ ديوانه ، ص 182 .

ويبدو الأثر الحضاري في غزل العباس في التعبير والاستعمالات الجديدة لأشياء عرفها القرن الثاني، يقول العباس : إنَّ حبَّ صاحبتَه ترك في قلبه صدعًا كصدع الزجاج لا يمكن إصلاحه أو تلافيه، وهو تعبير حضاري لطيف .

ولها في الفؤاد صدعٌ مقيمٌ مثل صدعِ الزجاجِ أعيا الصنّاعا (1) [الخفيف]

ومن الصور الجديدة التي سجّلها العباس في شعره أنه شبّه صاحبتَه وهي تمشي الهوينى بين وصائفها بمن يمشي على البيض أو خضر القوارير، وحدث عن فزعها لما رأت صورة أسد منقوشة على خاتم ، فقال :

كأنّها حينَ تمشي في وصائفها تخطو على البيضِ أو خُضِرِ القواريرِ [البسيط]
أُنْبِتُهَا صَرَخَتْ لَمَّا رَأَتْ أَسَدًا في خاتمِ صَوْرِهِ أَيِّ تَصْوِيرِ(2)

(1) _ ديوانه ، ص 252 .

(2) _ نفسه ، ص 179 .

المراسلة والرسائل

ومن المظاهر الحضارية أيضاً تبادل الرسائل بين المحبين، لكن هذه الظاهرة، وإن كانت حضارية، فإنها ليست بجديدة فقد عرفها الغزل في شعر عمر بن أبي ربيعة في القرن الأول فعدت تجديداً ساعد عليه التقدم الثقافي في عصره.

إن من يُقَلَّب ديوان العباس تستوقفه الإشارات إلى رسائل ومراسلات بينه وبين صاحباته

وخاصة "الثريا" التي قيل أنها كانت تردّ عليه بالشعر(1)

أمّا لماذا لم يظهر الاتجاه في العصر الجاهلي أو حتى عند العذريين الأمويين ؟ سؤال إجابة عليه الدكتور شكري فيصل " فهو لأنّ الكتابة لم تكن هذا الشيء الرائج المنتشر، ولم تكن كتابة الرسائل إلى الأحبة بالشيء الذي يمكن أن يجد له مكاناً واضحاً في تلك الحياة، ولم يكن كذلك في بيئات الحبّ العذري، وهي بيئات تغلبها البداوة في أكثر الأحيان، ما يمكن لهذه الكتابة".

(2)

أما شعراء الغزل العفيف في القرن الثاني، و خاصة العباس بن الأحنف، فقد كثرت الرسائل في حياته الغرامية، ونقول ما أكثر ما ضمّن وجده صفحة رسالة يبعث بها إلى من أحبّ، وما أوفر ما عبّر عن وجيب قلبه عبّر كتاب دسّ به إلى من أذاقه حرارة الحبّ ولوعة الحرمان، يرى ابن حزم في باب المراسلة: "أنّها ضرورية بين المحبين المتقفين ويقول إنها تأتي بعد مرحلة الامتزاج والانسجام التام. ويرى أن للكتب والرسائل عند المحبين إمارات ودلالات معينة أكثرها الفرح واللذة". ويقول: "حتى إنّ وصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحبّ أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحبّ عجيبة تقوم مقام الرؤية، كما أنّ لردّ الجواب والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء، فقد يلجأ العاشق إلى وضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه" (3).

وفي شعر العباس إشارة إلى ما ذهب إليه ابن حزم، يقول:

أضحكني طوراً وأبكاني
كتلبُ مولاتي وخُلصاني [السريع]
طرُتُ سروراً حين أبصرتُهُ
فاعترضُ الشوقُ فأبكاني

(1) _ ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، ص353.

(2) _ فيصل، شكري، تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص573.

(3) _ ابن حزم، طوق الحمامة، ص33_34.

بِتُّ بِشَمِّ وَعَتْنَاقٍ لَهُ مُسْتَغْنِيَاً عَنِ كُلِّ رِيحٍ

وَاهَا لَهُ مِنْ زَائِرِ مُؤْنِسٍ فَرَجَ عَنِّي بَعْضَ أَحْزَانِي (1)

والعبّاس يحسن التصرف ويكثر التنويع في وصف الرسائل ، وهذه الرسائل ليست دائماً صادرة عنه ، ولكن يبدو أنّه كان هو البادئ في كتابة الرسائل ، وهذا يتّضح في قوله:

أَيَا مَنْ لَا يَجِيبُ إِذَا كَتَبْنَا وَلَا هُوَ يَبْتَدِينَا بِالْكَتَابِ [الوافر]

أَمَا فِي حَقِّ حُرْمَتِنَا لَدَيْكُمْ وَحَقِّ إِخَانِنَا ، رُدُّ الْجَوَابِ (2)

وهو من خلال رسائله يصف حبه ووجده، ويصف الرسالة نفسها خطأً وإملاءً وأنامل ، وهو يسعد بها إذا حملت موعداً ، ويشقى بها إذا تضمّنت هجراً وبلغت صدأً ، وهي مجال للشكوى ووسيلة للمناجاة ، ووشيجة للتعاطف ، وميدان للعتاب.

يصف العبّاس ما فعل به العشق وما جنى عليه الحبّ في رسالة بعث بها إلى من أحبّ ، من عين لا ترقأ لها دمة، وجسم لا يني عن النحول والشحوب ، وقلب متأبٍ على قبول الرشد ، وسمع مُسْتَعَصٍ على الانصياع إلى صوت الناصحين إنّ العبّاس يسوق قوله في عفوية وصدق ، وفي غي ما تعسف أو تصنع أو افتعال ، بحيث يُعْتَبَرُ قوله شعراً عند الأدباء ، وأنيباً عند العشاق وتمرداً عند الحكماء ، يقول في رسالة بعثها إلى محبوبته :

كُتِبَ الْمَحَبُّ إِلَى الْحَبِيبِ رِسَالَةً ً وَالْعَيْنُ مِنْهُ تَجْفُ مِنْ الْبُكَ [الكامل]

وَالْجِسْمُ مِنْهُ قَدْ أَضْرَّ بِهِ الْبَلَى وَالْقَلْبُ مِنْهُ مَا يَطَاوَعُ مِنْ نَهَى

وَقَدْ صَارَ مِثْلَ الْخَيْطِ مِنْ ذِكْرَاكُمْ وَالسَّمْعُ مِنْهُ لَيْسَ يَسْمَعُ مِنْ دَعَا

هَذَا كَتَبْتُ نَحْوَكُمْ أَرْسَلْتُهُ يَبْكِي السَّمِيعُ لَهُ وَيَبْكِي مَنْ قَرَا

فِيهِ الْعَجَائِبُ مِنْ مَحَبِّ صَادِقٍ أَطْفَلُهُ حَبُوكِ يَا حَبِيبَةُ فَانْطَفَلِ (3)

(1) _ ديوانه ، ص316 .

(2) _ نفسه ، ص94 .

(3) _ نفسه ، ص39 .

ومن رسائله ما كان يدور على الطلب إليها ألا تتوقف عن الكتابة إليه ، والردّ على رسائله ، قال:

رُدِّي جوابَ رسالتي واستَيْقِنِي أن الرسالة منكم عندي شِفْه [الكامل]
مَنِّي السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا مُنْيَتِي عددَ النّجْمِ وكلَّ طَيْرٍ فِي السَّمَاءِ (1)

إنّ من يقلّب ديوان العباس بن الأحنف يجده مترعاً بالعديد من المراسلات الغرامية ، ولولا قناعته بأنّ كثرة الرّسل تفضح لاستخال ديوانه إلى مجموعة من الرّسائل. يقول :

لعمري ما حبّسي كتابي عنكم لهجر ولكن كثرة الرّسل تفضح [الطويل]
وإن كنتُ لم أكتب إليكم فإتم. فؤادي إليكم حين أمسي وأصبح
أعزّك تسليمي على بعض أهلكم؟ وما قلتُ بأساً إنّما كنتُ أمزح
مخالطتي يا فوزُ أهلك فاعلمي يقيناً بأنّي نحو بيتك أطمح
إذا أنا لم أمنحكُ الودّ والهوى فمن ذا الذي يا فوزُ أهوى وأمنح؟
أكاتم خلق الله ما بي وربّما ذكركم حتّى أكاد أصرّح
فيا كبدي طالّت إليكم رسائلي وهذا رسولي أعجم ليس يفصح (2)

قد أحسن العباس بن الأحنف التصرف في تنويع رسائله التي كانت تحمل أحاديث نفسه وخلجات ضميره على نحو ما نرى من قوله في إحداها :

وصحيفة تحكي الضمير ر مليحة نغماتها [مجزوء الكامل]
جاءت وقد قرّح الفؤا د ل طول استبّطاتها (3)
فضحكت حين رأيها وبكيت حين قرائها
عيني رأت ما أنكرت فتبادرت عبراتها
أظلمو! نفسي في يدي ك حياتها ومماتها (4)

(1) _ ديوانه ، ص 40 .

(2) _ نفسه ، ص 128 .

(3) _ في روايه أخرى: "قرح" بدل "قرح" . استبّطاتها : تخفيف استبّطاتها .

(4) _ ديوانه ، ص 121 .

وفي رسالة أخرى نجد العباس يجيب ، ويعتبر ، ويعتذر :

كَتَبْتُ فَلَيْتَنِي _ مُنِيْتُ وَصَلًا _ ولم أَكْتُبْ إِلَيْكَ بما كَتَبْتُ (1) [الوافر]

كَتَبْتُ وقد شَرِبْتُ الرِّاحَ صَرَفًا فلا كان الشَّرَابُ ولا شَرِبْتُ

فلا تَسْتَكْرِوا عَضْبِي عَلَيْكُمْ فلو هُنْتُمْ عَلَيَّ لما عَضِبْتُ (2)

أمّ مضامين رسائل محبوبه العباس فما كثر! لنعلم عنها شيئاً لولا العباس الذي يخبر عنها في شعره، فهي كما يظهر لم تكن تدور على موضوع واحد بعينه ، إنما تعددت مضامينها واختلفت ، ففي الأبيات الآتية تعتب عليه وتتهمه بأنه ملها وخان عهدها :

بَعَثْتُ إِلَيَّ صَحِيفَةً مَخْتومَةً. نفسي الفداء لخطها والكاتب [الكامل]

فَفَكَكْتُهَا فقرأت ما قد حَبِيت فإذا مقالةٌ مستزيرِ عاتبِ

في الودِّ تزعمُ أنني ذو قَلَةٍ خُنْتُ العهودَ فدَيَّها من كاذبِ

أَنْى أخونك يا ظلوم وحبائلم مني بحيثُ جرى شرابُ الشاربِ (3)

ومثل هذا ما كتبه في رسالة أخرى أشار إليها في قوله:

يا أبا الفضل يا كريم التصافي ما لفوزٍ تقول أنك جافٍ؟ [الخفيف]

كَتَبْتُ في الكتاب فوزٌ فقالت في عتابٍ منها وفي إطفافٍ

ما مللناك إذ مللت ولكن أنت يا حبُّ صاحبُ استطرافٍ (4)

وكانت تطلب في رسائلها، أحياناً ألا يأتيها ، قال:

كَتَبْتُ بأن لا تأتني، فَهَجَرْتُها لتذوقَ طعم الهجرِ ثم أعادُ (5) [الطويل]

(1) _ في رواية أخرى لصدر البيت : كَتَبْتُ وليتني شَلْتُ يميني.

(2) _ ديوانه ، ص115.

(3) _ نفسه ، ص70_71.

(4) _ نفسه ، ص259.

(5) _ نفسه ، ص 139.

ولمّا عزمت على الرّحيل ، كتبت إليه تُخبرُهُ ، فقال وقد أزعجه الخبر وصدّمته المفاجأة :

إِنَّ فَوْزًا لَمَّا أَتَاهَا رَسُولِي كَتَبْتُ أَنَّهَا تَرِيدُ رَحِيلًا [الخفيف]

ومالكم لا يزال منكم كتابٌ يورث الهمَّ والبكاء الطويلاً (1)

وظلّت تكتب إليه ، وهي بعيدة نائية تخبره ببعض أخبارها ، وهذا يدلّ على استمرار العلاقة

بينهما بعد رحيلها ، ولكنّها لم تدم طويلاً على هذه الحال ، قال :

كتابٌ أتاني على نأيتها يُخبرُ عن بعض أنبائها [المتقارب]

فَنَفْسِي الْفِدَاءُ لِهَذَا الْكِتَابِ بِ إِنْ كَانَ حُطَّ بِإِمْلَائِهَا (2)

الواضح أنهما كانا يكتبان الرّسائل بأنفسهما ، غير أنّ في شعر العباس إشارات يبدو منها أنّه

ربّما كان هناك من يكتب لهما أحياناً . فإن صحّ هذا فهو شيء غير مقبول ، ولا مستساغ في

الحب ، لأنّ الحبّ علاقة بين اثنين لا يعرفها ولا يستطيع أن يعبر عنها إلاّ من يعيشها حقاً. وممّا

قاله العباس ويدلّ على هذا ، قوله :

كَتَبْتُ فَأَكْتَرْتُ الْكِتَابَ إِلَيْكُمْ عَلَى رَغْبَةٍ حَتَّى لَقَدِ مَلَّ كَاتِبِي (3) [الطويل]

أمّا قوله :

مَالِي أَهَانٌ وَلَا تُجَابُ صَحَائِفِي وَإِلَى مَتَى أَقْصَى لَدَيْكَ وَأُخْرَجُ [الكامل]

مَا كَانَ ضَرْكَكَ إِذْ كَرِهْتَ أَمِيرَتِي أَنْ تَكْتُبِي _ أَنْ تَأْمُرِي _ مِنْ يَكْتُبُ (4)

والذي يفهم من البيت الأخير اعتماداً على ما قبله أنّه لكثرة إهمالها رسائله والردّ عليها ، حاول

أن يردّ عليها العباس بطريقة فيها نوع من التعريض والإشارة إلى التناقل والإهمال ، وهي طريق في

المخاطبة يلجأ إليها النّاس في الحياة اليوميّة العاديّة، فمعناه لا يخرج عن أن يكون : إذا كنت

مشغولة إلى هذا الحدّ فباستطاعتك تكليف من يكتب رسائل ن طية عنك. والتعريض في هذه الأحوال

_ إن لم تكن السخرية _ واضح جدّاً.

(1) _ ديوانه، ص 308.

(2) _ نفسه، ص 42_43.

(3) _ نفسه، ص 56.

(4) _ نفسه، ص 105.

والعبّاس بن الأحنف معنيّ بشكل خاص بوصف رسائل صاحبتّه خطأً إملاءً وأنامل على نحو ما هو واضح في مثل قوله :

أتاني كتابٌ من مليكٍ بخَطِّه فما أعظمُ النُّعْمَى وما أضعفُ الشُّكْرَا [الطويل]
 فظَلَّتْ تناجيني بما في ضميرها أناملُ قد خَطَّتْ بأقلامِها سِحْرَا
 وَاِنِّي لَأَسْتَبْطِي المنيَّةَ كَلِمَا. ذَكَرْتُ الَّتِي لا أَسْتَطِيعُ لها ذِكْرَا
 فلَمَّا تَفَهَّمْتُ الكِتَابَ رَدَدْتُهُ إليها ولم أَبْعَثْ بِرِدِّ له سَطْرَا (1)

ولم تكن رسائل صاحبتّه إليه نذير سعد دائماً بل كانت تتفاوت من حيث السعادة والشقاء، فكما أسعدتّه رسالة صاحبتّه السابقة _ على الرغم مما تضمّنته من همسات العتاب _ فقد أشقّتّه رسالة أخرى ، وصفها بقوله:

كُتِبْتُ إِلَيْكَ أشكو ما أَلَقِي من الشُّوقِ الميِّحِ في الكِتَابِ [الوافر]
 وَأَمَلْتُ الجوابَ ولستُ أدري بأنَّ الموتَ يَأْتِي في الجوابِ
 فلمَ! جاعني أيقنْتُ لَمَ! فَضَضْتُ ختامه أَنِّي لما بي
 وقد كان الرِّجاءُ يردُّ رُوحِي ويشفي ذِكرهُ أَلَمَ ارتقابي
 فقَبَّحْتُ الخِطابَ ولستُ أدري لأَيِّ جِنَايَةٍ قُبِحَ الخِطابُ! (2)

إنّ الواسطة التي كانت تنقل الرّسائل بين المحبين هي الرّسل ، يقول العباس:

أَلَسْتُ تَرَى الرّسولَ كما تراه يُبَلِّغُها ويأتي بالجوابِ [الوافر]
 ويذهب بالكتابِ بما أَلَقِي فَتَلْتَمُهُ فطوبى للكتابِ (3)

ويقول:

أَيامُ يَنْقُلُ بَيْنَنَا أخبارنا ذو قُرْطَقٍ (4) متحلِّ متخضِّبُ (5) [الكامل]

(1) _ ديوانه ، ص 190_191 .

(2) _ نفسه ، ص 91 .

(3) _ نفسه ، ص 62 .

(4) _ فُرطَق : هو تعريب كرتة الفارسية ، وهي نوع من اللباس . متخَضَب : مصبوغ .

(5) _ ديوانه ، ص 83 .

لقد عانى العباس من الرُّسل كثيرًا ، فقد اتَّهَمَنَهُ بِمُرَاوَدَتَيْهِمْ ، وكان ينفي المزاعم في كلِّ مرَّة ، ويُقسِم بأيمان مغلظة . ويقول : إنَّه كان في هؤلاء الرُّسل الأمين الوفيّ ، والخائن الدنيء . ففي البيتين الآتيين يطلب إلى صاحبه أن يستخلف بأحد الرُّسل رسولاً أميناً ذا محافظة .
يقول :

إِنَّ الرَّسُولَ الَّذِي كَانَتْ سَرَائِرُنَا مَدْفُونَةً عِنْدَهُ يَا فَوْزُ قَدْ ذَهَبَ [البسيط]

فَاسْتَخْلَفِي لِي رَسُولًا ذَا مَحَافِظَةٍ لَا خَيْرَ فِيهِ إِذَا مَا خَانَ أَوْ كَذَبَ (1)

وكما كانت تتقطع الرِّسائل ، كان الرُّسل ينقطعون أيضاً ، يقول :

أَيُّ وَحْشَتَا لَانْقِطَاعِ الرَّسُولِ لِي مِمَّنْ أَسْرُّ بِأَخْبَارِهِ (2) [المتقارب]

وكثيراً ما تعرَّض العباس للوشاية والحسد لإفساد العلاقة بينه وبين محبوبته ، والوشاية هي ما تعرَّضه العاشقين ، يقول ابن حزم : "ومن آفات الحب الواشي . وهو على ضربين ،

أحدهما :

واشٍ يريد القطع بين المتحابين فقط ، إنَّ هذا لأفترهما سوءة ، على أنَّه السَّمُّ الذَّعَاف والمصاب المُمَقَّر والحتف القاصِد والبلاء الوارد . وربَّما لم ينجح ترقيشه (3) وأكثر ما يكون الواشي فإلى المحبوب ، وأما الحبَّ فهيهات... شغله بما هو مانع له من استماع الواشي . وللوشاة ضروب من التثقيب ، فمنها أن يذكر للمحبيب عمَّن يحبُّ أنه غير كاتم للسِّرِّ ، وهذا مكان صعب المعاناة ، بطيء البرء... وربَّما ذكر الواشي أنَّ ما يُظهر المحبَّ من المَحَبَّة ليست بصحيحة ، وإنَّ مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره... وربَّما نقل الواشي أنَّ هوى العاشق مشترك وهذه النَّار المحرقة والوجع الفاشي في الأعضاء

والثاني :

واشٍ يسعى للقطع بين المحبِّين لينفرد بالمحبيب ويستأثر به ، وهذا أشدُّ شيء وأقطعه

وأجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جهده " . (4)

(1) _ ديوانه ، ص 90 .

(2) _ نفسه ، ص 219

(3) _ الترقيش :الكلام المرّين المزخرف

(4) _ ابن حزم، طوق الحمامة ، ص 53_55 .

والعبّاس يخشى الوشاة ويتّقيهم إلى درجة أنه يعمد أحياناً إلى الكذب الذي لا ضرر منه خوفاً وتقية ، يقول

وَنَخْشَى الْوَشَاءَ فَمَا نَسْتَطِيعُ نُهَادِي الَّذِي بَيْنَنَا فِي الْكُتُبِ [المتقارب]
سَأَسْتُرُّ وَالسُّتْرُ مِنْ شِيْمَتِي هَوَى مِنْ أُحِبُّ بَمَنْ لَا أُحِبُّ
وَلَا بُدَّ مِنْ كَذِبٍ فِي الْهَوَى إِذَا كَانَ دَفْعُ الْأَذَى بِالْكَذِبِ (1)

وأخطر الوشاة هؤلاء الذي يلجؤون إلى الوسائل غير المشروعة للتفريق بين العشاق، فهذا العبّاس يقول :

إِنِّي لِأَخْ سَرِبُ وَالْأَقْدَارُ غَالِبَةٌ أَنِّي وَإِيَّاكَ مِثْلُ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ [البسيط]
حَتَّى سَعَتَ بَيْنَنَا يَا فَوْزُ سَاعِيَةً مَشْهُورَةٌ عَرِفَتْ بِالنَّفْثِ فِي الْغَفْدِ
فَلَمْ تَزَلْ بِالرُّقَى حَتَّى لَقَدِ تَرَكْتَ مَا بَيْنَنَا مِثْلَ حَرْبِ الثَّوْرِ وَالْأَسَدِ (2)

ومن سُبُل الواشي إذا كان امرأة أن تتهم العاشق أمام معشوقته بأنه راودها عن نفسها ، يقول :

وَقَدْ رَعِمْتَ يَمُنْ بِأَنِّي أَرَدْتُهُا عَلَى نَفْسِهَا تَبًّا لِذَلِكَ مِنْ فِعْلِ [الطويل]
سَلُوا عَنْ قَمِيصِي مِثْلَ شَاهِدِ "يُوسُفِ" فَأَنَّ قَمِيصِي لَمْ يَكُنْ قُدَّ مِنْ قَبْلِ (3)

وجاء إلى المعشوقة نَمَامَاتِ أَخْرِيَاتِ زَيْنَ لَهَا الْبَاطِلُ حَقًّا ، فقال العبّاس فيهنّ :

وَمَجْتَهَدَاتِ فِي الْفَسَادِ حَوَاسِدِ لَهَا وَهِيَ مَمَّا قَدْ أَرَدَنْ عَلَى جَهْلِ [الطويل]
تَأَزَّرْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ فَجِنَّهُا عَلَى وَجْهِ الْإِقَاءِ النَّصِيحَةِ لِلْمَحَلِ
يُعَرِّضْنَ طَوْرًا بِالتَّغَاضِي وَتَارَةً يُعَاتِبُنَّهَا بِالْجِدِّ مِنْهُنَّ وَالْهَزْلِ
وَمَا زِلْنَ حَتَّى نَلْنَ مَا شِئْنَا بِالرُّقَى وَحَتَّى بَدَتْ مِنْهَا الْمَلَامَةُ وَالْقَلْبَى
وَعَهْدِي بِفَوْزٍ لَا تَمَلُّ وَلَا تَقْلِي شَمْتَنَ جَمِيعًا وَاسْتَرَحَّنَ مِنَ الْعَدْلِ (4)

(1) _ ديوانه، ص 86.

(2) _ نفسه، ص145.

(3) _ نفسه، ص289.

(4) _ نفسه ، نفس الصفحة.

ومما ينقله الوشاة إلى المعشوق أنّ عاشقها على علاقة بسواها يقول العباس :

زعم الرسول بأنكم قُلْتُمْ له: **إنّا سواكم بالوصال نحاول [الكامل]**

لا والذي سمك السماء بِقُدْرَةٍ ما في العبادِ لكم لديّ مُعادِلُ! (1)

ويُفَسِّنُ وُشاة العباس في اختراع ألوان النّميمة. وهم لا يجدون سبيلهم إلا إلى فوز، يقول :

ولقد أقولُ له ودمعي مُسْبِلٌ: **فيما عتبتُ عليّ عتَبَ الواجِدِ؟ [الكامل]**

ألقولِ واشِ ظالمٍ أقصَ يَتِيّ **نفسي فداؤك أم لذنبٍ واحدٍ؟**

إن كان ذنبٌ جنّته بِجَهالةٍ **فاغفر فلأستُ إلى الذنوبِ بعائدٍ**

فأجابني متبسماً لا يرعوي: **هيهات! تضربُ في حديدٍ باردٍ (2)**

وحين ينفذ ما عند الوشاة فإنهم يؤلّفون ويتقولون . وفي ذلك يقول :

أناسٌ أمناهُم فَمَوا حديثنا **فلما كتمنا السرَّ عنهم تقولوا [الطويل]**

فلم يحفظوا الوُدَّ الذي كان بيننا **ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا (3)**

أمّا حين تنفع وشاية الواشي فإنّ القطيعة حاصلة لا محالة ، يقول :

لا لومَ إن غضبتُ عليك فإنها **سمعت لعمرك أعظم البُهتانِ [الكامل]**

زعمَ الرسول بأنني راودتُهُ **كذبَ الرسولُ ومُنزِلَ الفرقانِ**

ما كنتُ أجمعُ خصلتَيْنِ: خيانةً **لكمُ وبيعَ كرامةٍ بهوانِ**

عطفَ الأحبَّةِ كلُّهُمُ وكأنمُ **قد وُكِّلتُ بتعلمِ الهجرانِ (4)**

عند هذا يبدأ الشكّ القاتل الذي لا يرحم . وتكون هي النهاية .

ووجود الرّسل بين المحبّين أمر محبّب جدّاً ويجب أن يحسب له حساب، وقد كان العباس على حقّ وهو يتشدّد في هذه المسألة ويطلب إلى صاحبه أن يكون الرّسول من الأمناء والأوفياء وأن تتوفّر فيه صفات معيّنة، وقد شدّد ابن حزم : " في وجوب تخيير الرّسول واستجادته لأنّه دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى " (5) .

(1) _ ديوانه ، ص298.

(2) _ نفسه، ص151.

(3) _ نفسه، ص 309.

(4) _ نفسه، ص 349

(5) _ ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 34 .

وكان العباس يطمئن إلى بعض الرسل ويفرح كثيراً بتصرفاتهم وما ينقلون إليه من أخبار، كما كان يعكس فيهم كل ما يريده من محبوبته، لأن الرسول عنده سفير وحسبه أنه رأى صاحبتة، وتفحص محاسنها، فكان يراها هو عن طريق رسوله ، يقول:

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا فَقَدْ سَعِدَتْ عَيْنُ رَسُولِي وَفُزْتُ بِالْخَبْرِ [المنسرح]

وكلّم. جاءني الرسول له. رددت عمداً في ظرفه نظري

تظهّر في وجهه. هم حاسنها فقد أثرت فيه أحسن الأثر

خذ مقلتي يا رسول عاريةً فانظر بها واحكم على بصري (1)

لا يخفي العباس بن الأحنف أن لأسلوب الغزل بالرسائل ، والكتب حلاوة خاصة ، حيث يقول :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَبِّ سَخَطٌ وَلَا رِضًا فَأَيْنَ حَلَاوَاتِ الرَّسَائِلِ وَالْكَتُبِ؟ [الطويل]

أو حيث يقول معانبا :

وَكُنْتُ إِذَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ أَشْكَو ظَلَمْتُ وَقُلْتُ لَيْسَ لِي جَوَابُ [الوافر]

فَعِشْتُ أَقْوَمْتُ نَفْسِي بِالْأَمَانِي أَقُولُ لِلْجَمْحَةِ إِيَابُ

وَصَرِهْتُ إِذَا انْتَهَى مِنِّي كِتَابُ إِلَيْكَ لَتَعْطِفِي نُبْدَ الْكِتَابِ

وَأَنَّ الْوَدَّ لَيْسَ يَكَادُ يَبْقَى إِذَا لَثَرَ التَّجَنِّيَ وَالْعَتَابُ (3)

وأبلغ من هذا قوله:

كَمْ مِنْ كَوَاعِبَ مَا أَبْصَرَنْ خَطَّ يَدِي إِلَّا تَمَنِّيَنْ أَنْ يَأْكُلَنْ قِرْطَاسِي (4) [البسيط]

وقوله:

هَذَا كِتَابُ بَدَمِ عَيْنِي أَمْلَأُهُ قَلْبِي عَلَى بَنَانِي [مخلع البسيط]

إِلَى حَبِيبِ لَيْثِي عَنْهُ أَجَلَّ ذَكَرَ اسْمِهِ لِسَانِي (5)

(1) _ ديوانه ، ص 223.

(2) _ نفسه ، ص 111.

(3) _ نفسه، ص 63_64.

(4) _ نفسه، ص 228.

(5) _ نفسه، ص 356.

الزَّيَارَةُ :

وللعبّاس بن الأحنف في الزَّيَارَةِ نماذج من الشَّعْرِ الجَدَّابِ ، ومعانٍ من القول المعج ب ،
الرَّقِيقِ المطرب . إنَّه في مجال الحديث عن الزَّيَارَةِ يُجْرِي هذا الحوار الطَّرِيفَ الذي يتركِّز في سؤال
وجواب ، السؤال صادرٌ منه ، والجواب وارد إليه ، في الجواب نجده يَنقَمِّصُ شخصيَّةَ محبوبته
محاكيًا لغة المرأة وأسلوبها وخوفها ودلالها ، فيقول :

قُلْتُ : الزَّيَارَةُ، قَالَتْ وَهِيَ ضاحِكَةٌ : اللَّهُ يَعْلَمُ فِيهَا كُنْهَ إِضْمَارِي [البسيط]

فَكَيْفَ : أَصْنَعُ بِالْوَاشِينَ لَا سَلِمُوا _ وَالْحَلِّي وَالطَّيِّبُ يَأْتِيهِمْ بِأَسْرَارِي (1)

وحين يشكو المترجِّصين به والوشاة يقول :

إِنْ يَمْنَعُونِي مَمْرِي قَرِيبَ دَارِهِمْ فَسَوْفَ أَنْظُرُ مِنْ بُعْدٍ إِلَى الدَّارِ [البسيط]

سَيَمَا الْهُوَى شَهْرَتْ حَتَّى عُرِفْتُ بِهَا إِنِّي مُحِبٌّ وَمَا بِالْحَبِّ مِنْ عَارِ

مَا ضَرَّ جِيرَانَكُمْ _ وَاللَّهُ يُصَلِّحُهُمْ لَوْلَا شِقَاتِي _ إِقْبَالِي وَإِدْبَارِي؟

لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَنْعِي وَلَوْ جَهَدُوا إِذَا مَرَرْتُ وَتَسْلِمِي بِإِضْمَارِي (2)

وتسمو صور العشق حين يتشاكى العباس وحبيته عند اللقاء ، يقول :

إِذَا التَّقِينَا شَكُونًا مَا نِكَاتِمُهُ فِي عَفَّةٍ وَحَدِيثٍ مِنْ هُنَا وَهُنَا [البسيط]

لَوْ تَسْمَعُ الطَّيْرُ مَا نَشْكُو عَكَفَنَ بِنَا كَمَا عَكَفَنَ بِدَاوِدَ الَّذِي فَتِنَا

فَمَا تَتَوَلَّى لَنَا أَشْيَاءَ نُحَدِّثُهَا تَلْتَوْنَ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعَدْنَا سُنُنًا (3)

وطبيعي أن يتعدّد اللقاء بين العاشقين ، وأن تتكرّر المناجاة ، وأن تطول المشاكاة ، فيعمد

العبّاس إلى إعلانها وإفصاح عنها لكي يصير ومعشوقته أحداثثة الزمان في كل مكان ، يقول :

قَلَّ لِلَّتِي وَصَفَتْ مَحَبَّتَهَا لِلْمَسْتَهَامِ بِذِكْرِهَا الصَّرْبِ [الكامل]

مَا قُلْتُ إِلَّا الْحَقَّ أَعْرِفُهُ أَجْدُ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِي

قَلْبِي وَقَلْبُكَ بَدْعَةٌ خُلِقَا يَتَجَانَبَانِ بِصَادِقِ الْحُبِّ

يَتَهَادِيَانِ هَوَى سَيْتَرَكُؤُنِ أَحَدُوثَةٌ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ (4)

(1) _ ديوانه، ص 223_224.

(2) _ نفسه، ص 223.

(3) _ نفسه، ص 353.

(4) _ نفسه ، ص 95 .

وتبعاً لهذه المعاني التي قصدَ إليها العباس ، بل هذه المبادئ التي سنّها والقيم التي بشرَ بها، نراه يخاطب الحبّ وكأنّه إنسان يعقل ، فيجيبه الحبّ بأنّه سيّد العشاق ورأس المحبّين ، ويدعو عليه ألاّ يشفى من حبّه ، يقول :

كتبَ الحبُّ في جبيني كتاباً بيّناً كالكتابِ في القرطاسِ [الخفيف]

أنت في الحبِّ رأسُ كلِّ مُحبِّ لا شفاكَ الإله ممّا تقاسي (1)

(1) _ ديوانه ، ص 233 .

نَفْسِيَّةُ الْمَرَأَةِ

ومن صور العشق التي يعرضها العباس بن الأحنف وقفاته عند جوانب من نفسية المرأة المعشوقة في بعض حالاتها ، يقول :

ألا ليت ذات الخال تلقى في الهوى عشيرَ الذي ألقى فليتخَّ الشعْبُ (1) [الطويل]
 إذا رَضِيَتْ لم يَهْنِي ذلك الرِّضَا لِعِلْمِي به أن سوف يَتَّبِعُهُ العَتْبُ (2)
 وأبكي إذا ما أذنبت خوفَ صَدِّهِ . وأسألها مرضاتها وله . الذَّنْبُ
 ولو أن لي تسعينَ قلبًا تشاغلَتْ جميعاً فلم يفرغْ إلى غيره . قلبُ
 ولم أرَ مَنْ لا يعرفُ الحبَّ غيرها ولم أرَ مثلي حشوْ أثوابه الحبِّ
 أما لِكتابي من جواب يسرني ولا لرسولي منك لهنَّ ولا قُرْبُ
 وصالئُكم صرَّمْ وحُبُّكم قَلَى وعطفُكم صدُّ وسلمُكم حربُ (3)
 وأنتم بحمد الله فيكم فظاظَةٌ فكلُّ ذلولٍ في جوانبكم صَعْبُ (4)
 وإذا زرتُكم قلتُم نزوعٌ وإن أدع زيارتُكم يوماً يكن منكم عتْبُ
 فهجري لكم عتْبٌ ووصلِي لكم أدَى فلا هجرُكم هجرٌ ولا حبُّكم حبُّ
 ترى الرَّجُلَ تسعى بي إلى من أحبه وما الرَّجُلُ إلا حيثُ يسعى بها القلبُ (5)

في ثنايا شعر العباس تبرز صورة العباس الرجل الناضج الذي يخاطب معشوقته الطفلة اللاهية وحديث العشق الذي لا يفهمه سواه ، فهي مشغولة بلعبها ولهوا ، فأنشأ يقول :

يا لُعْبُ ! لو كنت تفهمين لِحَدِّ تُتَكِّ ما كان هيحَّ الغَضْبِ (6) [المنسرح]
 إنَّ النَّبِيَّ أرسلنك شافِعَةً تسيءُ ظنًّا وتؤبِّلُ الكَذِبِ
 واهًا لهذا الرسولِ لو بَلَّغَ ال تَسْلِمِ أو كان يحملُ الكُتْبِ
 ببتُّ ضجيعاً له . فواعجَبُ من كان قبلي يُضاجعُ اللَّعْبِ
 عليَّ لك من لعبةٍ مُشَنَّفَةٍ قد سُمَّيتِ باسمِ حَبَّتِي لُعْبِ (7)

(1) _ في رواية أخرى في الأغانى " فيلتئم الحب " مكان " فيلتئم الشعب " . عشير: جزء من عشرة .

يلتئم: يلتحم . الشعب : الصدع .

(2) _ في رواية أخرى : " لصحة علمي أن سيبته " بدل " لعلمي به أن سوف يتبعه " .

(3) _ ديوانه ، ص 60 _ 61 .

(4) _ الفظاظَة : الغلظة وسوء الخلق وخشونة الكلام ، مادة فظ ، لسان العرب .

(5) _ ديوانه ، ص 61 .

(6) _ في رواية أخرى : " لحديتك " بدل " لحدتتك " . لُعب " اسم امرأة وهي رسول صاحبه إليه .

(7) _ ديوانه ، ص 66_67 .

نلاحظ أنّ هذه المحبوبة اللاهية بعيدة عن إدراك سرّ نفسيّة عاشقها :

تتأمين لا تدرين ما ليلُ ذي هوى وما يفعلُ التّسهيّدُ بالهائمِ الصّبِّ (1) [الطويل]
وجاهلةً بالحبِّ لم تدرِ طعمَهُ وقد تركتني أعلمُ النَّاسِ بالحبِّ (2)

وهذا يكلفُ العاشق النَّصب والغماء ، وكأنّه يحيا في وادٍ غير ذي زرع بينما فوز تلهو وتلعب ، يقول :

ارضِ _ بنفسي أنتِ _ عني فقد قتلّنتني بالصدِّ واللّعبِ (3) [السريع]
والعبّاس يحفظ غيبة محبوبته في حالي الغضب والرّضى حيث ، يقول :
فؤادي وعيني حافظان لغيبتها على كل حالٍ من رضاء ومن عتب (4) [الطويل]

وهو يبذل قصارى وفائه ليبقى عليها ، بإرضائها في مغيبتها قبل محضرها ، يقول :

أحاولُ ما يُرضيك غير مجادلٍ على كل حالٍ من مغيبٍ ومشهدٍ [الطويل]
فإن جاء مَنّي بعضُ ما تكرهينه فغن خطأً والله لا عن تعمّدٍ (5)

والعبّاس يدرك سر النفسية المتقلّبة الملول وعليه ألا يتقلب معها أو يميل ، حيث مالت محبوبته من الصدِّ والهجر ، يقول :

أقولُ لما م لاني جفوةً وهوى يا من كلفتُ به للشّرم والنّكدِ [البسيط]
أشكو هواك ولا أبغي سواك جرّعتني عُصصَ الأحزان والكمدِ! (6)

ولكنّ العبّاس كان يسأم ملل فوز وتقلّبها ، فينأى قليلاً بنفسه علّها تعود إلى الجادة ، ولكنها كانت تجد علةً لصدّها وعتبها ، فتعود لتتهمه بما في نفسها من تقلّب وملل. والعاشق الصادق لا يتسرّب الملل إلى نفسه وخاصّة إذا كان منبئ العبّاس ويؤكد ذلك ويحلف عليه. فيقول :

فوزُ والله ما ملّلتُ ولا كُذتُ لقوم سواكُم بالمُصافي [الخفيف]
أيها الرّاقدون حولي هنيئاً إنّ جنبي عن مضجعي متجافي (7)

(1) _ في رواية أخرى: "ما تدرين" مكان "لاتدرين". التّسهيّد: الأرق. الصّب: العاشق .

(2) _ ديوانه، ص 67_68 .

(3) _ نفسه، ص 69 .

(4) _ نفسه ، نفس الصفحة .

(5) _ نفسه ، ص 165 .

(6) _ نفسه ، ص 155 .

(7) _ نفسه ، ص 260 .

محبوبة العباس منقلبة لا تثبت ولا تستقر، وما أسرع تقلب الملول ، عندها يكون على العاشق أن يلهث وراء المعشوقة التي تتحكم بها نفسية غريبة ، يقول :

أبكي الذين أذاقوني مودتَهُمْ حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا [البسيط]
واستنهضوني فلما قمتُ منتصباً بثقل ما حملوا من ودّهم فعدوا (1)

وهذا نذير شؤم بالنهاية المحتممة ، وخلف الوعد ، والهجر والصدّ ، يؤذن بالخطب الفادح ، يقول :

جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم قد كنتُ أحسبهم يوفون إن عهدوا (2) [البسيط]

وهنا تتضح بصيرة العباس على الحقيقة التي كان يماطل فيها ، وكان إن راجع حسابات أيامه مع فوز، فإذا هي تشير إلى معالم واضحة تؤكد خيانتها . وخيانة المحبوبة عاشقها تسمّ حياتها وتحيله إلى ثورة شك لا نهاية لها ، ولا يعود بعدها يأمن امرأة قطّ ، فالقلب بعدها يحترق ولا يقوى على حبّ جديد آخر، يقو

ليس الحبيبُ على ما كنتَ تعهدهُ قد غيرَ الدهرُ ذاكَ الحبَّ ألوانا [البسيط]
فلن تزل عليه العينُ باكيةً ولن يعودَ إلى ما كانَ ما كانا (3)

(1) _ ديوانه ، ص 142.

(2) _ نفسه، نفس الصفحة .

(3) _ نفسه، ص305.

حديث العيون :

لغة العيون معروفة عند العشاق . ولها أسلوب خطاب لا يفهمه إلاّ العاشقان المتواجهان . الرضى والغضب ، السخط والعتب ، الإفصاح والكتمان إلى غير ذلك مما دُرّب عليه العشاق ومارسه المحبّون ، بحيث يتحدّثون صمناً ويفهمون حيث لا يفهم غيرهم من الحاضرين . يقول العباس :

تُحدِّثُ عَنَّا فِي الْوَجْهِ عِيُونُنَا وَنَحْنُ سَلْتُوْتُ وَالْهُوَى يَتَكَلَّمُ [الطويل]

وَنَغْضَبُ أحياناً وَنَرْضَى بِطَرْفِنا وَذَلِكَ فِيمَا بَيْنَنَا لَيْسَ يُعْلَمُ

إِذَا مَا اتَّقَيْنَا رَمَقَةً مِنْ مُبْلَغٍ فَأَعَيْنُنَا عَنَّا تُجِيبُ وَتَفَهَمُ

وَإِنْ عَرَّضَ الْوَاشِي صَفْحَنَا تَكَرُّمًا وَذُو الْوَدِّ عَنِ الْقَوْلِ الْعِدَا يَتَكْرَمُ (1)

ويعبر عن حديث العيون في قول أقرب إلى تشخيص حال المحبّين منه إلى حديث المحبّين ، يقول:

يَدُلُّ عَلَى مَا بِالْمَحَبِّ مِنَ الْهُوَى تَقَلُّبُ عَيْنِهِ إِلَى شَخْصٍ مِنْ يَهُوَى [الطويل]

وَإِنْ أَضْمَرَ الْحَبَّ الَّذِي فِي فُؤَادِهِ فَإِنَّ الَّذِي فِي الْعَيْنِ وَالْوَجْهَ لَا يَخْفَى (2)

ويتحدّث ابن حزم عن علامات الحب وآثاره الدالة عليه : "وهذه العلامات لا تخطئ صاحبها، وللحبّ علامات يفقوها الفطن ويهتدي إليها الذكيّ . فأولها إيمان النظر ، والعين باب النّفس الشّارع وهي المنقّبة عن سرائرها والمُعريّة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يظرف ، ينتقل بتنقل المحبوب ، وينزوي بانزوائه ، يميل حيث مال كالحرباء مع الشمس" (3)

وقد عالج ابن الأحنف هذه العلامات بقوله :

وَقَفَّتْ بِهَا لَا أُسْتطِيعُ إِشْرَارَةَ وَلَا نَظْرًا وَالطَّرْفُ لَيْسَ بِصَابِرٍ [الطويل]

فَمَا طَرَفْتُ عَيْنَايَ لَمَّا تَعَرَّضْتُ لِشَيْءٍ سِوَى إِيمَانِهَا بِالْمَحَاجِرِ

تَوَاقَفَ مَعْشُوقَيْنِ ثُمَّ تَنَاطَرَا فَمَا مَلَكَا فَيْضَ الدَّمُوعِ الْبُودَرِ (4)

(1) _ ديوانه، ص323.

(2) _ نفسه، ص42.

(3) _ ابن حزم، طوق الحمامة، ص11، 12.

(4) _ ديوانه، ص192.

أما ما يصيب العاشق في حضرة المحبوب فيقول فيه العباس :
هل تذكرين فدتك النفس مجلسنا يوم اللقاء فلم أنطق من الحصر؟ (1) [البسيط]

لا أرفع الطرف حولي حين أرفعه بقيا عليك، وكل الحزم في الخذر
قالت: فعدت فلم تنظر فقلت لها: شغلت قلبي فلم أقدر على النظر

غطى هواك على قلبي فذلّ هدهد (2) والقلب أعظم سلطاناً من البصر (3)

وللعيون لغة لا يفهما غير العشاق ، وصمت هذه العيون أبلغ من كل كلام ، يقول العباس :

وأقسم لو أبصرتنا حين نلتقي ونحن سلوت خلتنا نتكلم [الطويل]

ترى أعيننا تبدي سرائر أنفسى مرضى ودمعاً بعد ذلك يسجم (4)

فلصمت لغة العشق سواء كان صمت العيون أم صمت اللسان ، أما إذا تحدّث العاشق " فإنّه لا يكاد يُقبل على سوى محبوبة ولو تعمّد غير ذلك ، وأن التكلف ليسبب لمن يرمقه فيه، والإنصات لحديثه إذا حدّث ، واستغراب كل ما يأتي به وكأنته عين المحال ، وخرق العادات. وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جا ر ، واتباعه كيف سلك ، وأيّ وجه من وجوه القول تناول".(5)

ويقول العباس أنّ النظر هو السبب في انكشاف أمره

أقام قيامتي نظري فمن يعدي على بصري؟ [مجزوء الوافر]

تعرض لي الهوى غراً فشيبيني على صغري

وكان هواك لي قدراً فكيف أفر من قدرتي (6)

إنّ نظرة محبوبة العباس قد سلبت فؤاده وتركته مريضاً ، يقول:

أيا لك نظرة أودت بقلبي وغادر سهمها جسمي جريحا [الوافي]

فليت أميرتي جادت بأخرى فكانت بعض ما ينكا القروحا

فإما أن يكون بها شفائي وإما أن أموت فأستريح (7)

(1) _ الحصر: العي في الكلام.

(2) _ دلّه: حيرة أو سها قلبه من العشق.

(3) _ ديوانه ، ص185.

(4) _ نفسه، ص318.

(5) _ ابن حزم، طوق الحمامة، ص 11_12.

(6) _ ديوانه، ص 224.

(7) _ نفسه، ص 128_129.

وللعبّاس أبياتٌ جميلة في حديث بين القلب والعين ، يقول :

اختصرم العينان والقلبُ قالاً جميعاً : ما لنا ذنبُ! [السريع]

فقلتُ : نفسي ذهبَتْ عَنوَةً بينكما هذا وذا لَعْبُ (1)

فقال قلبي : مُقلتي أَبصرتُ لا ذَنْبَ لي أَيها الصَّبُّ

فقلتُ للعينِ : سَمِعْتَ الَّذِي يحكيه عن ناظِرِكَ القلبُ؟

فاستعبرتُ(2) عند مقالِي له١. وكان من خجلتها السُّكْبُ (3)

إنَّ ما تسوقه العيون وما تتحدّث به، ربّما يكون في بعض الأوقات مرحلة الآلام وطريق

العذاب، يقول العبّاس :

يا نظرةً كانت عليك بليّةً إنّي أخالك بعدها لا تسلّم (4) [الكامل]

لم يسلم العبّاس ، ولن يسلم ، وقد كان رَضِيَ البال قبل حبّه ؛ ولكن :

نَظَرْتُ وليس بي بأسٌ إليكم فسأقت نظرتي سَقَمًا دخيلا [الوافر]

فأوردني حياضَ الموت طَرْفي وكان له على قتلي دليلا

فإن يجعل لي الرَّحْمَنُ يومًا إليك بِقُدْرَةٍ منه _ سبيلًا

فقد سلّمْتُ من المكروه نفسي وإلا لم أعشْ إلا قلبيلا (5)

وكان العبّاس سليمًا معافى، فلما أبصرها أوصله نظره إلى العلل الدّخيلة، وأوصلته عيناه إلى

الموت

(1) _ عَنوَةً: أخذ الشيء قهراً وقسراً.

(2) _ استعبرت: ذرفت العبرات ، أي الدموع. السُّكْبُ: تهطل الدمع.

(3) _ ديوانه، ص 109.

(4) _ نفسه، ص 318.

(5) _ نفسه، ص 303.

والحديث عن العيون والنظر والدموع يطول ، فديوان العباس يزخر بالأبيات المعبرة الجميلة التي أبدع في وصف ما يعانیه العاشق من لوعة ، وفراق ، وشوق ، وحنين ، وبكاء ، وتمنّيات بالوصل واللقاء.

وأختم الحديث عن حديث العيون بهذه الأبيات :

إذا لمتُ عينيّ اللّتين أضرتُ بجسمي فيكم قالت لي : ثم القلب [الطويل]
فأن لمتُ قلبي قال : عينك هاجتَا عليك الذي تلقى ولي تجعلُ الذنبا؟
وقالت له العينان : أنت عشفتُه! فقال : نعم ، أورتتماني بها عجبها
فقالت له العينان : فاكفُف عن التي من البخل ما تسقيك من ريقها عذبا(1)
فقال فوادي عنك : لو ترك القطا(2) لنام وما بات القطا يخرقُ السُهبا(3)

فالشاعر في حيرة من أمره ، إن مال إلى قلبه يلومه على ما يلقي ، ردّ قلبه الوزر إلى عينيه اللّتين أثارتا مواجد العباس ، فكيف يحمل القلب ما جنتُهُ العينان؟
والحقيقة أنّ عين الشاعر وقلبه معاً هما اللذان استشاراه إلى حبّها. ولو لم يفعل ذلك لما بات طريح الهوى . ولم يغلقها، فلا يريم عنها .

(1) _ ما تسقيك من ريقها عذبا : كناية عن امتزاج المحبوبة عن إباحتها شفيتها للحبيب بقبليهما .

(2) _ القطا : طائر بحجم الحمام . السُهب : الفلوات الواسعة.

(3) _ ديوانه ، ص90_91.

المبحث الرابع : * صورة المرأة المعنوية :

فتاة قصرية مترفة منعمة .

شعر العباس العاشق يرسم للمعشوقة صورة بارزة واضحة ، أصبحت حكاية كل زمان ومكان ، ومعشوقته اسمها الرمز " فوز " هكذا أراد لها عاشقها . وأول ملامح صورة المحبوبة وحياتها ، نتعرف عليه من خلال شعره ، هو : مكان إقامتها .

تقع دار فوز شرقي شط دجلة ، وبالتحديد شرقي " عسكر المهدي " قرب دار المعلى ، يقول العباس :

أيا ساكني شرقي دجلة كلُّكم (1) إلى النَّفس من أَجْلِ الحبيبِ حبيبُ (2) [الطويل]

وعلى وجه التَّحديد قرب دار الخلافة المعظمة ، التي هي دار المعلى ، فيقول :

إنَّ بالشَّطِّ نحو دارِ المعلى لَعزلاً إلى القلوبِ حبيباً [الخفيف]

منزلٌ أشرقت بساكنه الأرضُ وأشقتُ به العيونُ القلوباً(3)

وتقع كذلك كما يقول :

ألا إنما أفنى الدموعَ تَلْفُتي إلى الجانبِ الشرقيِّ من عسكرِ المهدي(4) [الطويل]

ويذكر ابن الأحنف أن فوزاً كانت جارة لأهله ، يقول :

كأن لم تكن فوزاً لأهلكِ جارة بأكنافِ " شطِّ " أو بمذنبِ " سيبِ " (5) [الطويل]

ويقول :

لنا جارةٌ بالمصرِ تُضحى كأنَّها مجاورةٌ أكنافِ " جيحان " و " الدِّربا " (6) [الطويل]

ويؤكد ابن الأحنف هذا الجوار ، فيقول :

ما أقدرَ اللهَ أنْ يُدنيَ على شَحَطِ جيرانِ " دجلة " من جيرانِ " جيحاناً " (7) [البسيط]

(1) _ في رواية أخرى : " أيا ساكني أكناف دجلة " و " فيا ساكني أكناف طيبة " محلّ " أيا ساكني شرقي دجلة " وفي رواية " القلب " محلّ " النَّفس " .

(2) _ ديوانه ، ص 72 .

(3) _ نفسه ، ص 94 .

(4) _ نفسه ، ص 143 .

(5) _ نفسه ، ص 47 .

(6) _ نفسه ، ص 51 .

(7) _ نفسه ، ص 363 .

فهل يعتبر ابن الأحنف فوزاً جارته داراً أو بلدًا ؟ هي في شرقي دجلة ، وهو في أرض جيحان التي يحنّ إليها ويعتبرها بلده ، الواضح أنّه عرفها في بغداد ، وشعره يرسم لهذا التعارف صورة واضحة .

شعر العباس يدلّ على أنّه عرفها عن طريق الوصف ، وإذا كان في شعره ما يدلّ على أنّهما لعبا طفلين ، وقد يكون ذلك قبل أن تحتجب عنه عند بلوغها طور الصبا . فبات الوصف الوسيلة إليها التي تعيد إليه أيامها فتعلّقها قلبه من خلال صفاتها ثم رآها فكانت تلك النظرة بداية الآلام . يقول :

أوقع بي الحبّ قولٌ واصفةٌ يا ليتها لم تقلّ ولم تصفِ (1) [المنسرح]

ومن خلال هذه الصفات تعلّق بها فقال :

يا من تعلّقهُ قلبي ولم يرهُ إنّي دعاني إليك الحينّ والقدرُ (2) [البسيط]

وبعد الوصف لا بدّ للعاشق أن يرى ملامح المعشوقة ، فلمّا أن تتحقّق ملامح الصّورة التي

رسمها لها في قلبه أو تصدمه . ولكنّ فوزاً كانت فوق ما يشتهي ؛ ولكن عليه أن يعرف أولاً إن

كانت ستقبل حبه أم لا ؟ يقول :

أظنُّ سأبدي عند أولِ نظرةٍ إليها هواها في خفاءٍ وفي سترٍ [الطويل]

فإن رضيتُ كان الرضا سببَ الهوى وإن غضبتُ منه أحلتُ على السكرِ (3)

ويبدو أنّ فوزاً قد بادلته حباً بحبّ بل إنّها شجّعتهُ عليه وأغرّته حتى اطمأنت إليه ، فقال :

أبكي الدّينَ أذاقوني مودتَهُم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا (4) [البسيط]

واستنهضوني فلما قمتُ منتصباً بثقلٍ ما حملوا من ودّهم (5) قعدوا (6)

(1) _ ديوانه ، ص 261 .

(2) _ نفسه ، ص 181 .

(3) _ نفسه ، ص 224 .

(4) _ في رواية أخرى : " أشكو النّين " مكان " أبكي النّين " .

(5) _ وفي رواية أخرى : " حملوني في الهوى " بدل " حملوا من ودّهم " .

(6) _ ديوانه ، ص 142 .

فحين علقها العباس كان ناشئاً صغيراً ، وكانت هي كذلك حين شبيته قبل الأوان ، كما يدلّ شعره ، يقول :

وَيَا مَنْ تَعَلَّقْتُهُ نَاشِئًا فَشَبِّتُ وَمَا أَنْ (1) لِي أَنْ أَشْبِيَا (2) [المتقارب]

ويقول :

أَقَامَ قِيَامَتِي نَظْرِي فَمَنْ يُعْدي عَلَيَّ بِصِرِي [مجزوء الوافر]

تَعْرِضُ لِي الْهَوَى غِرًّا فَشَبِّبَنِي عَلَيَّ صِغْرِي (3)

وكان العاشقان يلعبان ويلهوان مثل أي تزيين ، فهو يصف هذا اللهو بعد أن مرّت بهما الأيام ، فيقول :

يَا فَوْزُ هَلْ لَكَ أَنْ تَعُودِي لِلَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنْذُ نَحْنُ صِغَارُ [الكامل]

هَلْ تَذَكِّرِينَ بَدَارِ بَكْرِ لَهْوِنَا؟ وَلَنَا بِذَلِكَ مَخَافَةٌ وَجِدَارُ

مَتَطَاعِمِينَ بِرِقِنَا فِي خَلْوَةٍ مِثْلَ الْفِرَاحِ تَرْفُهَا الْأَطْيَارُ

أَمْ تَذَكِّرِينَ لِذُلْجَتِي مَتَنَكَّرًا وَعَلَيَّ فَرَوَا عَاتِقٍ وَخِمَارُ

فَوَدِدْتُ أَنْ اللَّيْلَ دَامَ وَأَنَّهُ ذَهَبَ النَّهَارُ فَلَا يَكُونُ نَهَارُ (4)

وفي شعر العباس إشارات تزيد صورة فوز وضوحاً ، فيما يتعلّق بأصلها وأسرتها . ممّا يدلّ على أنّها عربيّة نازحة إلى العراق من بلد عربي آخر . يقول :

مَا كَانَ أَشَامَ مَنْزِلًا كُنَّا بِهِ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ وَالْعِدَا حُضَارُ [الكامل]

مَدَنِيَّةٌ أَمْسَى الْعِرَاقُ مَحَلَّهَا وَلَهَا "بِزوراءِ المَدِينَةِ" دَارُ

أَدْنَى قَرَابَتِنَا إِلَيْهَا أَنَّنَا شَخْصَانِ يَجْمَعُنَا إِلَيْهِ "تَزَارُ" (5)

ولفوز أخ تظهر صورته في شعر العباس وهو ثائر لقصة عشق العباس ، فيقول :

أَيَّامَ يَرْصِدُنِي أَخُوكَ بِسَيْفِهِ وَالسَّيْفُ يَمْنَعُنِي وَتَمَنُّعُهُ يَدِي (6) [الكامل]

(1) _ في رواية أخرى : " فَشَبِّتُ وَلَمْ يَأْنِ " بدل " فَشَبِّتُ وَمَا أَنْ " .

(2) _ ديوانه ، ص 50 .

(3) _ نفسه ، ص 224 .

(4) _ نفسه ، ص 183 .

(5) _ نفسه ، ص 182 .

(6) _ نفسه ، ص 148 .

ويقول أيضاً في عمّها النَّائر ثورة أخيها :

أنا وعمك مثل المهر يمنعه من قوته مريضُ المستأيدِ الضّاري (1) [البسيط]

لو كنت يا عمّها حرّان (2) سرّك أن تحيا بإظماءٍ إيرادٍ وإصدارٍ (3)

ويقول في أهلها ، وهم غير راضين عن تلك العلاقة :

وإني أرى أهلي جميعاً وأهلها يسرّهم لو بان من حبّلها حبلي (4) [الطويل]

ويقول :

يا فوز أهلك لاموني فقلت لهم أدوا فؤادي أدعكم غير مزجور [البسيط]

يا أهل فوز أما لي عندكم فرج ؟ ويلي ولا راحة من طول تعزيري

يا أهل فوز أدفوني بين دوركم نفسي الفداء لتلك الدور من دور (5)

فوز إذن من علقها قلب العباس ، وهام بها ، وعاش لحبّها ومات فيه وهو يقول :

وما عرضت لي نظرة مذ عرفتها فأنظر إلا متت حيث (6) أنظر (7) [الطويل]

ومضت معه فوز في التجربة العشقيّة ، وقد اكتنفها آلام الحبّ وعذابه ، وإن كان يبرق من خلالها لحظات سعادة سرعان ما تزول وتتلشى . لكنّ العباس العاشق ، والفنان المترف كان يلون عشقة بألوان عصريّة زاهية متجدّدة تجدد العصور . وهو يعلم بحسّ العاشق المرهف ما للتهادي من أثر في ربط القلوب المتحابّة ، فصور في شعره هداياهم .

يبدو أن العباس كان يطلب من فوز هدايا معيّنة لتكون سلواه وعزاه ، فهو يقول لها :

فوزّ ماذا عليك أن تُؤنسيني بحقابٍ أو خاتمٍ أو وشاحٍ [الخفيف]

إن دخلتُ البستانَ أدكرني ريحُ ریح النَّسرينِ والنَّفاح (8)

(1) _ في رواية أخرى : " وعمرك " مكان " وعمك " . " ومرير " مكان " مريض " .

(2) _ حرّان : شديد العطش .

(3) _ ديوانه ، ص 177 .

(4) _ نفسه ، ص 286 .

(5) _ نفسه ، ص 180 .

(6) _ في رواية أخرى : " حين " مكان " حيث " .

(7) _ ديوانه ، ص 189 .

(8) _ نفسه ، ص 127 .

ويدلّ شعره على أنه كان يعطيها خاتمه لتعضّه ويلبسه بعدها تعويذة ، فيقول :
خاتم لي ما له أثرٌ فيه من عضّ الحبيبِ أثرٌ [المديد]
سطعت بالمسكِ دارتُهُ وأضاعت مثل ضوءِ قمرٍ
فهُوَ كالتعويذِ في عضدٍ صنّته كي لا يراه بشرٌ (1)

وهذه الحاجات رغم دقتها فهي تُدخل إلى قلب العاشق الأمل والحياة ، وقد كان العباس يطلب من معشوقته قبل سفرها أشياء تزوّده بعض ما فيه ريحها فيقول فيما يتبادلان :
وقد كنتُ لما آدنتني ببيئها ومرت بذاك البارحاتِ الأشائمِ [الطويل]
تزوّدتُ منها بعض ما فيه ريحها وزوّدتها والقلبُ حرانٌ هائمٌ
فلي عندها بردٌ تسكنُ قلبها به ولها عندي حقابٌ وخاتمٌ (2)

ولا بدّ أن تنتاب المعشوقة لحظات تحسّ فيها باللهفة العارمة إلى عاشقها ، حين يكون مخلصاً إخلاص ابن الأحنف ، عندها تنفّس في إرضائه فتختار من الهدايا المعبرة ما تحسّ أنها تسره وتُسعده يقول العباس في هدية من هداياهم :

إن فوزاً لما أتاها الجواري يتباكيتني لما قد شجاني [الخفيف]
وتعطفنّها عليّ ويحلفن بن علي ما ذكرن بالآيمان
أرسلت باللبانِ قد مضغتُهُ فوق تفاحةٍ على ريحان (3)
وبمسواكها الذي اختاره اللد له لفيها من أطيب الأغصان
فكأني وجدتُ ريحاً من الفر دوسٍ فاحت من ريح ذاك اللبان
وكأنّ المسواك مسواك فوزٍ أخلص النبت في رياض الجنان
أي شيءٍ يا قومٍ أطيب في شيءٍ ع سقته من ريقها فسقاني (4)
ليت شعري هل لي إليها سبيلٌ فأراها في خلوه وتراني (5)

(1) _ ديوانه ، ص 199 .

(2) _ نفسه ، ص 321 .

(3) _ وفي رواية أخرى : " بين تفاحتين في ريحان " بدل " فوق تفاحةٍ على ريحان " .

(4) _ في رواية أخرى للصدر : أي شيء يكون أطيب من شيء .

(5) _ ديوانه ، ص 344 .

أما حين تغضب المعشوقة على عاشقها ، فإنها تُنزل به مَرَّ العقاب ، وعقاب فوز للعباس أتتها
رَدَّت عليه هديته ، فقال :

رَدَّت عليَّ هديَّةً لو أتتها بَعَثت إليَّ بمثلها لم أزدِ [الكامل]
وتقول : إنِّي قد تركتُ عَوائتي فاذهب لشأنك راشداً لم تُطردِ
قد كنتُ ألقى من أخي وعمومتي فيك الأذى بشتيمةٍ وتهدُّدِ
فاليومَ أقصرَ باطلاً وترجعتُ نفسي لحسنِ تصبُّري وتجلُّدي
فكأنما شقَّ الفؤادُ بمديَّةٍ قسَمينَ منه لغائرٍ ولمنجدِ (1)

الآلام كلها تنتاب قلب العاشق حين تُردَّ هديته ، لأنَّ المعشوقة تخشى على نفسها بسبب
الهدية . أما حين يردَّ العاشق هديةً معشوقته فإنَّ لذلك مبرراً قد يقبله المنطق ، يعود العاشق ويفسر
كلَّ شيء . فله أن يتشاعم ، أو يتفاعل ، ولكنه هنا متشائم ، يقول :

ولما وهبتم خاتماً فرددته لمعرفتي أن الخواتيم تقطع [الطويل]
فأهدي سواكاً مسَّ فاك فإنه يسكن ناراً في جوى القلب تلذعُ (2)

هدايا العشاق أعظم تعبير عما في قلوبهم ، ونوع الهدية يدلُّ أيضاً على نفسيّة العاشق
وعواطفه وإحساسه ، وما عرفناه في هدايا العباس وفوز هو الرقة والشاعرية العصرية ، فيبدو الخوف
والقلق من أدنى أمر يتعلّق بالهدية ، والعاشق يفسرها بمشاعره ، ويزنها بميزان قلبه ، يقول :

أهدى له أحبابه أترجةً فبكى وأشفقَ من عيافة زاجرِ [الكامل]
متطيراً لما أتته لأنها لوانٍ باطنها خلاف الظاهرِ (3)

(1) _ ديوانه ، ص 146 _ 147 .

(2) _ نفسه ، ص 252 .

(3) _ نفسه ، ص 194 .

وتبرز بوضوح من شعر العباس صورة فوز المترفة المنعمة وإلى جانبها صورة العاشق الفتان المتترف ، فهي إلى جانب كونها من ربّات الخدور والقصور فهي في سفر متواصل إلى الحجاز في مواسم كثيرة غير موسم الحجّ ، يكاد يكون هذا السفر أبرز ما يميّز صورتها في شعر عاشقها . فنحن لا نلبث أن نراها عائدة من سفر حتى تعود إليه من جديد ، وهي في سفرها المعشوقة المتلهفة إلى عاشقها ، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى صدها حين تعود من سفرها . يقول العباس :

أزین نساء العالمین أجیبي دعاء مشوقٍ بالعراقٍ غریبٍ [الطویل]
 سأحفظُ ما قد كان بيني وبينكم وأرعاكمُ في مشهدي ومغیبي
 وكنتمُ تزينون العراقَ فشانهُ ترحلکم عنه وذاك مُذیبي
 أقولُ وداري بالعراقِ ودارها حجازیةٌ في حرّةٍ وسُهوبِ
 سقى منزلاً بين العقیقِ وواقمِ (1) إلى كلِّ أطمٍ بالحجازِ ولوبِ (2)

وتعود فوز ويعود معها صرمها وعتبها فيقول العاشق :

ألم تعلمي يا فوزُ أتي معذبٌ بحبِّكم والحینُ للمرءِ یُجلبُ [الطویل]
 وقد كنتُ أبیکم بیثربَ مرّةً وكانت منی نفسي من الأرضِ یثربُ
 أوْمَلُکم حتى إذا ما رجعتُم أتاني صدودٌ منکم وتجنُّبُ (3)

وكثيراً ما كانت فوز تكتم خبر سفرها عن العباس ، وهذا من أعظم ما يؤلم العاشق ويلهب ناره ، يقول ابن الأحنف :

همُ كتموني سرهم حين أزمعوا وقالوا اتعدنا للرواح وبكروا (4) [الطویل]
 فوا حرنی أن كان آخرَ عهدنا بهم ذلك اليوم الذي أتذكرُ
 وإني لأهوى أن أرى بعضَ أهلها وإن كان منهم شائئٌ يتذمرُ (5)

(1) _ في رواية أخرى : " وراقم " بدل " وواقم " . سقى : دعاء طيب . العقيق : واد بالقرب من المدينة . واقم : مكان في ناحية

المدينة . الأطم : الحصن . " لوب " : جمع لوبة وهي الحرّة من الأرض .

(2) - ديوانه ، ص 45_47 .

(3) _ نفسه ، ص 52 .

(4) _ في رواية أخرى وردت في الأغاني : " سيرهم " بدل " سرهم " .

(5) _ ديوانه ، ص 190 .

ويعد أن تسافر فوز يتلهّف على تسقط أخبارها . من هنا وهناك ، ويسأل المسافرين إلى الحجاز والأييين منها . وكلّ هذا وهو لا يملّ الحديث ، يقول :

خَبَّرُونِي عَنِ الْحِجَازِ فَإِنِّي لَا أَرَانِي أَمَلُّ ذِكْرَ الْحِجَازِ [الخفيف]
وانعتوا لي ما بين بطنان فالمسجد جد ما حوله وما يُوازي
إنّ في بعض ما هناك لشخصاً كان يشفي الموعودَ بالإنجاز
تلك فوزٌ ففتح الله شيخاً حال بيني وبينها بالمخازي(1)
فبلائي مذ فارقتني طويلٌ وبناتُ الفؤاد ذات اهتزاز(2)
ودموعي قد أخلقت ماءً وجهي وفؤادي كالراكب المُجتاز
برزت في خرائد خفرياتٍ مُثقلات الأكفال والأعجاز
وتمنت لقاى فوزٌ ودوني فلوات تحارُ فيها الجوازي(3)
فتباكين ثم قلن وأخلصن ن لها في الدعاء غير هوازي
جمع الله بين فوزٍ وعباً س فعاشا في غبطة واعتزاز(4)

ويصله أحياناً خبر سفرها فيعزم على ملاقاتها لوداعها ، فيقول :

إنّ المليحة أدنت بترحلٍ فاقصد سبيل لقائها ووداعها [الكامل]
أنست من قلبي الغداة تشنتنا فبكيث قبل تشنت استجماعها(5)
إنّ التي سكنت فؤادك كاعب حوراء تستر وجهها بذراعها(6)
وكأنتها جنيةً وكأتما هذل الكروم تلوح تحت قناعها(7)

(1) _ في رواية أخرى : " شخصاً " بدل " شيخاً " .

(2) _ في رواية أخرى : " إذا " بدل " مذ " .

(3) _ الجوازي : الوحش أو الإبل .

(4) _ ديوانه ، ص 225 _ 226 .

(5) _ في رواية أخرى " أنسيت " بدل " أنست " . استجماعها : اجتماع الشمل .

(6) _ في رواية أخرى : " سلبت " مكان " سكنت " .

(7) _ ديوانه ، ص 248 .

وإذا سافرت فوز ولم تودّعه فإنّه يعتب عليها عتب المشتاق الموله ، فيقول :

عفا الله عمّن لم يَزُرني مُودِّعًا فقد قَرِحَت منه لذاك مدامِغُهُ(1) [الطويل]

عُزَلَّ رعى نَبْتِ العِراقِ وَطَرَفُهُ رِحابٌ فَأُمِسَّت في الحِجازِ مرابعُهُ

وكان أميرًا لا يُشْفَعُ شافِعًا ولم يرضَ مَنّي رُشوةً فَأُصانِعُهُ

طَرِبْتُ إلى أهل الحِجازِ وقد بدا سُهَيْلُ اليمانيِ واسْتَهَلَّتِ مطالِعُهُ

أَتاني كِتابٌ من خَلوبٍ وصدْرُهُ عليك سلامٌ ما حلا البرقُ لَامِغُهُ

شكا ما به من شَوْقِهِ في كِتابِهِ وَأَكْثَرُ منه ما تُجِنُّ أَصالِعُهُ

فَظَلَّ يُناجيني الكِتابُ كأنما تُحَرِّكُ لي حرفَ الكِتابِ أَصابِعُهُ

فَبِتُّ كأنّي مُمَسِّكٌ رأسِ حَيَّةٍ يخادِعُها عن نَفْسِهِ وتخادِعُهُ(2)

وتتأخّر فوز في الحِجاز ، وتطول فيها إقامتها ، فيتعاطم شوق العباس ولوعته وتلهفه ، ويقول :

يا قومُ إلى الحِجازِ تَشوْقِي وبِكَيْتٍ من مَضَضِ الهِموِمِ الطُّرُقِ [الكامل]

إنّي أحاذِرُ أن أموتَ بِعُصَّةٍ أخلِقُ بِذلك يا ابنَ أحنَفِ أخلِقُ

من حبِّ جاريةٍ لهجتُ بِذِكْرِها خِوفَ الفِراقِ فَصِرْتُ كالمِتلَعِ

أزَفَ المِسيرُ لأهلِها فَتَفَرَّقوا لو كنتُ أملكُ ذلكَ لم نَتَفَرَّقِ

وكأنا لم نَجتمعَ في بِلدَةٍ وكأنا في خِلوَةٍ لم نَلتَقِ

وبقيتُ أسْبِخُ في بحورِ هواهُمَ ما أحسنَ الحِالاتِ إن لم نَعْرِقِ

يا ليتني لم أهوِّكُم بل لیتکم لم تخرجوا بل لیتني لم أُخلِقِ(3)

لو أن أعضاءي تشكى ما بها لشكا إليكم كلُّ عُضْوٍ ما لقي

فَعَدَدَنَ منه ما يَضِفنَ بِعَدِّهِ وَلَكانَ أَعْظَمَ منه أيضًا ما بقي

دَع عَنكَ من شَحَطَتِ نَواهُ ولا تَكن تبغي من الأشياءِ ما لم تُزَرِّقِ(4)

إنَّ العِواذِلَ قد أَشَعَنَ حَدِيثنا فإلناسُ بينَ مُكذِّبٍ ومُصدِّقٍ

يا من يُكذِّبُ في الهوى أهلَ الهوى اذهبِ إليكَ فَأنتَ غيرُ مُوفِّقِ(5)

(1) _ في رواية أخرى : " لم يزر متودِّعًا " مكان " لم يَزُرني مُودِّعًا " .

(2) _ ديوانه ، ص 248_249 .

(3) _ في رواية أخرى : " تخرجوا " بدل " تخرجوا " .

(4) _ في رواية أخرى للعجز : " تبغي من الإنسان ما لم يبرق " .

(5) _ ديوانه ، ص 268_269 .

وتبدو صورة فوز في عتبها وصرمها أو هجرها وقسوتها في حبها لابن الأحنف ، كما تبدو لها صورة أخرى حين ترق له ، ويصل ضعفها أمامه إلى درجة " البكاء " وليس أعظم من الفراق ما يوجب البكاء والحزن ، يقول في سفر لها وقد هيجه رسومها :

يا "أبا الفضل" هيجتك الرسوم بعد فوز كأنهن الوشوم [الخفيف]

إنَّ وجدي بفقدِ فوزٍ وإشفا
وجدُ يعقوبَ بعدِ يوسفَ إذ بـ
وسروري بأن أراها كما سـ
أصبح القلبُ بالعراقِ وأمسى
أصبحتَ بالحجازِ فوزٌ وعباً
إنَّ فيما بين البقيعِ وبطحا
لستُ أنسى بكاءها يوم ساروا
ساق طزفي إلى فوادي البلايا
كتب الحبُّ في فوادي كتاباً
حفظ الله معشراً فارقوني
ليت شعري أيرجعونَ إلينا
إن يكن ينفعُ البكاءُ عليهم
جمع الله بين فوزٍ وعباً
لا تطيقُ الجبالُ يا معشر الننا
هل لكم ان نقومَ نكي جميعاً

ولا ينسى العباس أن يبشّر الحجاز بقدم فوز إليها لأنها ستطيب بطيبتها ، وتكشف بنورها ظلماتها ، يقول :

بشّر "مِنِّي" بظلومٍ أن تحلَّ بها وبشّر البيت والأركان والحرما [البسيط]
ليُنزلنَ بها طيبٌ تطيبُ به تلك البقاع ونورٌ يكشفُ الظلما(4)

(1) _ ورد في أكثر من ديوان " للعباس بن الأحنف " في عجز البيت: " سرّ بمفدى اسحق إبراهيم " والمعروف لدى الجميع أن من افتدي بالكبش هو إسماعيل وليس اسحق .

(2) _ في رواية أخرى : " أم قصدهم أن " بدل " أم أنهم لن " .

(3) _ ديوانه ، ص 311 _ 312 .

(4) _ نفسه ، ص 331 .

عند هذه النقطة من سفر فوز الدائم المتواصل إلى الحجاز لا يبقى للشك مجال في الكشف عن شخصيتها وهي أنها حجازية من مدينه يثرب . وتنتهي إلى بني هاشم . وبعد هذه الرحلة من السفر والفرق والعذاب والبكاء ، يقول ابن الأحنف :

حُبُّ الحِجَازِيَّةِ أبلَى العِظَامِ والحبُّ لا يعلُقُ إلا الكِرامَ [السريع]

سَيِّدَتِي ! سَيِّدَتِي إِنَّهُ ليسَ لِمَا بالعاشقين اِكْتِنَامُ

سَيِّدَتِي ! سَيِّدَتِي إِنِّي أعجَزُ عن حملِ البِلايا العِظامِ

سَيِّدَتِي ! سَيِّدَتِي فاسْمَعِي دعوةَ صبِّ عاشقٍ مُسْتَهَامِ (1)

إنَّ هذا الاستعطاف الذي يكاد يذوب ابن الأحنف فيه نتيجة بين دائم ، لا يد له فيه ، ولا حيلة

للمعشوقة في منعه . ولا تكاد تستريح في سفر حتى تعود إليه ، فيقول :

أظاعنون فنبكي أم مقيمونا ؟ إنَّا لقي غفلةً عما تريدونا [البسيط]

أنكرت من وُدكم ما كنتُ أعرُفُهُ ما أنتم لي كما كنتم تكونونا !

لا سييئ عندكم يُعني ولا حسنٌ فالمُحسِنون سواءٌ والمُسيئون !

هل تُكثرون وقوفي عند داركمُ نصفَ النَّهارِ وأهلِ الدَّارِ هادونا (2)

نشكو الظَّماءَ وما نشكوه عن عطشِ لكنَّ لُغلةً قلبِ بات محزوننا (3)

لو كنتُ أشكو إلى قومٍ قتلتُ لهمُ نفساً ظلَّوا لِمَا أشكوه يبكونا

وأنتم أهلُ ودي قد شُغفتُ بكم تبلى عظامي وأنتم لا تُبالونا

كأنني والهوى في الأرض يطردني من قوم موسى الألى كانوا يتيهونا

وما مررتُ بقومٍ في مجالسهم إلا سمعتهمُ فينا يخوضونا (4)

وعلى بُعد فوز يسألها العباس عن العهد ويتساءل وكله توجع لهذا البين ، فيقول :

أأبدي سرائرك الظاعنونا ؟ أقرؤا عيوناً وأبكوأ عيوناً [المتقارب]

ظلموم ! أيا من أحلَّ الفؤا د شوقاً وأجرى دموعي هتونا

ألا ليت شِعري على نأيكم أناسون للعهد أم ذاكرونا؟

فلا لوم إن ساء ظني بكم فكلُّ مُحِبِّ يسيءُ الظنونا (5)

(1) _ ديوانه ، ص 334 _ 335 .

(2) _ في رواية أخرى في الأغاني : هل تذكرين وقوفي عند بابكم نصف النَّهارِ وأهلِ الدار لاهونا .

(3) _ في رواية أخرى للعجز : " لكن نعلل قلباً بات محزوناً .

(4) _ ديوانه ، ص 336 _ 337 .

(5) _ نفسه ، ص 338 .

وتعود فوز، ويعود معها الهناء ، وتدبّ فيه الحياة وترجع إلى جسد العباس روحه وتشرق الدنيا في وجهه ، فيقول :

مرحباً بالأحبة القادمينا فلغمري لطلال ما أوحشونا [الخفيف]
 إنما أذكرُ الجوار إذا شطَّ وا ليخفى الهوى على العالمينا
 وإذا الدار مرةً جمعنا قلتُ : واحسرتنا على الظاعينا !
 والهوى ليس يعلمه إلا الله والناسُ يُكثرونُ الظنوناً (1)

لقد انضحت خفايا العباس وتكتمه لحبّ هذه الحجازية التي يخشى في حبها العادات العربية، والتقاليد ، والأعراف ، والأخ ، والعم . والعباس محقّ في هذا الكتمان . فهي الحبيبة الغريبة عن بلدها النازحة عنه ، وعليه أن يصونها ويحوطها بسياج العقّة والقداسة . وكلّما ازدادت فوز سفراً ازداد شوقاً ولهفة ولوعة ورقّة حسّ ، ولم يعد يدري من أمره شيئاً فيقول :

أفي المقيمين أنتم أم مع الظغن؟ أشكو إلى الله ما ألقى من الحزن ! [البسيط]
 أشكو تباعدهم إني أرى سفها (2) تخلفي بعدهم أبكي على الدمن ! (3)

لم تكن فوز تقضي العيد في العراق ، بل كانت تسافر فيه إلى الحجاز ، فليس للعاشق عيد ومحبوبته بعيدة ، يقول :

اليوم للناس عيدٌ يفرحون به وليس لي منه إلا الهم والحزن [البسيط]
 إذا تلفتُ اشتياً زادني كمدًا ألا يكون قريباً مني السكنُ
 فمن يكن قرّ عيناً أو رجا فرجًا ولذاً أو بات يأوي عينه الوسنُ
 فلستُ ذاك بحمد الله تمنغي منه ظلومٌ وحظّ عاقه الزمنُ (4)

وتزداد زيارات فوز إلى الحجاز ، وكلّما ازدادت قلت إقامتها في العراق ، وهذا يعني قتل العاشق الذي كان يهرب من نفسه ومن البلد الذي تتركه فوز حين تسافر ، يقول :

يا بعيد الدار موصو لأ بقلبي ولساني [مجزوء الرمل]
 ربّما باعدك الد هرُ وأدنتك الأمانى (5)

(1) _ ديوانه ، ص 352 .

(2) _ وفي رواية أخرى : " أسفا " محل " سفها " .

(3) _ ديوانه ، ص 357 .

(4) _ نفسه ، ص 358 .

(5) _ نفسه ، ص 365 .

يذوب العاشق ولا يعود ينفع معه دواء، وحين يصل حبه إلى نهايته ، يفقد الأمل في الحياة ،
ولا يبقى غير البكاء ، يقول :

يا قلب ما لك لا تناهى ! عن خلة شحطت نواها [مجزوء الكامل]

لَهْفِي وَيَا أَسْفَى عَلِي	هَا كَيْفَ لَا يُبْكِي هَوَاهَا
أَمْسِي بغيرِ بلادِها	مَا إِنْ أُرِيدُ بِهَا سِوَاهَا
لَهْفِي لِبُعْدِ فِرَاقِهَا	يَا لَيْتَ قَلْبِي قَدْ تَنَاهَى
هِيَهَاتَ! كَيْفَ؟ وَلَوْ يُقَا	لُ تَخَيَّرَنَّ لِمَا عَدَاهَا
كَانَتْ لَدَيْنَا وَالْحَبَا	لُ ضَعِيفَةٌ مِنْهَا قُوَاهَا
وَإِذَا خَضَعْتُ بِمَقْلَتِي	مُتَتَّبِعًا مِنْهَا رِضَاهَا
بِأَنْتَ فَلَيْتَ فِرَاقِهَا	إِذْ كَانَ مِنْ صَدْرِي مَحَاهَا
فَكَأَنْتِي نُو غُرْبَةٍ	بِمَفَازَةٍ مَلْحٍ حُسَاهَا
قَدْ جَفَّ رَيْقُ لِسَانِهِ	وَالنَّفْسُ يُجْهِدُهَا صَدَاهَا
عَطْشَانُ أَدْلَى دَلْوُهُ	خَوْفَ الْمَنِيَّةِ فِي دِلَاهَا
فَقَنَوَى يَمْدُ رِشَاءِهَا	وَالنَّفْسُ تَجْهَدُ مِنْ لُظَاهَا
حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَتْ	وِظْلٌ يَجْرُهَا انْحَلَّتْ عُرَاهَا
فَهَوَى وَخَرَّ بِإِثْرِهَا	مَتَلَمَّسًا مِنْهَا ثَرَاهَا
فَأَسْأَلَ فِيهَا نَفْسَهُ	وَالنَّفْسُ تَبْلُغُ مِنْتَاهَا (1)

وانتهت تجربة العشق عند ابن الأحنف ، وبقيت آثارها في نفسه أمد العمر، ومن خلال هذه
التجربة مواقف سفر كثيرة ، أو مواقف هروب ، يهرب فيها العاشق من نفسه حين تسافر فوز إلى
الحجاز ، عندها لا يستطيع البقاء في بغداد . بل يُكثِرُ من تركها ممّا يدلّ عليه شعره ، وهو في
سفر دائم وترحال لا ينقطع ، وقد كان يقضي الصّيف بعيداً عن بغداد ، لا هرباً من هجيرها ،
ولكن لأنّ المحبوبة بعيدة عنها ، يقول :

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى نَوُوبٌ إِلَى بَغْدَادٍ؟ إِنَّا مُسْتَبْطِنُونَ الْإِيَابَا [الخفيف]
مَنْ يَكُنْ صَائِفًا بِنَهْرِ أَبِي الْجُنْدِ دِ يَكُنْ صَيْفُهُ أَدَى وَعَذَابَا

(1) _ ديوانه ، ص 371 _ 372 .

ما تَعَرَّفْتُ لِلهَوَاجِرِ مَسًّا ما بِقَلْبِي أَشَدُّ مِنْهَا التَّهَابَا
 فَأَرَانِي إِذَا تَذَكَّرْتُ مِنْ خَدِّ فَتُّ خَلْفِي لَمْ أَمْلِكِ الْإِنْتِحَابَا (1)
 وكثيرًا ما كان الرّشيد يصطحبه معه في سفره إلى خراسان ، وكان يُلبّي هذا عن رضى ، لأنّ ذلك يبعده عن بغداد التي حَلَّتْ من فوز المعشوقة ، يقول :
 أسألُ اللهَ خيرَ هذا المَسِيرِ وإيابًا في غِبْطَةٍ وسُرورِ [الخفيف]
 أنا في عسكرٍ لِخَيْرِ إِمَامٍ زانُهُ رَبُّهُ بِخَيْرِ وزيرِ (2)
 وفي خروج آخر مع الرّشيد إلى خراسان ، يقول :
 قالوا: خراسانُ أَقْصَى ما يُرادُ بنا ثمَّ القُفُولُ فَقد جِئنا خراسانا! (3) [البسيط]
 متى يكونُ الَّذِي أرجو وآملُهُ ؟ أما الَّذِي كنتُ أخشاه فقد كانا !
 ما أقدَرَ اللهُ أن يُدْني عَلِيَّ شَحَطِ جيرانَ دجلةَ من جيرانِ جِئحانا !
 عينُ الزَّمانِ أصابَتْنا فلا نَظَرْتُ وغَدَبْتُ بفنونِ الهجرِ ألوانا
 ياليتَ من نتمنّى عند خَلوتنا إذا خلا خَلوةٌ يومًا تَمَنّانا! (4)

المفروض في الحبّ ، أن يمنح الأمان والاطمئنان والاستقرار ، أمّا إذا كان المعشوق لا يعطي هذا ، فماذا يصنع العاشق ؟ ليس في مقدوره أن يعيش أو يستقرّ بعيدًا عمّن يحبّ ، ومعشوقته كثيرة التّرحال إلى الحجاز . حيث كانت تقيم مع أهلها وذويها ، والعبّاس لا يرى الحياة في بلد تبعد عنه فوز ، يقول في هذا :

ما كانَ في الدَّورِ من أنْسٍ بغيرِكُمْ أيامَ منزلِكُمْ في جانبِ الدَّورِ [البسيط]
 وكلُّ مِصرٍ وإن كان الأنيسُ بِهِ ما لم تَحَلِّيهِ قَفَرٌ غيرُ معمورِ (5)
 وأصبحت حال العبّاس غربة وسقمًا ، وقد عاش يشكو غربته امتدادًا لشكوى الحبّ يقول :
 رجلٌ تطاولَ سَقْمُهُ في غُربَةٍ نَزَحَتْ بِهِ عن أهله الأسفارُ [الكامل]
 لا يستطيعُ من الضَّرورةِ حيلةً أمسى تُرَجِّمُ (6) دونه الأخبارُ (7)

(1) _ ديوانه ، ص 77_ 78.

(2) _ نفسه ، ص 221

(3) _ في رواية أخرى : قالوا خراسان أقصى ما نحاولُهُ ودون ذلك فقد جُزنا خراسانا .

(4) _ ديوانه ، ص 363 _ 364 .

(5) _ نفسه ، ص 216 .

(6) _ في رواية أخرى : " تترجّم " مكان " ترجّم " . وتترجّم : تكلم بالظنّ .

(7) _ ديوانه ، ص 183 .

ويبدو في شعر العاشق أنه لم يكن يترك منطقة دون أن يرحل إليها ، فقد زار دابق ، يقول :

طَرَفْتَنَا بِأَسْفَلِ الْمَرْجِ مِنْ دَا بِقٍ تُهْدِي لِي الْبَلَا أَنْوَاعًا (1) [الخفيف]

قَلْتُ :أَنِي اهْتَدَيْتِ حَتَّى تَخْطِي تِ إِلَيَّ الرُّكَّابَ وَالْهَجَا ؟

قالت :الشُّوقُ قَادَنِي فِي دُجَى اللَّيْلِ لِ أَجُوبِ الْقِيَانَ قَاعًا فِقَاعَا

كَيْفَ يَسْرِي مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى دَا بِقٍ مِنْ لَيْسَ يَسْتَقِلُّ ذِرَاعَا !

أَنْبَتَ اللَّهُ رَوْضَةَ الْحُبِّ فِي قَلْبِ بِي تَرُودُ الْهَمُومُ فِيهِ رِتَاعَا

مُخْرَجَاتِ رُؤُوسَهُنَّ إِلَى الْأَدِّ شَاءَ لِلْوَجْدِ يَطْلَعْنَ أَطْلَاعَا (2)

لقد هرب إلى دابق لينسى أو يتناسى ما هو فيه من همّ الفراق ، ولكنّ خياله العاشق يصورها له زائرة بخياله وكأنها واقع .

وتصل الحال بالعاشق إلى إحياء الوهم وتخيله واقعا يحياه ، وحين يخلو الشاعر إلى نفسه فإنه

يرحل على أجنحة خياله ووهمه ليصل إلى موطن المحبوبة إلى الحجاز حيث ، يقول :

يَا مِنْ أُصُورٍ تَمَثَّلًا لَهُ عَجَبًا إِذَا خَلَوْتُ بِهِ وَحْدِي أَنَا جِيهِ [البسيط]

يَا حَبْدًا مَوْطِنِي مَا دَامَ سَاكِنُهُ (3) فَالْقَلْبُ مِنِّي رَهِينٌ فِي نَوَاحِيهِ (4)

وليس للعبّاس غير إن يبكي ويشكو وليس من مجيب ، يقول :

أَعْيَانِي الشَّادُنُ الرَّيْبُ أَكْتُبُ أَشْكَوُ فَلَا يَجِيبُ (5) [مخلع البسيط]

وفوز لا يقرّ قرارها حتى تستمع إلى شكواه ، وهو الغريب في بلده ، لأنّ النفس فيه موزعة ،

وغريته في بلده أفسى من تركه له ، يقول :

بَكَى وَشَكَا لِعُزْبَتِيهِ الْغَرِيبُ وَطَالَ بِهِ عَلَى النَّأْيِ الْمَغِيبُ [الوافر]

وَمَا هَذَا بِأَعْجَبَ مِنْ خُرُوجِي وَتَرْكِي بِلَدَةٍ فِيهَا الْحَبِيبُ

تَهِيحُ (6) لِي الصَّبَابَةُ كُلُّ رِيحٍ وَيَهْدِي لِي نَسِيمَكُمُ الْجَنُوبُ (7)

(1) _ دابق : قرية قرب حلب .

(2) _ ديوانه ، ص 249 .

(3) _ في رواية أخرى : " يا حَبْدًا مَوْطِنِي مَا لَمْ يَكُنْ وَطَنًا " بدل " يا حَبْدًا مَوْطِنِي مَا دَامَ سَاكِنُهُ "

(4) _ ديوانه ، ص 376 .

(5) _ نفسه ، ص 81 .

(6) _ في رواية أخرى :تفيح " مكان " تهيج " الصَّبَابَةُ : الحنين ، يهدي: يُرشد إلى الصواب ، الجنوب : ريح تهب من الجنوب .

(7) _ ديوانه ، ص 91_92 .

ويكاد النَّأي والفراق والغربة يكون ميسم حياة ابن الأحنف ، وقد أضحى هذا الحب له قَدْرًا
وحياة ومصيرًا ، فلا يحيد عنه أو يتحوّل ، وقد حارب فيها النَّاس جميعًا ، لأتّها من البلد الآخر ،

يقول :

عَصَيْتُ فِيهَا عِبَادَ اللَّهِ كُلَّهُمْ مِنْ لَامِنِي سَفَهًا أَوْ لَامِنِي رَشْدًا [البسيط]
لو أتّها من وراء الرّوم في بلدٍ ما كنتُ أَسْكُنُ إِلَّا ذَلِكَ الْبِلْدَا
يا مَنْ شكا شوقه من طول غيبته اصبرْ لَعَلَّكَ أَنْ تَلْقَى الْحَبِيبَ عَدَا (1)

إنّ ما يوجع العاشق أن يُسافر دون أن تودّعه المحبوبة. فيتزوّد منها آخر زاد يفتات به في

سفره. يقول :

كفى حَزْنًا أَنِّي أَغِيبُ وَليْسَ لي سَبِيلٌ إِلَى تَوَدِّعِكُمْ فَأُوَدِّعُ [الطويل]
ألا ليتَ شِعْري عن مَلِكِي أَصَابِرُ إِذَا غَبْتُ عَنْهُ أَمْ يَرِقُّ وَيَجْزَعُ
تَلَفْتُ خَلْفِي حَيْثُ لَمْ تَبْقَ حَيْلَةٌ وَزَوَّدْتُ عَيْنِي نَظْرَةً وَهِيَ تَدْمَعُ (2)

وتطولُ بلوى العباس وهو ينأى عن فوز ، وليس له إلا أن يتساءل ويقول :

ما ظَنُّكُمْ بَفَنِّي " طالْتَ بَلِيَّتُهُ مَرُوعٍ فِي الْهُوَى لَا يَأْمُنُ التَّلْفَا [البسيط]
يا فوزُ كيفَ بكم والدارُ قد شَحَطَتْ بي عنكمُ وخروجُ النَّفْسِ قد أَزْفا (3)

ويترك العباس بغداد إلى " الطّف " وهناك يسري إليه طيف فوز النائبة عنه ، فيقول :

سرى طيفُ فوزٍ آخرَ اللَّيْلِ بِالطَّفِّ فَحَيَّ الْكَرَى عَنِّي وَأَعْفَتْ وَلَمْ أُعْفِ (4) [الطويل]
وبات الهوى ليس حاسرًا عن ذراعِهِ يُلْهَبُ فِي الصَّدْرِ الْهُومَ وَلَا يُطْفِي
وبتُ كَأَنِّي بِالثَّرِيَا مُعَلَّقٌ أَنَاشِدُ مِنْ يَدْرِي وَيَعْلَمُ مَا أُخْفِي
فيا بَرَحَ أَحْزَانِي ويا درَّ عِبرتي ويا وَيَلْتِي ماذا لَقِيتُ ويا لَهْفِي (5)

(1) _ ديوانه ، ص 140 _ 141 .

(2) _ نفسه ، ص 247 _ 248 .

(3) _ نفسه ، ص 254 .

(4) _ الطّف : أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين بن علي .

(5) _ ديوانه ، ص 255 .

وقد سَنَّتَتْ الغربية والفرقة شَمَلَ العباس ، فلم يَعد يجد نفسه ، ولا يهنأ باستقرار ولا يقرّ له قرار ، يقول :

يَا وَيْحَ هَذَا الْفِرَاقِ مَا صَنَعَا بَدَّدَ شَمْلِي وَكَانَ مَجْتَمِعَا [المنسرح]
 مَنْ لَمْ يَذُقْ لَوْعَةَ الْفِرَاقِ فَلَمْ يُنْفَ حَزِينًا وَمَا رَأَى جَزْعَا
 وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى مَفَارِقَةِ الْـ أَحْبَابٍ مُسْتَصَغَّرٍ وَإِنْ فَجَعَا (1)

ويَحْدُثُ أَنْ يَسَافِرَ الْعَبَّاسُ خَارِجَ الْعِرَاقِ بَيْنَمَا تَبْقَى فَوْزٌ فِيهَا ، وَنَجْدُهُ يَتَعَجَّلُ الْعُودَةَ ، حَيْثُ يَقُولُ :

تَعَسَّ الْمَسْتَقْلُ خَمْسَ لَيَالٍ لِمُوَافَاةٍ مِنْ بَارِضِ الْعِرَاقِ [الخفيف]
 لَمْ تَطُلْ غَايَةَ الْمَسِيرِ عَلَيْهِ إِنَّمَا طَوَّلَهَا عَلَى الْعُشَاقِ (2)

ويبدو أن بعض سفراته كانت مفروضة عليه وإلا لما ترك فوزاً ومضى ، يقول :

اللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ تَغْيِيرِ قَلْبِهِ مَنِّي وَمَنْكَ وَمَنْ سَلَا وَتَبَدَّلَا [الكامل]
 وَلَقَدْ بَلَّوْتَ مَوَدَّتِي فَوَجَدْتِنِي أَوْفَى وَأَحْفَظَ فِي الْمَغِيبِ وَأَوْصَلَا
 لَوْ كُنْتُ أَقْدِرُ يَا ظَلِيمَةً لَمْ أَغِبْ عَنْكُمْ وَأَتَّخِذُ الْجَزِيرَةَ (3) مَنْزِلًا (4)

أَمَّا حِينَ يَفِيضُ الشَّوْقُ بِالْعَاشِقِ فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ لِقَاءَ فَوْزٍ مَنِيعَةَ الْجَانِبِ ، فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ إِلَّا أَنْ يَقُومَ بِرَحْلَةٍ وَهَمِيَّةٍ يَدُلُّ فِيهَا عَلَى مَحْبُوبَتِهِ وَدَارِهَا ، فَيَقُولُ :

أَيُّهَا الطَّالِبُ شَمْسًا لِلْوَرَى تَطْلُعُ لَيْلًا [مجزوء الكامل]
 آتِ مِنْ بَغْدَادَ بَابَ الْـ شَامِ أَوْ نَهْرَ الْمُعَلَى (5)
 تَلَقَّ نَمَّ الشَّمْسِ إِلَّا أَنَّهَا تَسْحَبُ دَيْلًا
 هِيَ شَمْسٌ عَزَمَتْ أ لَا تُثِيلَ الْخَلْقَ نَيْلًا
 طَلَعَتْ فَوْقَ كَثِيبٍ (6) فِي قَضِيبٍ هَالٍ هَيْلًا (7)

(1) _ ديوانه ، ص 251 .

(2) _ نفسه ، ص 277 .

(3) _ الجزيرة : أرض بين دجلة والفرات .

(4) _ ديوانه : ص 304 _ 305 .

(5) _ باب الشَّام : محلة في الجانب الغربي من بغداد . نهر المُعَلَى : محلة في بغداد فيها دار الخلافة .

(6) _ الكَثِيبُ : التلّ من الرَّمْل ، شَبَّهَ بِهِ أَرَادَافَهَا . الْقَضِيبُ : قَدَمُ الْمُسْتَقِيمِ . هَالٌ هَيْلًا : بَهِرٌ .

(7) _ ديوانه ، ص 309 .

وتطول سفرات العباس ويكثر ارتحاله ، ويصبح في رحلاته مرتبطاً برحلات المحبوبة ، فهو لا يستطيع البقاء في بغداد بعد سفرها ، يقول:

ما أَنَحْنَا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا نَفْ رِقْ بَيْنَ الْمُنَاخِ وَالْإِرْتِحَالِ [الخفيف]

سَأَلُونَا عَنِ حَالِنَا إِذْ قَدِمْنَا فَقَرْنَا وَدَاعَهُمْ بِالسُّؤَالِ (1)

سفرات العمل كانت تفرض على العباس أن يترك بغداد وفيها فوز ، وتكون هذه السفرات قهراً للعباس ، فيقول :

بَلِّغِي يَا رِيحُ عَنَّا أَهْلَ بَغْدَادَ السَّلَامَا [مجزوء الكامل]

مَ عَلَى عَيْنِي وَنَامَا بِأَبِي مِنْ حَرَمِ النُّوْ

بَ اشْتِيَاقًا وَهِيَامَا بِأَبِي مِنْ أَضْرَمِ الْقَدِ

فَا بِفُرِّي مُسْتَهَامَا بِأَبِي مِنْ كَانَ مَشْغُو

إِنْ شَحَطْنَا وَأَقَامَا فَقَضَى اللهُ عَلَيْنَا

كِ وَلَوْ لَاقَى الْحِمَامَا أَذْكَرِي مِنْ لَيْسَ يَنْسَا

إِنَّ مِنْ نَامَ لَعَمْرِي يَحْسَبُ النَّاسَ نِيَامَا ! (2)

فخروجه كان عملاً يُكَلِّفه به الخليفة لا شكّ وهو لا يستطيع له ردّاً ، يقول :

كَانَ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِكُمْ قَدْرًا وَحَادِثًا مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَنِ (3) [المنسرح]

مِنْ قَبْلِ أَنْ أَعْرَضَ الْفِرَاقَ عَلَيَّ قَلْبِي وَأَنْ أَسْتَعِدَّ لِلْحَزَنِ

لَا شَيْءَ أَشْفَى فِيمَا سَمِعْتُ بِهِ مِنْ سَكَنِ يَشْتَكِي إِلَى سَكَنِ (4)

ليس شيء يفني الإنسان مثل الاغتراب والنزوح عن الوطن ، فكيف إذا كان هذا الإنسان عاشقاً

مثل ابن الأحنف ، يقول :

وَنَازِحِ الدَّارِ أَفْنَى الشَّوْقِ عِبْرَتُهُ أَمْسَى يَحُلُّ بِلَادًا غَيْرَهَا الْوَطْنَ [البسيط]

يَزِدَادُ شَوْقًا إِذَا دَارَ بِهِ نَزَحَتْ فَمَا يُغَيِّرُهُ عَنِ عَهْدِهِ الزَّمَنِ (5)

(1) _ ديوانه ، ص 310 .

(2) _ نفسه ، ص 317 .

(3) _ في رواية أخرى : " كان رحيلي من أرضكم عجا " بدل " كان خروجي من عندكم قدرا " .

(4) _ ديوانه ، ص 347 .

(5) _ نفسه ، ص 352 .

إنّ كثرة أسفار فوز وترحلها وتنقلها يسبّب للعبّاس ثورات نفسية ، ويشتت روحه ونفسه ولا يعود يعرف للراحة طعمًا .

وحين يسافر العبّاس خارج بغداد بعد أن تتركها فوز كان يخرج مكرهاً ، ولكنه لا يلبث أن يألف ما كره ، ليس شغفًا في البلاد ولكن لأنه سيعود إلى بغداد حيث يجد فوزًا ، فيقول:

أَقَمْنَا مُكْرَهِينَ بِهَا فَلَمَّا أَلْفَنَاهَا خَرَجْنَا مُكْرَهِينَا [الوافر]

وَمَا شَغَفُ الْبِلَادِ بِنَا وَلَكِنْ أَمَرَ الْعَيْشِ فِرْقَةً مِنْ هَوِينَا

خَرَجْتُ أَقْرَّ مَا قَدْ كُنْتُ عَيْنًا وَخَلَفْتُ الْفَوَادَ بِهَا رَهِينَا ! (1)

وبين الرحلة والأخرى كان العبّاس يحطّ رحال أشواقه ونفسه وروحه عند دار فوز ، وهي دار أخرى غير دارها الأولى إلى جانب دار الخلافة . أما هذه الدار بين قصر الأمير والخيزران في الكرخ ، وهذا يبيّن أن فوزًا من الأسرة الحاكمة الوافدة من الحجاز على القصر ، وكانت تمكث فترة تعود بعدها إلى الحجاز ويثرب بالذات ، يقول :

إِنَّ بِالكَرْخِ مَنْزِلًا لِعِزَالِ بَيْنَ قَصْرِ الْأَمِيرِ وَ الْخَيْزُرَانِ [الخفيف]

وَالهَوَى قَائِدِي إِلَيْهِ وَشَوْقِي لَيْسَ بِالشَّوْقِ وَالهَوَى لِي يَدَانِ

لَسْتُ أَنْسَاكَ يَا ظَلُومٌ وَعَهْدِ اللَّهِ بِهِ حَتَّى أُفَّ فِي أَكْفَانِي

فَتَّقِي بِي فَأَنْتِ أَعْرَفُ مِنِّي بِحِفَاطِي فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ (2)

ذلك هو العبّاس ، وتلك هي فوز الهاشمية الحجازية ابنة عوف ، يقول :

عِدَاةَ رَأَيْتُ الْهَاشِمِيَّةَ عِدْوَةً(3) تَهَادِي حَوَالِيهَا مِنَ الْعَيْنِ رَيْرَبُ(4) [الطويل]

ويقول :

أَيُّهَا السَّائِلِي عَنْ ابْنَةِ "عُوفٍ" لَكَأَنِّي فِي شَأْنِهَا مَحْزُونٌ(5) [الخفيف]

ويقول :

حُبُّ الْحَجَازِيَّةِ أَبْلَى الْعِظَامِ وَالْحُبُّ لَا يَعْطِقُ إِلَّا الْكِرَامَ(6) [السريع]

(1) _ ديوانه ، ص 365 .

(2) _ نفسه ، ص 366 .

(3) _ في رواية أخرى لصدر البيت : " إذا ما رأيت الهاشمية أقيلت " .

(4) _ ديوانه ، ص 53 .

(5) _ نفسه ، ص 343 .

(6) _ نفسه ، ص 334 .

ويلقى العباس بن الأحنف في حبّ هذه الحجازيّة العريضة جانبًا من العذاب ، يفوق كلّ عذاب ، وهو لا يستطيع التّخلّي عنها لأنّه أحبّها وعشقها وعاهدها على ألاّ يخون أو يتحوّل مهما بدا منها ، ولأنّ حبّها في قلبه ينبوع لا يغيض ، كما يقول :

لا تستزيدي القلبَ حبًّا لكم في القلب من حبِّك ينبوعٌ (1) [السريع]

لقد باع لها نفسه رخيصة ، وبات الموثق في عشقها ، ولكنّه لا يستطيع لقاءها . أو زيارتها ، إلّا فيما ندر . فالجميع يرقبون ويرصدون ، أخوها ، وعمومتها ، وأهلها ، وهي ربّة القصور والحدور ، وهو نزيل هذه القصور ، والكلّ عليهما رقباء . وعليه أن يلتزم حدود القصر الصّارمة في الحركة والتّنقّل والقول والفعل ، وفي كلّ ما يتصرّف ، ليس لأنّه نزيل القصور عند الرّشيد ، بل لأنّه سليل ملوك كما يقول :

خرجنا شباباً ذوي نجدة لنلهو عليها بضرب الكرينا [المتقارب]

بني سادةٍ من بناتِ الملو كِ قد ملكوا النَّاسَ دَهْرًا وحيناً (2)

ويقول :

وَإِخْوَانِ بِهَالِيلِ (3) سَرَاةٍ سَادَةِ النَّاسِ (4) [الهمز]

في البيت السابق يشير العباس إلى الفرس كما أشار إليهم في مواضع كثيرة ، وفيها يحنّ إليهم ويعتبر نفسه جزءاً منهم ، وربّما يرجع هذا إلى كون عائلته نزلت في خراسان مع الجيوش الفاتحة ، وزواج جدّه لأبيه فيها ، فكان الفرس للعبّاس خوئلته (5) . يقول في أبيه :

ذهبَ الكتابُ وكان في عُنوانه هذا من ابنِ الأحنفِ (6) بنِ الأسودِ (7) [الكامل]

وهذا بطبيعة الأمر يعطيه مزيداً من الثقة ليعتبر نفسه لفوز نداءً ولطالما نادته بلفظ " سيدي " كما يصرّح :

فَلَمَّا نَادَيْتَنِي يَا سَيِّدِي (8) فَلَمَّا نَادَيْتَنِي يَا سَيِّدِي [الكامل]

(1) _ ديوانه ، ص 244 .

(2) _ نفسه ، ص 339 .

(3) _ بهاليل : مفردها بهلول وهو السيّد الجامع لكل خير ، السّرة : الدّرة في كل شيء .

(4) _ ديوانه ، ص 237 .

(5) _ سعد الدين ، ليلى ، العباس بن الأحنف ، ص 59 .

(6) _ ابن الأحنف بن الاسود : كنية الشّاعر .

(7) _ ديوانه ، ص 147 .

(8) _ نفسه ، نفس الصفحة .

فهذا العاشق السيّد يكتوي بنار فوز ، ويتحین لقاءها أتى ذهبت وتوجّهت ، ويعزّي نفسه أحياناً بالوقوف على باب دارها أو قريباً منها ، يقول :

طال الوقوف بباب الدار في عِلِّ حَتَّى كَأَنِّي لِبَابِ الدَّارِ مِسْمَارُ [البسيط]
 إِنِّي أُطِيلُ وَإِنْ لَمْ أَرُجْ طَلَعْتُهَا وَفِي وَإِنِّي إِلَى الْأَبْوَابِ نَظَارُ
 أَقُولُ لِلدَّارِ إِذْ طَالَ الْوُقُوفُ بِهَا بَعْدَ الْكَلَالِ وَمَاءُ الْعَيْنِ مِدْرَارُ
 يَا دَارُ هَلْ تَفْقَهِينَ الْقَوْلَ عَنْ أَحَدٍ؟ أَمْ لَيْسَ إِنْ قَالَ يُعْنِي عَنْهُ إِكْتَارُ؟
 يَا دَارُ إِنْ غَزَا لَأَفِيكَ بَرَحَ بِي اللَّهُ دَرَكُ ! مَا تَحْوِينِ يَا دَارُ!
 مَا زِلْتُ أَشْكُو إِلَيْهَا حَبًّا سَاكِنِهَا حَتَّى رَأَيْتُ بِنَاءَ الدَّارِ يَنْهَارُ (1)

وبعيداً عن دارها يبضع خطوات يقف في الميدان يرقبها وهي تمرّ أمامه ، يقول :
 يَا مَوْقِدَ النَّارِ بِالْهِنْدِيِّ وَالْغَارِ (2) هَيَّجَتْ لِي حَزناً يَا مَوْقِدَ النَّارِ [البسيط]
 بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْمِيدَانِ أَرْقُبُهَا شُبَّتْ لِغَايَةِ بِيضَاءِ مِعْطَارِ
 هَاجَتْ لِي الرِّيحُ مِنْهَا نَفْحَ رَائِحَةٍ أَحْيَتْ عِظَامِي وَهَاجَتْ طَوْلَ تَذْكَارِي
 يَا فَوْزُ ! أَنْتِ الَّتِي جَشَمْتِنِي رَقْصًا يَبْرِي الْمَهَارِي بِتَرْحَالٍ وَتَسْيَارِ (3)
 غَبْتُمْ وَغَبْنَا فَلَمَّا كَانَ أَوْبُكُمْ أُنَا فَنَحْنُ وَأَنْتُمْ رَهْنُ أَسْفَارِ (4)

والعبّاس حين يقف لفوز يرقبها ، يكون في أهبة كاملة وتأنق يرضي غرور العاشق ، فهو يلبس لها رداءً معصفاً ؛ لأنه يعلم أنّها تحبّ اللون الأصفر ، فعشقه لأجلها . يقول :
 لَمَّا بَدَتْ فَرَأَيْتُهَا فِي صُفْرَةٍ كَلَفَ الْفَوَادُ بِكُلِّ شَيْءٍ أَصْفَرِ [الكامل]
 وَتَشَرَّفْتُ مِنْ قَصْرِهَا فَلَمَحْتُهَا فَلَأَسْأَلَنَّ عَنِ النَّعِيمِ الْأَكْبَرِ (5)

(1) _ ديوانه ، ص 173 _ 174 .

(2) _ في رواية أخرى : " الهندي والقار " بدل " الهندي والغار " . والهندي : عود الطيب الذي يؤتى به من الهند . الغار : نبات طيب الرائحة .

(3) _ في رواية أخرى : " رمصاً " بدل " رقصاً " : ضرب من السير لا يكون إلاّ للآعب ولإبل وهو مشي فيه ركض وارتفاع وانخفاض . المهاري : مفردا المهريّة وهي إبل جشمته فوز المشقة في ترحاله طلباً لها .

(4) _ ديوانه ، ص 174 _ 175 .

(5) _ نفسه ، ص 188 .

ويقول :

ألا أشرقت فوزٌ من القصرِ فانظُرِ إلى من حباكِ الودَّ غير مكدَّرِ [الطويل]
ولما رأته أن لا وصولَ إلى الهوى تراءت من السطحِ الرفيعِ المحجَّرِ
فقلتُ لها : يا فوزُ هل لي إليكم سبيلٌ ؟ فقلت في الإشارة : أبشرِ
وقفتُ لها في ساحةِ الحيِّ ساعةً أُشيرُ إليها بالرداءِ المُعصفرِ
نظرتُ إلى ما لم ترَ العينُ مثلهُ إلى قمرٍ في رازقيٍّ ومنيرِ(1)

والعباس يعرف تمامًا أين تقضي فوز أوقاتها في اللهو واللعب لأنه قريب منها في القصور ،
يقول :

غزالٌ مراتعُهُ بالبليخِ(2) إلى دِيرِ زكيٍّ وقصرِ الخشبِ(3) [المتقارب]

أما إذا أراد العاشق أن يستلهم فوزًا الأمان ، فهو يمضي إلى دارها ، يقف أمامها عن بُعد .
ولكنه يُمنع منها . يقول :

إن يمنعوني ممري قرب دارهم فسوف أنظر من بُعدٍ إلى الدارِ [البسيط]
ما ضرَّ جيرانكم _ والله يصلحهم لولا شقائي _ إقبالي وإدباري
لا يقدرون على منعي ولو جهدوا إذا مررت وتسلمي بإضماري (4)

ويغتم العاشق أية فرصة تقربه من المعشوقة ، وقد وصل الحال به إلى أن يمضي مع فوز في
سفر ، يرافقها فيه ، ولكن عن بعد ، فصحبة الطريق في رأيه ، قد تخفف بعض ناره . يقول :

إن يومي بين المغيثة والقرِّ عاءٍ لذِّ(5) لو تمَّ فيه السرورُ [الخفيف]
يومَ ساروا وسرت حيث أراهم فتمنيتُ أن يطولَ المسيرُ(6)

(1) _ ديوانه ، ص 186 .

(2) _ البليخ : نهر في الرقة . دير زكا وقصر الخشب : موضعان .

(3) _ ديوانه ، ص 86 .

(4) _ نفسه ، ص 223 .

(5) _ المغيثة والقرعاء : موضعان قرب مكة . اللذ : اللذيذ الشهي .

(6) _ ديوانه ، ص 208 .

وتشتدّ الرقابة ، ويشعر معها الحبيبان أنّهما محاصران ، فلا يملكان إلاّ التسليم بالإشارة باليد
، أو يرفع الرداء . وهكذا يقول العاشق النبيل :

هَلَا عَصَيْتَ هَوَاكَ يَا ابْنَ الْأَخْنَفِ إِذْ لَا نَصِيرَ لِدَمْعِكَ الْمَتَوَكَّفِ [الكامل]
بأبي وأمي ظبيةً أبصرتُها تلك العشيّة فوق سطحٍ مُشْرِفِ
نظرت من السطح الرّبيع وحولها بيضُ الوصائف كالظباء العكفِ
نظرت إليك بمقلةٍ محزونةٍ نظر الصّحيح إلى المريض المُدْنَفِ
ولقد رفعتُ لها الرّداء مودعاً بعد البكاء وبعد طول الموقفِ
إني لأحمدُ من يدومُ وصاله وأدُمُ كلُّ مُواصلٍ مُسْتَطْرِفِ (1)

ويظهر من خلال شعر العاشق أنّ الميدان هو ما تقع إلى جانبه دار المعشوقه ، فيقول :

أَشْرَقَ الْمِيدَانُ فَاسْتَنْكَرْتُهُ كَيْفَ لَا أَعْرِفُ تِلْكَ الطَّرْقَا [الطويل]
خبروني أنّها مرّت به قُلْتُ : مَنْ تَمَّ أَرَاهُ مُشْرِقَا
فَشَمَمْتُ الرِّيحَ مِنْ تَلْقَائِهَا فَاسْتَطَارَ (2) الْقَلْبُ مِنِّي شِفَقَا (3)

وكثيراً ما يرى العاشق معشوقته على سطح القصر أو في شرفته ، وهذا يؤكّد أنّهما كانا
نزيلي قصور الرّشيد ، وكان دائماً يراها ، وهذا ما يجعل شوقه وناره في استعار دائم يقول :

إِنَّ شَمْسًا أَبْصَرْتُهَا فَوْقَ سَطْحِ غَادَرْتَنِي بِسَهْمِ طَرْفِ قَتِيلَا (4) [الخفيف]
أشرفت في المصقّلاتِ فيا من أبصرَ الشّمسَ تلبسُ المصقولَا
علّيني يا فوزُ بالوصلِ إني لا أراني أعيشُ إلاّ قليلا
إنّ فوزاً لما أتاها رسولي كتبتُ أنّها تريدُ رحيلَا
ما لكم لا يزالُ منكم كتابٌ يورثُ الهَمَّ والبكاءَ الطّويلَا (5)

(1) _ ديوانه ، ص 260 .

(2) _ في رواية أخرى : " شققا " بدل " شققا " . والشفق : الشطيّة أو القطعة المشقوقة .

(3) _ ديوانه ، ص 267 _ 268 .

(4) _ في رواية أخرى للعجز : " غادرتني من البواكي قتيلاً " بدل " غادرتني بسهم طرف قتيلاً " .

(5) _ ديوانه ، ص 307 _ 308 .

نادرًا ما يلتقي العاشقان ، ولكِنَّه لقاء لا يسرّ العاشق كما يشتهي ، يقول العباس في هذا اللقاء :

بأبي مَنْ ضَنَّ عَنِّي بِالسَّلَامِ ولوى دَينِي ولم يرعِ الدَّمَامَ [الرمل]
وكوى قلبي بما أَسْمَعَنِي من كلامٍ وَقَعُهُ وَقَعُ السَّهَامِ
إِنَّمَا أبكي على جاريةٍ قَادَتِ القَلْبَ إليها بِرِزَامِ
حَسَدَتْنِي نَظْرَةً فِي وَجْهَهَا إِذ جَلَسْنَا فَاسْتَحْتَتِ لِلقِيَامِ
ثم قالت: يا اَزْدَجِرْ عَنَّا فَمَا بَيْنَنَا إِلَّا سَلَامٌ بِسَلَامِ
بَلَّغُوا باطلاً فأنصرفتُ نَفْسُهَا عَنِّي بِظَنَّ وَاثَامِ
ليت حظي منك يا سيدي نَظْرَةً أَنْظُرُهَا فِي كُلِّ عَامِ (1)

ويشدد شوقها حين يكون هناك رقباء وعيون ، عندها يكون الحديث والخصام والوثام ، والسلام بالعيون . يقول :

تُحَدِّثُ عَنَّا فِي الوجوه عيوننا ونحن سكوتٌ والهوى يتكلمُ [الطويل]
ونغضبُ أحياناً ونرضى بظرفنا وذلك فيما بيننا ليس يُعْلَمُ
إِذَا ما اتقينا رمقةً من مُبَلِّغِ فأعيننا عَنَّا تجيبُ وتفهمُ
وَإِنْ عَرَّضَ الواشي صَفَحْنَا تَكْرُمًا وذو الوُدِّ عن قول العدى يتكرمُ (2)

أما حين يواتيهما الزمان ، وترحمهما الأيام ، ويشاء الله لهما أمان اللقاء ، فإن الحياة والسعادة والهناء هو نصيب العاشق ، يصف العباس اللقاء السعيد الوحيد مع المحبوبة ، فيقول:

اليومَ طاب الهوى يا معشرَ النَّاسِ وألبست فوزُ حُبِّي كلَّ إلباسِ [البسيط]
ما أنسَ لا أنسَ يُمناها مُعْطَفَةٌ على فؤادي ويُسرِّها على راسي
قالت وإنسانُ ماءِ العَيْنِ فِي لَجَجِ يكادُ ينطقُ عن كَرْبٍ وَوَسواسِ
يطفو ويرسو غريقًا ما تُكْفِكِفُهُ كَفُّ فِيا لك من طافٍ ومن راسِ
عباسُ لِيَتَّكَ سِرِّبالي على جسدي أو لِيَتْنِي كُنْتُ سِرِّبالاً لِعَباسِ
أو لِيَتَّهُ كان لي راحًا وكنتُ لَهُ من ماءِ مُزْنٍ فَكُنَّا الدَّهْرَ فِي كاسِ
أو لِيَتْنَا طائرا إلفٍ بِمَهْمَهَةٍ نخلو جميعًا ولا ناوي إلى النَّاسِ (3)

(1) _ ديوانه ، ص 313 .

(2) _ نفسه ، ص 323 .

(3) _ نفسه ، ص 227 .

تلك هي فوز القريبة البعيدة ، وذلك هو العباس العاشق والفتان الرفيع الذوق ، عشق فأخلص
ووفى لفوز ولأرضها ، يقول:

إذا استقبَلْتَنِي الرِّيحُ من نحو أرضها تَنَشَّقْتُهَا حتى تَرِقَّ الخياشِمُ [الطويل]
فإنَّكَ لو جرَّبتِ تسهيدَ ليلةٍ لَقُلْتِ : ألا طوبى لِمَن هو نائمٌ !
ولولاكَ لم آتِ الحجازَ وأهلها ولم تزوِ (1) عني بالعراقِ الكرائمُ (2)

والعباس هو وتر الملوك ، وناي المجتمع الرفيع بكلّ مظاهره الحضارية المترفة ، من مكاتبات ،
ومراسلات ، وهدايا ، وأماكن اجتماع توحى باجتماع العاشقين في حدائق القصور التي كانت تقيم
فيها فوز ، يقول :

وكأننا لم نجتمع في مجلسٍ فيه الغناءُ ونرجسٌ وبهازُ (3) [الكامل]

ويقول :

يشمُ ندمايَ الرِّياحينَ بينهم وذِكْرُكِ ريحاني إذا دارتِ الكاسُ (4) [الطويل]

ويقول :

أصبحتُ أذكُرُ بالرِّيحانِ رائحةَ منها فللنَّفْسِ بالرِّيحانِ إيناسُ [البسيط]
وأمنحُ الياسمينَ البُغضَ من حَدْرِي عليكِ إذا قيلَ لي شَطْرُ اسمِهِ الياس (5)

(1) _ زوى عن الشيء : ابتعد وتتحى عنه . الكرائم : المطايا النجبية الأصل .

(2) _ ديوانه ، ص 322 .

(3) _ نفسه ، ص 182

(4) _ نفسه ، ص 231 .

(5) _ ديوانه ، ص 232

فتاة عفيفة تقيّة صالحة

العفة من الميزات التي ذكرها العباس في شعره ، وصف بها نفسه ووصف بها محبوبته ، ففي أكثر من مناسبة يؤكّد هذا المعنى ، ويلجّ عليه ويظهر نفسه وصاحبته خليين من كل فاحشة وسوء ، على نحو ما نرى في قوله :

فيا ربّ لا تُشمت بنا حاسداً لنا يراقبنا من أهل فوزٍ ، ولا أهلي [الطويل]
وما بيننا من ربيبةٍ فراقبا ولا مثلها يرمى بسوءٍ ولا مثلي
وإني لأرعى حقّ فوزٍ وأتقي عليها عيون الكاشحين ذوي الختل
وإني وإياها كما شفّنا الهوى لأهل حفاظٍ لا يدنسُ بالجهل(1)

وقوله :

إذا ذكرَ النساءُ بحسنِ حالٍ فهنّ لها الفدا في كلّ حال [الوافر]
مطهّرةً من الفحشاءِ تنمي إلى أهلِ المكارمِ والمعالي (2)

كان العباس لا يرى بأساً في الحبّ العفيف الذي يبرأ من الفحش ويتعد عنه :

وما يرى من وصالِ اثنينٍ قد شُعبا ما لم يميلا إلى الفحشاءِ من عارٍ (3) [البسيط]

وإذا ما التقيا فإنهما يتشاكيان في نفسيهما، ويتبادلان الأحاديث في عفة ونقاء :

إذا التقينا شكّونا ما نكاتمهُ في عفةٍ ، وحديثٍ من هنا وهنا [البسيط]
لو تسمع الطيرُ ما نشكو عكفن بنا كما عكفن داودَ الذي فُتّنا(4)
فما تزالُ أشياءُ نحدثُها تكونُ للناسِ فيما بعدنا سننا(5)

(1) _ ديوانه ، ص 286 .

(2) _ نفسه ، ص 295 .

(3) _ نفسه ، ص 175 .

(4) _ داود : هو النبي الذي فُتّن بزوجة قائد جيشه .

(5) _ ديوانه ، ص 353 .

وكما كانت فوز حسنة في خَلْقها ، كانت حسنة في خُلُقها ، إذ جمعت بين العفة والتقى .
ويظهر من خلال شعر العباس أنها كانت تقيّة حسنة الدين ، تقوم بالواجبات الدينية وتؤدّي
الفروض في أوقاتها . يقول العباس أنها كانت تتحرّج أن تصله في شهر الصيام .

لماذا تَكَرَّهتِ ردّ السّلام؟ أَيُفْسِدُ ذاك عليك الصّياما [المتقارب]

تَحَرَّجَتِ أَنْ تَصَلِّيَ فِي الصَّيَا مِ تَقْوَى ، وَرُمْتَ لِقَتْلِي مَرَامَا
فَمَا تَبْتَغِينَ بِطُولِ الصَّيَا مِ إِذَا أَنْتِ أَوْرَدْتِ نَفْسِي الْحِمَامَا (1)

وقال :

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ الصَّيَامَ الَّذِي يُنْدِ سَيُكْمُ وَصَلْنَا قَلْبِنَا الصَّيَامَا (2) [الخفيف]

وتحدّث عن حجّها وما تركته من أثر في نفسه طيلة غيابها . حتّى إنّه لم يكن يُطيق صبرًا بقدر
ما ضاق ذرعًا ، قال :

مَا زِلْتُ مُذْ غَبَّتْ عَنِّي مِنْ أَسْحَنِ النَّاسِ عَيْنَا [المجتث]

مَا كَانَ حَجُّكَ هَذَا إِلَّا بَلَاءً عَلَيْنَا (3)

وقد وصف العباس زهد فوز وتقواها وميلها إلى العبادة والصلاة في قصيدته الدالية حيث قال :

فَالْيَوْمَ أَقْصَرَ بَاطِلِي وَتَرَاجَعْتُ نَفْسِي لِحُسْنِ تَصَبُّرِي وَتَجَلَّدِي
نَبَدْتُ مَكَاتِبِي وَرَجَعْتُ رِسَالَتِي وَتَنَوَّرْتُ مَصْبَاحَهَا فِي الْمَسْجِدِ
فَكَأَنَّمَا شُقَّ الْفَوَادُ بِمِدْيَةٍ قَسَمِينَ مِنْهُ لُغَائِرَ وَلِمُنْجِدِ
إِنْ كَانَ سَفْكَ دَمِي بِغَيْرِ جَنَائَةٍ يَا فَوْزُ مِنْكَ عِبَادَةٌ فَتَعَبَّدِي (4)

(1) _ ديوانه ، ص 324 .

(2) _ نفسه ، ص 327 .

(3) _ نفسه ، ص 348 .

المبحث الأول : * أسلوب العباس ولغته :

رقة العباس رقة عاتية ، على نحو ما تكون رقة الخدّ الأسيل (1) ، فهي تسحر وتقهّر وهي تحفظ مكانها وتخلد . وقد تفرّد العباس بالجمع بين الرقة والجزالة ، وبهذا التفرّد شهد له القدماء . قال ابن خلكان في غزل العباس : " إته كان رقيق الحاشية لطيف الطباع " (2) ورقة العباس مطبوعة ، ولكنّه يعمد إليها وكأنها مذهب ، وكأنه يتمرد على الوعورة التي غلبت على الأشعار في ذلك الزمان . وهذه الرقة مردّها سعيه إلى الوصول إلى الإفهام بدون عناء ، وبهذه الرقة خاطب معشوقاته ، وتفرّد بوفرة المراسلات الغرامية الخالية من غرائب اللفظ ، الغنية بلطائف المعاني ، فجاء أسلوبه سهلاً في أدائه ، صعباً في تق ليدّه ، موجزاً في بيانه . يقول :

شكّونا إلى أحببنا طول ليلنا فقالوا لنا : ما أقصر الليل عندنا(3) [الطويل]

وكثيراً ما يلجأ إلى الازدواج مستخدماً الاستعارة المركبة وذلك بأسلوب متين مُحكم ونظم متماسك . يقول :

فالجسم من لؤلؤ والشعر من ظلم والنشر من مسكة والوجه من نور(4) [البيسط]

ومن أسباب رفته إكثاره من العتاب ، والعتاب يستوجب الرفق ، فنجدّه يعاتب ويعتذر ويعطي تبريراً لثورة المحبّ الغضبان . يقول :

كتبتُ وقد شربتُ الرّاح صرفلُ فلا كان الشرابُ ولا شربتُ [الوافي]
فلا تستنكروا عتبي عليكم فلو هتُم عليّ لما عَصِبْتُ(5)

ومن أسباب رفته فناؤه في الحبّ ، وعتبه الدّامي على المحبوب ، يقول :

رصيري الله منك إذا اعتديتُ وقد عذبتُ قلبي إذ جفوتُ [الوافي]
فإن يئ ذا مغايظةً لحقدٍ فقد والله يا أملي اشفريتُ
فلو شاء الذي بكم ابتلاني لعجلّ راحتي منكم بموتي(6)

(1) _ مبارك ، زكي ، العشاق الثلاثة ، ص97.

(2) _ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ص20.

(3) _ ديوانه ، ص365.

(4) _ نفسه ، ص179.

(5) _ نفسه ، ص115.

(6) _ نفسه ، نفس الصفحة.

يطلب النصر من الله لأنها تعذبه بفراقها وبعادها ، فإن كان تعذيبها ل هتشفياً وثأراً فإنها قد أصابت قسدها ، واشتفت مما أعاظها ، واحتمل العباس من تعذيبها ما يكفيه حتى أذاب حبها عظامه وبراهها ، فالله الذي أوقعه في حبها قادر أن يُعجل في فئائه فيرتاح من العذاب المقيم .

ولهذه الأبيات الحزينة نظائر كثيرة في أشعار العباس ، وقد تصل إلى الصراخ كأن يقول :

لعمري ما حبسي كتابي عنكم لهجرٍ ولئن كثرة الرسل تفضح [الطويل]

وإن كنت لم أكتب إليكم فإنما فؤادي إليكم حين أمسي وأصبح

أعرك تسليمي على بعض أهلكم؟ وما قلت بأساً إنما كنت أمزح

مخالطتي يا فوز أهلك فاعلمي يقيناً باني نحو بيتك أطمح

إذا أنا لم أمنحك الود والهوى فمن ذا الذي يا فوز أهوى وأمنح

أكاتم خلق الله ما بي وريمها ذكرتكم حتى أكاد أصرخ

فيا كيدي طالت إليكم رسائي وهذا رسولي أعجم ليس يفصح (1)

الرقعة عن العباس لا تمنع من التماسك المحكم في بناء القصيدة لأن يقول :

رُب ليلى قد شهدهتُ رُب دمعٍ قد أفضته [مجزوء الرمل]

رُب حزنٍ لي طويلٍ م.ع حباً لي كتمته

لو يذوق الموت أشجى الـ ناسٍ بالحب لدقته

بأبي من لا يبالي غبت عنه أو شهدهت

أنا من أسخن خلق الـ له عينا مذ عرفته(2)

وسهولة الألفاظ واتجاهها إلى الشعبية وقربها من الحياة اليومية واضح في الأبيات السابقة

ويتضح في الأبيات الآتية :

بالله يا غضبانُ ألا رضيت أحافظ للعهد أم قد نسيت؟ [السريع]

ألم تكن من قبل عاهدتني أنك لا تهجرني ما حييت؟

هبني قد مت بهذا الهوى فما الذي يرضيك من أن أموت

(3)

- (1) _ ديوانه ، ص128 .
 (2) _ نفسه ، ص116_117 .
 (3) _ نفسه ، ص120 .

هذه الأبيات لا تعدو أن تكون عتاباً رقيقاً بين اثنين بينهما حبّ ومودّة ، هجر أحدهما الآخر ، فالتقى به وأخذ يعاتبه بهذا الكلام السهل العادي الذي يكثر في لغة الحياة اليومية ويتضح الأمر أكثر عند استعماله تعبيرات من صميم الحياة اليومية مثل :
 " ما مرّ شيء على راسي " و " كتب الله على راسي " في قوله :

جَرَبْتُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا شِدَائِهَا " ما مرّ مثل الهوى شيءٌ على راسي " (1)[البسيط]

وقوله:

والله ما أصبحتُ أرجوكمُ إلا رجاءً مُشْبِهَ الياس [السريع]
 مستسلماً للحبِّ أرضى بم " قد كتب الله على راسي "
 ما أنا بالنّاقضِ عهدي، ولا يشبهُ قلبي قلبك القاسي (2)

إنّ سهولة الألفاظ والأساليب واتّجاهها إلى الشّعبيّة يعود إلى تأثير التّيّارات الأجنبيّة على موضوع الشّعْر وشكله ، بسبب انتشار أفكار وعادات ونظم غريبة عن البيئة والمجتمع ، أدّى إلى شيوع لغة جديدة تجمع بين رقة الحضارة ونعومتها ، وبين المستوى العقلي والفكري للمتحدّثين بها ، حيث تحمل خصائص "الأسلوب المولّد" (3).

ويمتاز هذا الأسلوب بالرّساقة ، والعذوبة ، ووضوح المعنى ، وقرب الدّلالة ، ليس فيه إسفاف ، ولا ابتدال ، ولا توّعّر ، ولا تعقيد (4).

(1) _ ديوانه ، ص230 .
 (2) _ نفسه ، ص231 .

(3) _ موافي ، عثمان ، التيارات الأجنبية في الشعر العربي ، الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، (د.ت) ، ص353_354.

(4) _ ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص129 .

وقد مالت هذه اللغة إلى البساطة والسهولة لتفهمها العناصر غير العربية ، ومما يصور شيوع هذه الظاهرة قول العباس بن الأحنف يعاتب حبيبته بلغة سهلة واضحة ، يعبر فيها عن شعوره الذي استحوز حبها على قلبه ومشاعره فأصبح أسي راً لهذا الحب ، على نحو ما نرى في قوله :

أيا من وجهه قمر	ويا من قلبه حجر [مجزوء الوافر]
وي من جل في عيني	وما لي عنده خطر
ويا من ليس في الدنيا	لنفسى غير هو طر
أعرك أن حبك في	صمغ القلب يستعر
بسُلطان على جسمي	فما يُبقي ولا يُز
وإنك لظم أذنب	ت جنت إليك أعتز
وانت الدهر جائرة	وما أقوى فانتصر
وما يُدريك والأبي	م في تصريفها عبو
لعلك تبليين بما اب	تليت به وأزج
إذ ما رمت هجركم	يكاد القلب ينفطر
أما والله لو أتني	على الهجران أصطبو
إذا لأرحت عيناً قد	أطال عذابه السهر
ألا لي جاهلاً بالحد	ب سألني عنّي الخير
فلن مذاقهم مر	ومشرب صفوه الكدر
نهارى كلهم عبو	وليلي كلهم سهر
جفوني ماؤه درر	وقلبي حشوه فكر
وكان بليّة أني	نظرت فشامني (1) النظر (2)

هذه السهولة في الألفاظ تكاد تجعل الشعر في سهولته أسلوباً نثريّ يجري على أسنة الناس في حياتهم اليومية المألوفة .

(1) _ في رواية أخرى . " سامني " بدل " شامني " . سام : أذلّ . شام : حمل إليه الشّوم .

(2) _ ديوانه ، ص 216_217 .

يقول العباس مستخدمًا بعض التعبيرات التي كثر استعمال الناس لها في حياتهم اليومية :

وكنت أسخن خلق الله كلهم عينا وأطولهم من وحشتي كمدا [البسيط]

فقرت العين يا نفسي بقربكُم وغاب همي ووافى روعي الجسدَا

فللحمد لله ذي النعماء "يا سكاني" حمدا كثيرا لربي دائما أبدا (1)

وقوله في موضع آخر ، مستخدمًا التعبير نفسه :

أظلم حان إلى القبور ذهابي وبليت قبل الموت في أثوابي [الكامل]

(2) فعليك "يا سكاني" السلام فإنتي عما قليل فاعلمن حسابي

شيوخ ظاهرة الشعبيّة والميل إلى استخدام التعبيرات السهلة الواضحة في غزل ابن الأحنف يعود إلى هجره البيئّة العربيّة فترة طويلة من الزمن . وإقامته في بيئّة أجنبيّة وهي خراسان ، بعيدًا عن البيئّة العربيّة ، والدّوق العربي البدوي ، الذي يميل في لغة الشعر الجزالة والفحولة وقوّة الجرس التي جعلته لا يهتمّ بالأسلوب البدوي في شعره ، بل يصوغ شعره في أسلوب سهل وواضح ، يوافق الدّوق الأجنبي والبيئّة التي يعيش فيها . (3)

وقد جاء شعر العباس حضريًا شبيهًا بشعر عمر بن أبي ربيعة متأثرًا بالجوّ العامّ الذي طبع تلك الحقبة في العصر العباسي ، علمًا بأنّ العباس بن الأحنف كان معاصرًا لأبي نواس (4) وليس غريبًا أن نسمع الشّاعر يقول واصفًا تلك الحقبة :

وما الناس إلاّ العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحبّ ويعشق؟ (5) [الطويل]

وهو الذي ربّما تفوّق على شعراء الغزل الحضري حين قال :

تلك التي لو دُفّت من ريقها ما دُفّت سقمًا آخر الدهر (6) [السريع]

(1) _ ديوانه ، ص 154 .

(2) _ نفسه ، ص 61 .

(3) _ موافي ، عثمان ، التيارات العربية في الشعر العربي ، ص 360 .

(4) _ ديوانه ، ص 26 .

(5) _ نفسه ، ص 271 .

(6) _ نفسه ، ص 18 .

ولقد استعمل العباس كل المعاني التي كانت في أيامه ، وأضاف إليها معاني مبتكرة (1) لم ترد عند من سبقه من شعراء الحب والغزل على نحو ما نرى في مثل قوله :

فلو أن الرقاد يُباع ببيعاً لأغليت الرقاد على العباد (2) [الوافر]

ولم يزع العباس باباً من أبواب الغزل العفيف إلا ولجه ، فجاء شعره تعبيراً عن أحاسيس النفس البشرية في جميع حالاتها : في يأسها وأملها ، في قلقها وهدوئها ، في صدها ووصولها ، في بعده . وقربها . يقول :

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدتها نظراً [مجزوء الوافر]
إذا ما الليل مـال عليّ كـ بالإظلام واغتكراً
ودج فلم يكن قمراً فأبوزها تكن قمراً (3)

ويقول:

يا من يسائل عن فوزٍ وصورتها إن كنت لم ترها فانظر إلى القمر (4) [البسيط]
ثم إن جلّ شعره كان غزلاً (5) ، وكان أكثره يتخذ مادة للغناء ، وقد أثر الغناء في لغة شعر الغزل فأكثر المغنين والمغنيات كانوا من الجوّاري والرقيق ، وطبيعي أن يضطر الشعراء إلى صراحة شعرهم في أسلوب سهل واضح ، حتى تستطيع هذه العناصر الأجنبية أن تفهمه ، وتحفظه بسرعة ، ثم تديعه بين الناس . (6) ويضاف إلى ذلك أن أكثر شعر العباس الغزلي كان يكتبه على شكل رسائل ترسل إلى محبوبته (فوز) مع الرسل . وهذا واضح من قوله :

هذا كتابٌ نحوكم أرسلتهُ يبكي السميعُ له ويبكي من قرا [الكامل]
فيه العجائبُ من محبِّ صادقٍ أطفاهُ حبُّك يا حبيبةً فانطفا
وصبرتُ حتى عيل صبري كلُّهُ وهويتكم يا حبّ نفسي للشوق
وكتمتُ حبِّك فاعلمي واستيقني والحبُّ من غيري فديتُك قد أبى
مني السلامُ عليكم يا منيَّي عددَ النجوم وكلَّ طيرٍ في السما (7)

(1) _ ديوانه ، ص 26 .

(2) _ نفسه ، ص 133 .

- (3) _ نفسه، ص 195_196 .
 (4) _ نفسه، ص 209 .
 (5) _ الاصفهاني، الأغاني ، 8 / 15 .
 (6) _ موافي ، عثمان ، التيارات الأجنبية في الشعر العربي ، ص 360 .
 (7) _ ديوانه ، ص 39_40 .

ولغة هذه الرسائل لغة سهلة واضحة لا ترتفع كثيرًا عن لغة العامّة ، ولا عن أسلوبهم وقد أثرت لغة هذه الرسائل بالإضافة إلى الغناء على شعر الغزل في هذا العصر .

وكان العباس بن الأحنف يطلب اللفظ السهل ، والمعنى الجميل ، المتصل بالنفوس جميعًا ، المشترك بها ، لا يتعالى عن الناس . وفيه رقة بالغة ، وعذوبة قلّ أن تتوفر لشاعر .

وشعره على بساطته مشرق الديباجة ، يجيش طبعًا . وطريقته في الشعر ومذهبه هما طريقة أبي العتاهية ومذهبه (1) ، ويتضح الشبه بينه وبين أبي العتاهية في قوله :

إِنَّكَ لَا تَعْرِفِينَ مَا الْهَمُّ وَالـ	غَمٌّ وَلَا تَعْلَمِينَ مَا الْأَرْقُ [المنسرح]
أَنَا الَّذِي لَا تَنَامُ عَيْنِي وَلَا	تَرَقًا دُمُوعِي مَا دَامَ بِي رَمَقُ
أَحْرَمَ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ	نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مِنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كَأَنِّي دُبَالَةٌ نُصِبْتُ	نُضْرِيءَ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ (2)

أو قوله :

زَارَكَ فِي الْبُسْتَانِ طَيْفٌ طَرُوقُ	أَلَمْ مِنْ فَوْزٍ فَنَفْسِي تَتَوَقُّ [السريع]
يَا بِأَبِي الزَّوْرِ الَّذِي زَارَهُ	بَاتَ رَفِيقًا لِي فَنَعْمَ الرَّفِيقُ
يَا فَوْزُ قَدْ طَالَتْ بِكُمْ شِقْوَتِي	يَا فَوْزُ قَدْ حُمِلْتُ مَا لَا أُطِيقُ
وَالْمَرْءُ قَدْ يَهْزِقُ أَعْدَاوَهُ	مِنْهُ وَيَشْقَى بِالصَّدِيقِ الصَّدِيقُ
لَا خَيْرَ فِي حُبِّكُمْ إِنَّنِي	نَوْمِي أَسِيرٌ وَبِكَائِي طَلِيقُ
وَكَرْبَتَا مِنْ حَرِّ هَذَا الْهَمَى	كَأَنَّمَا فِي الْجَوْفِ مِنْهُ حَرِيقُ
وَاعُولَتَا مِنْ حَزَنِ دَاخِلِ (3)	وَمِنْ زَفِيرٍ بَعْدَهُ لِي شَهِيْقُ
لَا يَهْتَدِي قَلْبِي إِلَى غَيْرِكُمْ	كَأَنَّمَا سُدَّ عَلَيَّ الطَّرِيقُ (4)

(1) _ البهبيتي ، نجيب ، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، دار الفكر ، ط 4 ، (د . ت) ، ص 403 .

(2) _ ديوانه ، ص 271 .

(3) _ العولة : رفع الصوت بالبكاء والصياح .

(4) _ ديوانه ، ص 269 .

عندما تقرأ هذه الأبيات تجد طريقة أبي العتاهية في قرب اللفظ وسهولته واستوائه ، وتجد المعاني المستخلصة من واقع الحياة ، تتثال عليه انثيالاً لا يتكلف استحضارها ، ولا يتصنع في صوغها ولا يحمل الناس ما لا يُطاق في فهمها ، إلا أنه أكثر ميلاً إلى العلو وإن أخفت غلوه رفته وعذوبته (1) ومن ذلك قوله :

ما عليها لو أنها أدنت لي في كتابٍ؟ فقد نهتني مرارا [الخفيف]
 حاذرت أن ترق لي فهي لا تز داد إلا تباعدًا ونهلا
 أيها الراقدون حولي أعينوا ني على الليل حسبةً وائتجارا
 حدثوني عن النهار حديثاً أو صفوه فقد نسيت النهار(2)

ومن معجم لغة الغزل استعمال الشعراء ألفاظاً مثل : " عبدك " و " سيدي " و " سيديتي " و " أميرتي " و " مولاتي " وخاصةً عند أبي نواس ، والعباس بنت الأحنف ، وبشار ، وعكاشة العمي (3) ومن الأمثلة على هذا ما جاء في قول العباس :

بخلت عليّ " أميرتي " بكتابها وتبدلت بصدودها وحجابها (4) [الكامل]

وقوله:

بالله يا " سيديتي " لا تغضبي من غضبي (5) [مجزوء الرجز]

ويقول :

حبُّ الحجازية أبلَى العظام والحبُّ لا يعلقُ إلا الكرام [السريع]
 سيديتي سيديتي إنّه ليس لما بالعاشقين اكتنم
 سيديتي سيديتي إنني أعجزُ عن حمل البلياء العظام
 سيديتي سيديتي فاسمعي دعوة صبّ عاشقٍ مستهام(6)

- (1) _ البهبيتي ، نجيب ، تاريخ الشعر العربي ، ص 404_405 .
 (2) _ ديوانه ، ص 200 .
 (3) _ بكار : يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 364 .
 (4) _ ديوانه ، ص 100 .
 (5) _ نفسه ، ص 102 .
 (6) _ نفسه ، ص 334_335 .

اجتمع أبو نواس والعبّاس بن الأحنف فاستنشد أبو نواس العبّاس ، فأنشدته الأبيات السابقة ، فقال له أبو نواس : " لقد خَضَعْتَ لهذه المِراءَة خضوعاً ظننْتُ مع هـ . ألك تموت قبل تم ام القصيدة " . (1) يقول :

زعموا لي أنّها صارت تُحَمِّمُ ابئسَى الله بهذا من زعم [الرمل]

أيت بي شكواك يا سيدي ولك الأجر وإن طال السقم (2)

مثل هذه الألفاظ لم يُقصد بها معانيها الحقيقيّة بغير ما تدلّ على إغراق في المجاملة والتطرّف والميل إلى الرقة والتلطّف .

فظاهرة المجاملة والرقة في المخاطبة عند شعراء الغزل واضحة ، وكثيراً ما نقع عليها في شعر ابن الأحنف ، يقول :

أخلفت يا سيدي وعدي نعم وقد غيرت من بعدي [السريع]

وها أنا من بعدكم لم أزل في دولة الأحران والوجد

شتان يا سيدي بيننا شتان من ودائكم ودي (3)

لم تكن هذه الأساليب مألوفة في شعر الأقدمين وغزلهم ، بينما كثر استعمالها عند شعراء هذا العصر ، بسبب التطور الاجتماعي لحياتهم ، وشيوع الرقة والذمات بينهم . واستخدم الشعراء في غزلهم ما يشيع من مذاهب المتكلمين ومصطلحاتهم (4) ، والعبّاس ابن الأحنف من الشعراء الذين ضمّنوا هذه الأساليب غزلهم وأشار إلى مشكلة القدرية في غزله مستعملاً المصطلح (محمولاً على القدر) .

أخفي الهوى وهو لا يخفى على أحدٍ إنّي لمستترّ في غير مستترٍ [البسيط]

فأكتبوا أو أقلوا من ملامئكم فكل ذلك محمولٌ على القدر (5)

ويستحسن الجاحظ هذه الأساليب إذا كان القصد منها التطرّف والتملّح ، يقول : " وقد تحسّن أيضاً ألفاظ المتكلمين في مئس شعر أبي نواس وفي كلّ ما قالوه على التطرّف والتملّح " . (6)

(1) _ عبد الواحد ، مصطفى ، دراسة الحبّ في الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، 379/2 .

- (2) _ ديوانه، ص 333_334 .
 (3) _ نفسه، ص 151 .
 (4) _ الفريح ، سهام ، الجوّاري والشعر في العصر العباسي الأول ، شركة الربيعان ، الكويت ، ط1 ، 1981 ، ص 192_193 .
 (5) _ ديوانه ، ص 184 .
 (6) _ الجاحظ ، البيان التبيين ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، 1968م ، 98/1 .

ونلاحظ الظرف والرقة في لغة الغزل لتأثرها بالحياة المتحضرة الجديدة ، وبالتقافة الشائعة في ذلك العصر، فأصبحت مظاهر الحياة الطبيعية والاجتماعية تمدّم بصور جديدة لم تكن مألوفة عند القدماء ؛ لهذا استخرج الشعراء للورد لغة يفهمها المحبون ، وأكثروا من ذكره في أشعارهم ، وتحدثوا عن التفاح الذي لا يعادله شيء في هداياهم ، وقد وصفوا الخدود بأنها موردة ، والوجنات بأنها مضرجة ، والعباس من الشعراء الذين أكثروا في ذكره ، يقول :

ذكرتك بالتفاح لما شممتُهُ وبالزّاح لما قابلت أوجهُ الشّرْبِ [الطويل]
 تذكّرتُ بالتفّاح منك سَوَافًا وبالزّاح طعمًا من مقبلك العذْبِ (1)

ويقول :

وأحبُّ التفّاح والوردَ حتّى لو ورّنتيه بالجمال ورّنتها [الخفيف]
 أشبها ريقها ونكهة فيها فهما ينبئان بالطيب عنها! (2)

ويقول :

بيضاء في حُمُر الثّيابِ كوردةٍ بيضاء بين شقائق النعمان [الكامل]
 تهتّرتُ في عيدِ الشّبابِ إذا مشّت مثل اهتزازِ نواعمِ الأغصانِ (3)

ويقول :

[الخفيف] إن دخلتُ البستانَ أذكرني ريحِ حُكِ ريحِ النّسرين والتّفاحِ (4)

إنّ صورة الورد والتّفاح والبساتين ، على ما فيها من حسّية ، هي في الحقيقة تستحيل إلى صور رمزية روحية رفيعة ، فيها معنى الإحساس بالجمال المجرد من الغاية ، الجمال في صورته التامة التي تقترب من صور الشعراء العذريين .(5)

(1) _ ديوانه ، ص 89 .

- (3) - نفسه ، ص 346 .
 (4) _ نفسه ، ص 232 .
 (5) _ نفسه ، ص 235 .
 (6) _ نفسه ، ص 237 .

إنَّ القارئَ لذيوان العباس بن الأحنف يقع على كثير من الألفاظ التي تدلّ على رقيّ المجتمع في التّعامل مع المرأة ، وكثيراً ما نفع في شعره على مثل هذه الألفاظ : حياتي ، حبيبتي ، أميرتي ، أميري ، مولاي ، مولاتي ، عسلي ، سكرّي ، دُرّتي ، ذهبي ، سيّدة النَّاس ، ديباجة الحُسن ، زهر الملاحه والجمال ، سيدتي ، يقول العباس لمحبيته :

يا عسلي يا سكرّي يا درّتي يا ذهبي [مجزوء الرجز]
 بالله يا سيّتي لا تغضبي من غضبي (1)

ويقول :

مرحباً والله حقاً بحبيبي وأميري (2) [مجزوء الرمل]

ويقول :

فليتّ أميرتي جادت بأخرى فكانت بعض ما يُكا الجروحا (3) [الوافر]

ويقول :

أخلفتها وعدّها وجئتكم فعندنا يا حبيبتي غضبت (4) [المنسرح]

ويقول :

بخلت عليّ أميرتي بكتابها وتبدلت بصدودها وحجابها (5) [الكامل]

ويقول :

يا حياتي لقد هممت بأنّ ألبس ثوبين من ثياب الطّبيب (6) [الخفيف]

وهي مولاته ، يقول :

إنّ كنت مولاك فإنّ التي قد كتبت فيك لمولاتي (7) [السريع]

- (1) _ ديوانه ، ص 102 .
 (2) _ نفسه ، ص 218 .

(3) _ نفسه ، ص128 .

(4) _ نفسه، ص120 .

(5) _ نفسه، ص100 .

(6) _ نفسه ، ص74 .

(7) _ نفسه ، ص120 .

وهي سيّدة النَّاس ورامشنة الآس ، يقول :

أيا سيّدة النَّاسِ لقد قَطَّعْتَ أَنْفَاسِي [الهج]

ويا ديباجةَ الحُسْنِ ويا رامشنةَ (1) الآسِ (2)

وهي زهر الملاحه والجمال :

أيا زَهْرَ المَلاحَةِ والجمالِ فوَأدُّكَ من سَقامِ الحَبِّ خال(3) [الوافر]

ليس من شك في أنّ المجتمعات التي كان يغشاها العباس كانت تفرض عليه التودد الدائم من ناحية . والتبسّط الأنيق من ناحية أخرى . وهذا التبسّط بصفة خاصّة هو الذي كان يفرض عليه اختيار ما لان من الألفاظ ، وما رقّ وعذب . يقول :

أشْرَقَ "الميدانُ" فاستنكرتُهُ كيف لا أعرفُ تلكَ الطُّرُقَا [الرمل]

خَبَّرُونِي أنها مرّت بهِ قُلْتُ : مِنْ ثَمَّ أراهُ مُشْرِقًا (4)

وهذا هو السهل الممتع ، ومن قبيلها الذي يقترب من قولنا "تسير في طريق مسدود" يقول :

لا يهتدي قلبي إلى غيركم كأنَّ ما سُدَّ عَلَيهِ الطَّرِيقُ (5) [السرّيع]

ومن قبيلها أيضا ممّا يقترب بهِ إلى حدّ الشّعبيّة ، قوله :

[البسيط] يا لَيْتَ ما بِكَ من سَقَمٍ تَحَوَّلَ بي إنِّي إلى ذاكِ يا سُوْلي بأشواقِ (6)

[البسيط] وقوله : وهل تعرفين العلامات التي وُصِفَتْ إياكِ أَعْنِي بما عَرَّضْتُ إياكِ (7)

أما التّعبير التّرحيبيّ بقُدومٍ من سفر فهو لا يتغيّر ، يقول :

مرحبًا بالأحبةِ القادمينا فلَعَمْرِي لَطالَ ما أوحشونا (8) [الخفيف]

وقوله الذي يصل إلى أعلى درجات الإعجاز في اليسر هو :

مرحبًا والله حقًا بحبيبي وأميري [مجزوء الرمل]

وبمن شوقي إليه شفَّ جَهري وضَميري (9)

(1) _ رامشنة : ورقة آس لها رأسان .

(2) _ ديوانه ، ص235 .

(3) _ نفسه، ص292 .

(4) _ نفسه ، ص267 .

(5) _ نفسه، ص269 .

(6) _ نفسه، ص 273 .

(7) - نفسه ، ص 281 .

(8) _ نفسه، ص 352.

(9) _ نفسه ، ص 218 .

وقد امتلأ قاموس ابن الأحنف بألفاظ الولوج وما يجري مجراها ، وهذا يتضح في قوله :

وَاهَا لِهَذَا الرَّسُولِ لَوْ بَلَغَ الْـ تَسْلِيمٌ أَوْ كَانَ يَحْمَلُ الْكُتُبَا (1) [المنسرح]

وقوله :

وَاهَا لَهُ مِنْ زَائِرٍ مُؤَنَسٍ فَرَجَ عَنِّي بَعْضَ أَحْزَانِي (2) [السريع]

وقد أكثر الشاعر من استخدام لفظ الويل ، فقال :

وَيْلِي وَلَا لِي ثِقَةٌ أَشْكُو إِلَيْهِ كُرْبِي (3) [مجزوء الهمز]

وقوله :

الْوَيْلُ لِي إِنْ قُمْتُ أَطْلُبُ وَصَلَهَا وَالْوَيْلُ لِي إِنْ لَمْ أَقُمْ بِطَلَابِهَا (4) [الكامل]

وقوله :

[مجزوء الكامل] (5) وَيَلِي عَلِي غَدَارَةٌ حَلَّتْ عَلَيْنَا بِالسَّوَادِ

وقوله :

وَيْلِي عَلِي الْخَالِ عَلِي خَدَّهَا الْـ أَيَسِرُ وَالْخَالِ الَّذِي بِالذَّرَاعِ (6) [السريع]

وقوله :

[فَيَا بَرَحَ أَحْزَانِي ! وَيَا دَرَّ عِبْرَتِي وَيَا وَيَلْتِي مَاذَا لَقِيْتُ وَيَا لَهْفِي (7) [الطويل]

وقوله :

وَيْلِي عَلِي الشَّادِنِ ذِي الْقَرْطُقِ أَبْلَجَ مِثْلَ الْقَمَرِ الْمُشْرِقِ (8) [السريع]

وقوله :

آه مِنْ حُبِّكَ وَيَلِي هُوَ لِي مُرُّ الْمَذَاقِ (9) [مجزوء الرمل]

(1) _ ديوانه ، ص 67 .

(2) _ نفسه ، ص 361 .

(3) _ نفسه ، ص 75 .

(4) _ نفسه ، ص 101 .

(5) _ نفسه ، ص 153 .

(6) _ نفسه ، ص 243 .

(7) _ نفسه ، ص 255 .

(8) _ نفسه ، ص 272 .

(9) _ نفسه ، ص 276 .

وقوله :

دَعْتُهُ بِالْوَيْلِ فَلَبِيْ لَهَا مُسْتَمْلِحًا لِلْوَيْلِ مُسْتَحْسِنًا (1) [السريع]

وقوله :

وقد أُسْرِفَتْ فِي ظَلْمِي فَوَاعَوْثًا مِنَ الظُّلْمِ (2) [الزهج]

وقوله :

وَأكْرَبْتُ مِنْ مَرِّ هَذَا الهَوَى كَأَنَّمَا فِي الجَوْفِ مِنْهُ حَرِيْقٌ (السريع)
(3) وَاعْوَلَهْطَ مِنْ حَزْنٍ دَاخِلٍ وَمِنْ زَفِيرٍ بَعْدَهُ لِي شَهِيْقٌ

ويستخدم ما جرى على ألسن الشعراء في عصره وغير عصره كلمة "ويح" فقال :

ماذا لقيت من الهوى؟ ويح الهوى لو أَنَّ نَفْسِي فِي يَدِيهِ لَكَبَا بِهَا (4) [الكامل]

وقال :

وَيْحَ هَذَا الهَوَى لَقَدْ مَلَكَ النَّا سَ وَصَارَتْ لَهُ عَلَيْهِمُ بُنُوْدُ (5) [الخفيف]

وقال :

يا وَيْحَ معشوقِيْنَ مَا تَا وَلَمْ يُدَاوِيَا عِشْقَهُمَا بِاجْتِمَاعِ (6) [السريع]

وقال :

فِيَا وَيْحَ مِنْ كَلَفَتْ نَفْسُهُ بِمَنْ لَا يُطِيْقُ إِلَيْهِ سَبِيْلًا (7) [المتقارب]

وقال :

يا وَيْحَ مِنْ عَلِقَ الأَحِبَّةَ قَلْبُهُ حَتَّى إِذَا ظَفَرُوا بِهِ قَتَلُوهُ (8) [الكامل]

(1) _ ديوانه ، ص 350 .

(2) _ نفسه ، ص 333 .

(3) _ نفسه ، ص 269 .

(4) _ نفسه ، ص 101 .

- (5) _ نفسه ، ص 136 .
 (6) _ نفسه ، ص 243 .
 (7) _ نفسه ، ص 298 .
 (8) _ نفسه ، ص 369 .

وفيما مرّ من أبيات إشارة إلى توجّع ابن الأحنف واسترحامه في عشقه ولكنّه لا ينسى أن يتمنّى ما يريد في عذابه وشقائه ، فقد تردّدت في شعره كلمة "طوبى" (1) كثيراً حتّى أصبحت ممّا يميّز ديوانه ، يقول :

ألا إنّ شمس الأرض فيما يُقال لي تَشَتَّتْ على شمسٍ فطوبى لها طوبى (2) [الطويل]

ويقول :

فطوبى لمن يُغني من اللّيلِ غفوةً وطوبى لمن يُهنيه سَوْغُ شرابٍ (3) [الطويل] ويقول :

طوبى لثوبٍ لها إني لأحسدهُ إذا علاها وشدَّ الثوبَ أزرارُ (4) [البيسيط] ويقول :

طوبى لعينٍ رأَت فوزاً إذا اغتمضت وقرت العينُ منها كلَّ تقريرٍ (5) [البيسيط] ويقول :

فطوبى لمن أغفى من اللّيلِ ساعةً وذاقَ اغتماضاً إنّ ذاك لنا عِمُ (6) [الطويل]

لقد جمع العباس في شعره كلّ الشّعْر الغزلي عند العرب من حيث المضمون وأضاف إليه أشكالاً مبتكرة معتمداً على الحوار في بعض القصائد وهو يدير الحوار بين عينيه وقلبه حيناً ، وبين نفسه حيناً آخر ، على نحو ما نرى في قوله :

بَكَتْ عيني على جسْمي وعيني آفةُ الجِسْمِ (7) [الهجج]

(1) _ الطوبى : الغبطة والسعادة ، الخير والخيرة ، الحسنى ، يقال : " طوبى لك أي : " لك الحظ والعيش الطيب " و " طوبى " في التنزيل

العزير : " طوبى لهم " : كلّ ما يستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء ، وعز بلا زوال ، وغنى بلا فقر .

(2) _ ديوانه ، ص 41 .

(3) _ نفسه ، ص 66 .

- (4) _ نفسه، ص 173 .
 (5) _ نفسه، ص 179 .
 (6) _ نفسه، ص 321 .
 (7) _ نفسه ، ص 332 .

وقوله :

كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي؟ (1) [السريع]

أو يقول بطريقة مبتكرة :

حدثت قلبي كاذباً عنكم حتى استتحت عيناى من قلبي (2) [السريع]

وفي حوار آخر يقول :

إذا لمت عيني اللتين أضرتا بجسمي فيكم قالتا لي : أم القلب [لطويل]

فإن لمت قلبي قال:عيناك هاجتا عليك الذي تلقى ولي تجعل الذئب

وقالت له العينان : أنت عشقتها فقال : نعم ، أورتت ماني بها عجباً

فقال له العينان:فاكف عن التي من البخل ما تسقيك من ريقها عذبا

فقال فؤادي عنك : لو ترك القطا لنام وما بات القطا يخرق السهبا (3)

إن إجراء الحوار بين القلب والعين وتجسيده ما وجعلهما يتحدثان ويتعاطبان عتاباً رقيقاً كأنهما

إنسانان سويان ، ومن هنا فقد انفرد العباس بهذا المعنى دون سائر شعراء عصره بل دون سائر

شعراء العصور الذين أتوا قبله (4) .

اعتمد العباس بن الأحنف في أسلوبه الشعري على القصّة والحوار يلتقي في هذا الأسلوب مع

عمر بن أبي ربيعة ، ومن هنا جاء تشبيه بعض الباحثين له بعمر ، والقصّة عنده عملية استرجاع

لمواقف قديمة وقعت لهم مع المحبوبة ، يقول :

إنّ التي حدثتك قد كذبت وأدركت عندك الذي طلبت [المنسرح]

استفهمي قصتي وقصتها أخبرك عنها بفبح ما صنعت

أقبلت أسعى إليك مكتتماً فأعرضت دونكم وقد علمت

أن ليس شيء في الأرض يعدلكم عندي وتوكيد أمرنا شهدهت

فقلت كالمشتهي لِمَا ذكرت انطلقني أتبعك ، فانطلقت

أخلفتها وعددها وجنتكُم فعندها يا حبيبتي غضبت

فأقسمت لا تتأل جاهدة تُفسد ما بيننا ، وقد فعلت (5)

(1) _ ديوانه ، ص 250 .

- (2) _ نفسه ، ص 105 .
 (3) _ نفسه ، ص 90_ 91 .
 (4) _ حاطوم ، عفيف ، الغزل في العصر العباسي الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 1 ، 1996م ، ص 51 .
 (5) _ ديوانه ، ص 119_ 120 .

والقصّة عند ابن الأحنف جزء من القصيدة في معظم حالاتها ، بل هي تكمل القصيدة في الوقت الذي تزيدها جمالاً ، يقول في عرض موقف طالما أحبّ الشعراء ترديده سواء أحبّوا أم لم يُحبّوا :

فَجُنَّ وَجَاعَتْ فِي الظَّلامِ تَأْطُرًا كَمَ ثَلَّ المِها أَقْبَلْنَ يمشينَ في الوَحْلِ [الطويل]
 فباتت تُتاجيني وباتت فتاتها تُنادِمُ عبه الله والرجل الذُهلي
 فلما أضاء الصُّبحُ قُمنا جماعةً لِتَشْيِيعِها نُخفي خُطانا على رِسلِ (1)

إنّ الأبيات السابقة أشبه بلوحة جميلة ، وقد جاء بعدها بصورة تحمل جانباً مما كان يصبو إليه . يقول :

إذا الناسُ قالوا: كيف فوزٌ وعهدُها خَرِسْتُ حياءً لا أمرٌ ولا أُحلي [المنسرح]
 فكوني كَلَيْلى الأَحْلِيَّةِ في الهوى وإلا كُلبنى أو كَعَفَراءُ أو جُملي (2)

يبدو الحوار دائماً قصيراً ، والمواقف التي يسترجعها الشاعر موجزة ، لا إسهاب فيها ولا تفصيل وسبب هذا ميل ابن الأحنف إلى المقطوعات الشعرية التي لا تستوعب تفصيلات ، ولا تتسع لحوار طويل ، فضلاً عن أن الشعر عنده كان تكتيفاً لإحساس متفجّر ، (3) يقول :

جاريةٌ أعجبه! حُسْنُه! ومثلها في الناس لم يُخْلَقِ [السريع]
 خَبَرْتُها أَنّي محبٌّ له! فأقْبَلَتْ تضحكُ من منطقي
 والتفتتْ نحو فتاةٍ له! كالرَّشأِ الوسنانِ في قُرْطَقِ (4)
 قالت لها: قولي لهذا الفتى انظُرْ إلى وجهك ثم اعشَقِ (5)

(1) _ ديوانه ، ص 290 .
 (2) _ نفسه ، ص 290_ 291 .

- (3) _ سعد الدّين ، ليلي ، العباس بن الأحنف ، ص 170 .
 (4) _ الرّشأ : ولد الظبية. الوسنان : النعسان .القرطق :معرب لباس .
 (5) _ ديوانه ، ص 277_278 .

وقد ينسج الحوار قصّة قصيرة ، فيقول :

قلْتُ غداً السَّبَبُ إِذْ قِيلَ لِي إِنَّ التّي أَحَبَّبْتَهُ. شاكِيهِ [السريع]
 يا أَيُّها القائلُ : ما تشتكِي؟ قال : بها عينٌ ، تُرى باديهِ
 فقلْتُ : عِندي إِنَّ تَشَأَ رُفِيهِ لا تَقْصِدُ العَيْنُ لَهُ. ثانيهِ
 قرأتُ " حاميِم " وَعَوَّدْتُهُ. "بالطور" طورًا ثمّ "بالعاشية"
 يا ربّ فاسمع واستجب دَعَوَتِي عَجَلْ إلى سيّدتي العافية(1)

ويُجَوّل أسلوب الرهود والحوار عند ابن الأحنف في مقطوعاته الشعريّة إلى مجموعة من الصّور الخاطفة التي تترك للقارئ فرصة تخيل الموقف كاملاً ، على نحو ما نرى في قوله :

تقولُ وقد كَشَفْتُ المِرْطَ عنها وذلك لو ظفِرتُ به الخلودُ(2) [الوافر]
 تناول ما بدا لك غيرَ هذا ففيما دون ذا قُتِلَ الوليدُ(3)
 أرى طَرْفي يُشَوِّقُنِي إليه. كأنَّ القلبَ يعلمُ ما أُريدُ(4)

ومن أبرز ظواهر الأسلوب في غزل القرن الثاني ميل الشعراء إلى الإقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف لفظاً ومعنى ، ونلمح في شعر العباس بن الأحنف حوار مع القرآن الكريم ، فهو يستحضره في بعض سياقاته كأن يقسم في موضع القسم ، فيقول :

أما والذي ناجى من الطورِ عبده وأنزل فرقاناً وأوحى إلى النحلِ (5) [الطويل]

أو يوظف بعض قصص القرآن ، عن طريق الإيحاء والإشارة في بعض معانيه ، كالحديث عن قصّة داود وأخباره في القرآن ، ومنها أن الله الآن له الحديد . يقول :

الآن لداودَ الحديدَ بقدره مليكٌ على تيسيرِ قلبِكِ قادرُ(6) [الطويل]

(1) _ ديوانه ، ص 377 .

(2) _ المِرْط : كساء من خَزّ أو كتان غير مخط .

(3) _ الوليد : أراد الوليد بن يزيد الخليفة الأموي وكان منهما في اللهور .

خلع الشّاعر إزار المحبوبة يريد أن ينالها، وفي ذلك قمة سعادته بل خلوده لكن تردّ المحبوبة قائلة : كل ما تشتهيهِ عدا الذي

- أنت تقصده _ ما دون الإزار _ وإلا كان مصيرك مصير الوليد الذي أورده المرحون حقه .
 (4) _ ديوانه ، ص 158 .
 (5) _ نفسه ، ص 285 .
 (6) _ نفسه ، ص 213 .

فالعباس يريد أن ينعث قلب صاحبتة بأنه جامد قاسٍ لا تجيش عواطفه كالحديد لا يلين ،
 ويدعو الله أن يُلين بقدرته هذا القلب كما الآن لداود الحديد في قوله تعالى :
 { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ } (1)

ويشير إلى داود أكثر من مرة في سياقاته ، فهو مرة يقول في معرض افتتاحه بمحبوبته
 كافتتان داود بزواج أحد رجاله وزواجه منها . يقول :

فَلَأْتِي أَفْتَنُ لِلْقُلُوبِ مِنَ النَّبِيِّ عَرَضَتْ لِدَاوُدَ النَّبِيِّ الْمَهْتَدِي [الكامل]
 فَإِذَا هَبَطَتْ إِلَى بِلَادٍ لَمْ تَوَلَّ تَجْرِي كَوَاكِبُ أَهْلِهَا بِالْأَسْعَدِ
 وَلَقَدْ كَتَبْتُ مَعَ الرَّسُولِ وَإِنِّي لأراه أَنجَحَ مِنْ كِتَابِ الْهُدَى (2)

يوظف قصّة الآية في قوله تعالى : { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا
 عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعِيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا
 بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تَسَنُّعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً
 وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ
 إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } (3)

ويشير مرة أخرى إلى هذه القصّة ، فيقول :

أَلَمْ تَوَدَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ هَوَتْ بِهِ جِبَالُ الْهَوَى فِيمَا سَمِعَتْ وَأَسْمَعُ [الطويل]
 وَمَا زَالَ لِلنَّاسِ الْهَوَى ذَا عِدَاوَةٍ مُضِرًّا بِهِمْ مِذَّ عَهْدِ عَادٍ وَتُبَّعَ (4)

- (1) _ سورة سبأ ، 30 .
 (2) _ ديوانه ، ص 147 .
 (3) _ سورة ص ، 21-24 .
 (4) _ ديوانه ، ص 240 .

ويقول ذاكراً " النَّقَائِثُ فِي الْعَقْدِ " :

إِنِّي لِأَحْسَبُ وَالْأَوْدَارُ غَالِبَةٌ أَنِّي وَإِيَّاكَ مِثْلُ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ [البسيط]

حتى سَعَتْ بَيْنَنَا يَا فَوْزُ سَاعِيَةً مشهورةٌ عُرِفَتْ بِالنَّفْتِ فِي الْعُقْدِ (1)
 وتتردد كثير من ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحاته وتراكيبه في شعره ، مثل :القربان ، والتأفلة
 ، وذنب مغفور، ولا تُبقي ولا تذر، والنَّفَاتَاتِ فِي الْعُقْدِ ، وقارون في قوله :
 وَيَا رَبِّ عَذِّبْهَا بِمَا بِي مِنَ الْهَوَىٰ وَلَا كَالَّذِي عَدَّبْتَ قَارُونََ بِالْخَسْفِ (2) [الطويل]
 فالعبّاس يحيل إلى قصة قارون في القرآن والتفسير كما أحال إلى داود وسليمان ، ويستدعي
 في ذهن السّامع والقارئ معنى ما يريد أن يبلغه من هذا الحوار أو التّناسّص ، والمقابلة بين سياق
 معناه ، وسياق المعنى في النّصّ القرآني .
 والأمثلة على تأثر العبّاس بالقرآن الكريم كثيرة ومنها تأثره بالآية الكريمة في قوله تعالى :
 {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} (3)
 ويقول :

خَفَضْتُ لِمَنْ يَلُودُ بِكُمْ جَنَاحِي وَتَلْفَوْنِي كَأَنْتُمْ غَضَابُ (4) [الوافر]
 والآية الكريمة : {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} (5). واضحة في قوله:
 كُلُّ أَرْضٍ حَلَّتْ فِيهَا فَمَا يَجِدُ تَاجُ سَكَانِهَا إِلَىٰ مِصْبَاحِ (6) [الخفيف]
 والآية الكريمة : {أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} (7)
 والآية : {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} (8) واضحتان في قوله :
 اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ جُهْدِي، وَلَكِنْ سَعْيِي غَيْرُ مَشْكُورٍ (9)

[البسيط]

- (2) _ نفسه ، ص256.
 (3) _ سورة الاسراء ، 24.
 (4) _ ديوانه ، ص64.
 (5) _ سورة النور، 35 .
 (6) _ ديوانه ، ص127 .
 (7) _ سورة الأعراف ، 68 .
 (8) _ سورة الإنسان ، 22 .
 (9) _ ديوانه ، ص180.

أما قوله :

[الطويل] (1) سَلُّوا عَن قَمِيصِي مِثْلَ شَاهِدِ يُوسُفَ فَإِنَّ قَمِيصِي لَمْ يَكُنْ قَدًّا مِّنْ قُبُلٍ

في البيت السابق ويكر العباس ما نُسب إليه من تعرّضه للفتاة " يُمن " ويتصل من التهمة الكاذبة، فيذكرنا بقصة سيدنا يوسف _ عليه السلام _ مع امرأة عزيز مصر، ويقوله تعالى :

{إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَادِبِينَ } (2)

ويقول الله _ تعالى _ في الآية الكريمة :

{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } (3)

وقال العباس :

ولو أن اللقاء من قبل أن ير تدّ طرفي رأيتُ ذاك بعيدا (4) [الخفيف]

ويقول -سبحانه وتعالى- في طعام بني إسرائيل :

{وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ } (5)

فقال العباس :

لكنني جربتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحد (6) [الكامل]

ويتأثر العباس في قوله - تعالى - :

{ثُمَّ لَسَأَلْنَا يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } (7)

فيقول العباس :

وتشرّفت من قصرها فرأيتها فلاسألن عن النعيم الأكبر (8) [الكامل]

(1) _ ديوانه ، ص 289 .

(2) _ سورة يوسف ، 26 .

(3) _ سورة النمل ، 40 .

(4) _ ديوانه ، ص 162 .

(5) _ سورة البقرة ، 61 .

(6) _ ديوانه ، ص 169 .

(7) _ سورة التكاثر ، 8 .

(8) _ ديوانه ، ص 188 .

وفي قوله -سبحانه وتعالى- : {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ } (1)

وقوله -تعالى-: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ } (2)

ويقول العباس :

[الخفيف] فتمنيتُ أن يغشيني الد له نعاسا لعل عيني تراك (3)

وهناك تأثيرات مسيحية في شعر العباس وهي معجزات وردت في القرآن الكريم ولكن ليس بالإسهاب الذي ورد في الأناجيل من قبل . فالعباس يذكر من معجزات عيسى الإبراء باللمس ، يقول العباس:

كانت إذا جاءها المبتلي أبَراه من كفها اللّمس (4) [السريع]

واستخدم أفاظاً أخرى خاصة بالمسيحيين وتتضح في مثل قوله :

اعلمي يا ظلوم حقاً وإلّا فأنا كافرٌ أدِينُ الصّليبا (5) [الخفيف]

وقوله :

كذمية بيعة بالروم أضحت يُعظّم عند رؤيتها المسيح (6) [الوافر]

[الطويل] كأنّ بقلبي كلّما هاج شوقه حراراتِ أقباسٍ تلوح لراهب (7)

(1) _ سورة الأنفال ، 11 .

(2) _ سورة آل عمران ، 154 .

(3) _ ديوانه ، ص 281 .

(4) _ نفسه ، ص 231 .

(5) _ نفسه ، ص 88 .

(6) _ نفسه ، ص 126 .

(7) _ نفسه ، ص 56 .

المبحث الثاني : * الصورة الشعرية عند العباس :

كان العباس بن الأحنف شديد الطلب للصورة الشعرية ، يعيد النظر فيها ، ويبحث في صندوق أصباغة على أفضل ألوان المحسنات ، كالتطابق ، والجناس ، والمشاكله على نحو ما نرى في قوله:

أُحْرِمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مِنْ عَشَقُوا (1) [المنسرح]

فالعَبَّاسُ هنا يطابق بين حرمانه من محبوبته ، ونوال غيره . يقول :

حَمَلْتُ الْهَوَى حَتَّى إِذَا قَمْتُ بِالْهَوَى خَرَزْتُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَثَقَلَنِي حِمْلِي (2) [الطويل]

هذا تصوير مبدع في قيامه بحمل الهوى ثم انكفائه على وجهه بثقله .

ويقول كذلك :

إِذَا تَعَمَّدْتُمْ جَاوَزْتُ بِأَبْكُمْ كَيْ لَا تَكُونُوا لِإِقْبَالِي وَإِدْبَارِي (3) [البسيط]

فهو بين إقبال وإدبار ولكن عن بعد ومجازة لدارها .

ويقول أيضاً :

إِنْ سَاعَكَ الدَّهْرُ بِهَجْرَانِهِ فَرِيماً سَرَّكَ أَحْيَاناً (4) [السريع]

لحظات الدهر إساءة حيناً وسرور حيناً آخر . يقول :

تَحَدَّثُ عَنَّا فِي الْوَجْهِ عَيْوُنَا وَنَحْنُ سَكُوتٌ وَالْهَوَى يَتَكَلَّمُ (5) [الطويل]

وحديث المحبين ولغتهم تقرأ في العيون ، وهي نافذة على القلب ، بينما المحبون سكوت .

يقول :

فَإِنْ سَاعَكُمْ مَا بِي مِنَ الضَّرِّ فَارْحَمُوا وَإِنْ سَرَّكُمْ هَذَا الْعَذَابُ فَعَذَّبُوا (6) [الطويل]

ويقول :

ظَلُومٌ تَرَى الْإِحْسَانَ مِنِّي إِسَاءَةً وَتُذْنِبُ أَحْيَاناً إِلَيْنَا وَتَعْضَبُ (7) [الطويل]

(1) _ ديوانه ، ص 271 .

(2) _ نفسه ، ص 288 .

(3) _ نفسه ، ص 175 .

(4) _ نفسه ، ص 361 .

(5) _ نفسه ، ص 323 .

(6) _ نفسه : ص 52 .

(7) _ نفسه ، ص 106 .

ويقول :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ (1) [السريع]

ويقول :

ظَلَمْتُ عَيْنَكَ عَيْنِي إِنَّهَا بَادَلَتْهَا بِالرُّقَادِ الْأَرْقَا (2) [الرمل]

ويقول :

ألا إنَّ أيامَ البلاءِ على الفتى طَوَالَ وأَيَّامَ السَّرورِ قِصارُ (3) [الطويل]

ويقول :

رُبِّمَا باعدَكَ الدَّه رُ وَأَدْنَتَكَ الأمانِي (4) [مجزوء الرمل]

ومن أمثلة المقابلة العذبة والطباق البارع ، قول العباس :

ومُسعدٍ جاءَ مسروراً بتهنئةٍ فلم يرمُ أن بكى حُزناً وعزاهُ [البسيط]

وشاربُ الحَبِّ ورُدَّ الموتِ غايتهُ وقد وَجدتُ أمرَ الحَبِّ أحلاه (5)

أو قوله :

يا ويح من علقِ الأحبَّةَ قلبه حتَّى إذا ظفروا به قتلوه [الكامل]

عزوا ومالَ به الهوى فأذله إنَّ العزيزَ على الدَّليلِ يتيه (6)

وقوله :

سَلَبْتَنِي من السَّرورِ ثيابا وكَسَّتَنِي من الهمومِ ثيابا [الخفيف]

كلِّمَا أغلقتُ من الوصلِ بابا فَتَّحتُ لي من المنيَّةِ بابا (7)

وقوله :

أصبحتُ أطوعَ خلقِ اللهِ كلِّهم نفساً لأكثرِ خلقِ اللهِ عصيانا [البسيط]

فلا كتابٌ ، فدَتَكَ النَّفسُ يُضحِكُنَا فقد أتانا كتابٌ منكِ أبْكانا (8)

(1) _ ديوانه ، ص 229 .

(2) _ نفسه ، ص 267 .

(3) _ نفسه ، ص 222 .

(4) _ نفسه ، ص 365 .

(5) _ نفسه ، ص 370 .

(6) _ نفسه ، ص 369 .

(7) _ نفسه ، ص 110 .

(8) _ نفسه ، ص 348 .

وقوله :

وصالِكُمْ صرَمٌ وحُبُّكُمْ قَلِي وعطفُكُمْ صدٌّ وسلْمُكُمْ حربُ [الطويل]

وأنتم بحمدِ اللهِ فيكم فظاظَةٌ فكلُّ دَلولٍ في جوانبِكُمْ صَعْبُ

إذا زرتُّكم فُلْتُم نَزوعَ وإن أدعُ زيارتُّكم يوماً يكن منكم عتبُ

فهجري لكم عتبٌ ووصلي لكم أذى فلا هجرُكم هجرٌ ولا حُبُّكم حبٌّ (1)

ولعلّ هذه الأبيات السابقة المشحونة بالمرارة جعلت العباس يأتي بالصفة وعكسها والخلة

ونقيضها ، ليرسم صورة واضحة المعالم لصاحبه الناكثة للعهد ، المتقلبة المزاج . ويقول :

أصدقتِ حسادًا وكذبتِ عاشقًا وليس سواءً عاشقٌ وحسودٌ (2) [الطويل]

ويقول:

قالت : مرضتُ فعدتُها ، فتبرمتُ وهي الصحيحة والمريض العائدُ (3) [الكامل]

أما الجنس فيأتي في المرتبة الثانية بعد الطباق في غزل العباس ، والقارئ لشعره يصادف شيئاً

من الجنس غير التام في مثل قوله :

قالت ظلوم سمية الظلم مالي رأيتك ناجل الجسم (4) [الكامل]

وقوله:

فلو قد تولى وسار الحبيبُ كان مكان دموعي دمُ [المتقارب]

وفي العشق كاسان مسمومتا ن طعُهما الصابُ والعقمُ

فإحداهما كأسُ هجرِ الحبيبِ وكأسُ الفراقِ هي الصيئمُ (5)

نرى جناساً ناقصاً في "ظلوم" و "ظلم" وفي "كان" و "مكان" و "دموع" و "دم" في البيت الأول.

ونصادف مراعاة النّظير في الأبيات الثّاني والثّالث .

ويصطنع العباس الجنس المعجز ، فيقول :

أصبحتُ أذكرُ بالريحانِ رائحةً منها فلننفسِ بالريحانِ إيناسُ [البسيط]

وأمنحُ الياسمينَ البغضَ من حذري عليكِ إذ قيل لي شطرُ اسمِهِ الياسُ (6)

(1) _ ديوانه، ص 61 .

(2) _ نفسه ، ص 157 .

(3) _ نفسه ، ص 138 .

(4) _ نفسه ، ص 319 .

(5) _ نفسه ، ص 319_ 320 .

(6) _ نفسه ، ص 232 .

وصف العباس بشيئين : " أولهما : سهولة الألفاظ واستهواؤها ، وثانيهما : غزارة الفكر " (1)

وفي غزارة الفكر تقول الدكتورة ليلي سعد الدين : " الغزارة الفكرية عند ابن الأحنف موقف حضاريّ

، لأنه لم يرتبط بأية فرقة من فرق الكلام في أيامه ، ولم يشغل نفسه بالفلسفة ، غير أنه كان يُعمل

ذهنه في صنعته الفنيّة ، وظهر أثر ذلك في الإسراف البياني الذي عمر به شعره.

وقد وُصف هذا الإسراف بالغلُو ، غير أنّ أحداً من عصره لم يشجبه لسببين هما : رفته التي كانت تقف إلى جانب ذلك الغلُو ، فضلاً عن أنّ الغزل نفسه لا يحلو إلاّ بالمبالغة " (2)

وقد صحّ فيه قول الأصفهاني : "وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبه ولطف " . (3)

ومن المبالغات التي لجأ إليها ابن الأحنف قوله :

يا من يسائلُ عن فوزٍ وصورتِها إن كنت لم ترها فأنظرُ إلى القمرِ [البسيط]
 كأنما كان في الفردوسِ مسكنها صارت إلى الناسِ للآياتِ والعبرِ
 لم يخلقِ اللهُ في الدنيا لها شَبهاً إني لأحسبُها ليست من البشرِ (4)
 وقوله:

شمسٌ ممثلةٌ في خلقٍ جاريةٍ كأنما كشحها طيُّ الطواميرِ (5) [البسيط]
 ليست من الإنسِ إلاّ في مناسبةٍ ولا من الجنِّ إلاّ في التّساويرِ (6)
 وقوله:

لما رأيتُ اللَّيْلَ سدَّ طريقَهُ عني وعذّبي الظّلامُ الرّاكِدُ [الكامل]
 والنّجمَ في أفقِ السّماءِ كأنهُ أعمى تحيّرَ ما لديه قائدُ
 ناديتُ من طردِ الرّقادِ بنومه عمّا أعالجُ وهو خلُوُ هاجِدُ
 يا ذا الذي صدع الفؤادَ بصدّه أنت البلاءُ طريقُهُ والتّالِدُ (7)

(1) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 15/8 ، 16 .

(2) _ سعد الدين ، ليلي ، العباس بن الأحنف ، ص 174 .

(3) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 8 / 15 .

(4) _ ديوانه ، ص 209 .

(5) _ الكشح : ما بين الخصرة ووسط الظهر ، وقيل : ما بين السرة ووسط الظهر . الطوامير: مفردا طامور وهو الصحيفة .

(6) _ نفسه ، ص 178 .

(7) _ نفسه ، ص 139 .

تجتمع الصّورة إلى الصورة فتلتئمان وتتعاروان على توضيح المعنى، وإصابة الجمال ، وقد بلغ ذلك حدّه في التّعبير الموحى الذي لا ينقصه الجمال اللفظي ، ولا المطابقة والجناس ، وبرغم ذلك لا نحسّ تكلفاً ولا عنثاً .

وفي بعض شعره يستخدم معانيه كأصحاب البديع القدماء . يقول :

قالت: وإنسانُ ماءِ العَيْنِ في لَجَجٍ يكادُ ينطقُ عن كَرِبٍ وَوَسْوَاسٍ [البسيط]
 يطفو ويرسو غريقاً ما تكفكفُهُ كَفٌّ فَيَأْ لَكَ من طَافٍ ومن راسِ
 عَبَّاسٍ لَيْتَكَ سِرْبَالِي على جَسَدِي أو لَيْتَنِي كُنْتُ سِرْبَالاً لِعَبَّاسٍ (1)

والعبّاس يكادُ يذوبُ لِيناً ورِقَّةً ، ويظهر في تشبيهاته أثر الماضي العريق ، ومما يدلّ على أنّه يذهب في فنّه مذاهب شتى معقّده ، قوله :

فَمَا أَخو سَفَرٍ في البِيدِ مُرْتَهِنٍ قد كان في رُفْقٍ شَتَّى لَأَمْصَارٍ [البسيط]
 أخطا الطَّرِيقَ وَأَفْنَى الزَّادِ وانقَطَعَتْ عنه المناهِلُ في تِيهَاءِ مِقْفَارِ
 يدعو بصوتٍ شَجِيٍّ لا أَنيسَ لَهُ قد غابَ عنه أَنيسُ الأهلِ والجارِ
 لو جُرِّعَ الماءَ لا سَنَظْفَاهُ موقِعُهُ مِنَ الحَشَى من لَظَى فيه وَتَسْعَارِ (2)
 حتّى أتى الماءَ بعد اليأسِ تُحْرِزُهُ رِداءُ مَكْسُوَّةٍ أطواقَ أَحجارِ
 لما تبيّنَ أن لا دلوَ حاضرةً ولا رِشاءَ ولا عهدَ لآثارِ
 دلى عِمامتُهُ حتّى إذا انقَشَعَتْ غمامَةُ الماءِ عن عَذِبٍ ومَوَّارِ (3)
 أهوى يَقلِّبُها من الماءِ مَغتَبِطاً يَكرُّها فيه طوراً بعدَ أطوارِ
 حتّى إذا هو رَوَّاهَا وأخرَجَها وَقَالَ قد نَلْتُ يُسرًا بعدَ إِعْصارِ
 وجَرَّها صَوَّبَتْ في البِئْرِ راجِعَةً واستَقْبَلَتْ نَفْسُهُ الدُّنْيا بِإِكْشارِ
 يوماً بأجهدَ مَنّي حينَ تَمَنَّغني لغيرِ جُرْمٍ لُبَّانِتي (4) وأوطاري (5)

(1) _ ديوانه ، ص 227 .

(2) _ تحرزه رداء : بئر ماء يغطيها التراب .

(3) _ الموار : المتحرك ، غير الساكن .

(4) _ اللبانات : الحاجات . الوطر : المأرب .

(5) _ ديوانه ، ص 177 _ 178 .

ومن تشبيهاته قوله:

ولو زرتُكم في اليومِ سَبْعينَ مرَّةً لَكنْتُ كذِي فرخٍ عن الفرخِ غائبِ (1) [الطويل]

ففي تشبيهه هذا لا نرى التواءً ولا شططاً ، وكأنّه اهتدى إليه من غير بحث وإعمال ذهن .

وقد يراوح العبّاس بين التّشخيص والتّشبيه ، وكلاهما يجريان في حلبة الشّعر الجيّد ، يقول:

ما بالِ خَلْخَالِكِ فِي خَرَسَةٍ (2) لسانِ خَلْخَالِكِ مَقْطُوعٌ؟ (3) [السريع]

وفي أبيات أخرى ، يرسم بمهارة صورة تدلّ على صدق أريحته ، ويبلغ فيها الذروة في الرّوعة ، يقول:

فكأنني ذو غربةٍ	بمفازةٍ ملحٍ حُساها	[مجزوء الكامل]
قد جفّ ريقُ لسانِهِ	والنَّفْسُ يُجهدُها صَداها	
عطشانٌ أدلى دَلْوَهُ	خوفَ المَنِيَّةِ في دِلاها	
فثوى يمدُّ رشاءها	والنَّفْسُ تَجهدُ من لَظها	
حتّى إذا ارتفعت وظّ	لَ يجرُّها انحلت غراها	
فهوى وخرّ بإثرها	مُتَلَمِّساً منها تراها	
فأسال فيها نفسَهُ	والنَّفْسُ تَبْلُغُ مُنتهاها (4)	

امتاز غزل العباس بن الأحنف بوفرة الصّور الغزليّة ، ومن صورهِ اللّطيفة قوله عن فوز :

يا ربّ لائمةٍ يا فوزٍ قلتُ لها واللّومُ فيكِ _ لعمرِي _ غيرُ مُحْتَقَرٍ [البسيط]

ما في النّساءِ سوى فوزٍ لنا أربّ فارضنيّ بذلكِ أو عَضِي على حَجَرٍ (5)

ومن صورهِ في ظلوم قوله :

لا تلومي على ظلومٍ فإنّ الـ لؤمَ فيها مخالفتُ للسّدادِ [الخفيف]

مُبْتَدَا الحُسْنِ صيغَ منها ومنها فُرقَ الحُسْنُ في جميعِ العبادِ (6)

(1) _ ديوانه ، ص 55 .

(2) _ خخالك ذا خرسة : كناية عن توقّفها عن المشي .

(3) _ ديوانه ، ص 245 .

(4) _ نفسه ، ص 372 .

(5) _ نفسه، ص 209 .

(6) _ نفسه ، ص 137 .

وكما أنّ شعر العباس غنيّ بالصّور ، فهو أيضاً غنيّ بالتشبيّهات الأنيقة الجديدة المبتكرة ، التي لم يسبق العباس إليها شاعر آخر ، وذلك في قوله في تشبيه نفسه في ميدان العشق :

صِرتُ كأنّي دُبالةٌ نُصِبَتِ تضيء للنّاسِ وهي تَحترِقُ (1) [المنسرح]

فهذا تشبيه حضاري عقليّ ثقافيّ متمدّن ، وهو جديد في فكرته وصياغته .

ومن التشبيهات الحضارية الأنيقة التي تفتقت عنها شاعرية العباس عند الحديث عن محبوبته قوله:

بيضاء في حُمر الثياب كوردة بيضاء بين شقائق النعمان [الكامل]
تهتزُّ في عَيْدِ الشَّبَابِ إِذَا مَشَتْ مِثْلَ اهْتِزَازِ نَوَاعِمِ الْأَعْصَانِ (2)
أو قوله في تشبيهه آخر رائع المعنى لطيف الصَّوْغِ متلِّع بالحسِّ الحضاري :
نَكَرْتُكَ بِالتُّفَّاحِ لَمَّا شَمَمْتُهُ وبالزَّاحِ لَمَّا قَابَلْتُ أَوْجُهُ الشَّرْبِ (3) [الطويل]
تَذَكَّرْتُ بِالتُّفَّاحِ مِنْكَ سَوَالِفًا (4) وبالزَّاحِ طَعْمًا مِنْ مُقْبَلِكِ الْعَذْبِ (5)

ويشبهه العباس صاحبه بالقمر أو الهلال حيناً ، وبالشمس أحياناً ، وهو يكثر القول في تشبيهها بالشمس ، ويرزق الكثير من التوفيق والسداد في تشبيهاته هذه . ففي إحدى "فوزياته" يعمد العباس إلى طرح قوافل من التشبيهات المتتابعة المتلاحقة التي يبدها بالشمس مشبهاً بها، ثم يعدل إلى فنون أخرى من التشبيهات الطريفة المبتدعة وذلك في قوله:

إِنِّي طَرَبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا طَلَعَتْ كَانَتْ مِشَارِقُهَا جَوْفَ الْمُقَاصِيرِ [البسيط]
شَمْسٌ مِمْتَلَةٌ فِي خَلْقٍ جَارِيَةٍ كَأَنَّمَا كَشَحُهَا طِيُّ الطَّوَامِيرِ
لَيْسَتْ مِنَ الْإِنْسِ إِلَّا فِي مَنَاسِبَةٍ وَلَا مِنَ الْجِنِّ إِلَّا فِي التَّصَاوِيرِ
فَالجِسْمُ مِنْ لَوْلُوِّ وَالشَّعْرُ مِنْ ظَلْمٍ وَالنَّشْرُ مِنْ مِسْكَةٍ وَالوَجْهُ مِنْ نَوْرِ
إِنَّ الْجَمَالَ حَبَا " فَوْزًا " بِخَلْعَتِهِ حَدْوًا بِحَدْوٍ وَأَصْفَاهَا بِتَحْوِيرِ
كَأَنَّهَا حِينَ تَمْشِي فِي وَصَائِفِهَا تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ خُضْرِ الْقَوَائِرِ (6)

(1) _ ديوانه ، ص 271 .

(2) _ نفسه ، ص 366 .

(3) _ الزاح : هي الخمر .

(4) _ السوالف : مفردا السالفة : صفحة العنق عند مُعَلَّقِ القُرْطِ . مقبلك : فمك .

(5) _ ديوانه ، ص 89 .

(6) _ نفسه ، ص 179 .

ولقد افُتِنَتِ كثير من النقاد بالتشبيه الذي ضمَّه العباس البيت الأخير بحيث أن أكثر الذين

ترجموا للعباس قد منحوا هذا التشبيه اهتماماً خاصاً .

ومن تشبيهات العباس "الشمسية" الطريفة التي أصاب فيها سداداً وتوفيقاً قوله :

هي الشمسُ مسكنُها في السماءَ فَعَزَّ الفؤادَ عزاءً جميلاً [المقارب]

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا (1)

وفي تشبيه آخر للحبيبة بالشمس يقول العباس في فوز ، مع مسحة مادية لم نألفها كثيراً عند

العباس :

أيها الطالبُ شمساً للورى تطلُعُ ليلاً [مجزوء الكامل]

انتِ من بغدادَ بابَ الـ شامِ أو نهرِ المعلى (2)

تلقِ ثمَّ الشمسَ إلا أنها تسحبُ ذيلاً

هي شمسٌ عزمتُ أ لا تثيلَ الخلقَ نيلاً

طلعتُ فوقَ كثيبٍ في قضيبِ هالٍ هيلاً (3)

وتتسع دائرة التشبيهات عند العباس فتشمل كل ما يتصل بالعاشق والمعشوق .

إن للعباس خاتماً لقي نصيباً في مداعبة الحبيب ، فيكون ذلك حافزاً لشاعرية العباس أن

تنتطق . حيث يقول طارحاً بين أيدينا هذا التشبيه الجميل :

خاتمٌ لي ما له أترُ فيه من عَضِّ الحبيبِ أترُ [المديد]

سَطَعَتِ بالمِسْكِ دارتُهُ وأضاعتِ مثلَ ضوءِ قمرِ

فهو كالتعويدِ في عَضِدِ صننُهُ كي لا يراه بشرُ (4)

ومن صور العباس وتشبيهاته الرائعة نذكر هذه الصورة :

ما تطرفُ العينُ إلا وهي واكفةٌ لو كنتُ أبكي بماءِ البحرِ ما نفدا [البسيط]

ولا تنفستُ إلا ذاكراً لكم لا شيءَ يشغلني عن ذكركم أبدا

كأنَّ جمرَ الغضا مما وطئتُ به بين الضلوعِ إذا سكتنهُ وقدَا

يا زُبَّ ذي حسدٍ يا فوزُ يُظهِرُهُ رُدِّي الفؤادَ وإلا فأقتلي الجسدا (5)

(1) _ ديوانه ، ص 298 .

(2) _ باب الشام : محلة في الجانب الغربي من بغداد . نهر المعلى : محلة ببغداد فيها دار الخالفة .

(3) _ ديوانه ، ص 309 .

(4) _ نفسه ، ص 199 .

(5) _ نفسه : ص 138 .

إن قول العباس في البيت الثالث فيه تشبيه بليغ ، تشبيه أنفاسه الحرى المحرقة المتصاعدة في

صدره بحرارة جمرة من جمر شجر الغضا ، وهو شجر يبقى جمره ملتهباً بعد احتراقه مدة طويلة. وما

أكثر الصّور التي كان حبّ العباس لفوز يوحى إليه بها كهذه الصّورة التي نراه فيها يقول :

إِنَّ فَوْزًا وَاللَّهُ يُصْلِحُ فَوْزًا لِلدَّيُونِ الَّتِي عَلَيْهَا جَحُودٌ [الخفيف]
وَأَرَانِي إِذَا التَّقِينَا أَعْضُ الطَّرْ فَ مِنْ دُونِهَا وَمَا بِي صَدُودٌ
هَيْبَةً مِنْ جَلَالِهَا مِثْلَ مَا يُقْتِ صِرُ مِنْ دُونِ وَالِدِ مَوْلُودٌ (1)

إنّ تشبيه العباس لجلوسه بين يدي فوز بجلوس ولد بين يدي والده ، يدلّ دلالة واضحة أنّ
حبّه لفوز هذه لم يكن حباً أنياً زائلاً ، وإنّما كان حباً خالدًا مبنياً على الاحترام المتبادل .

ومن الصّور التي شاعت كثيرًا في غزل القرن الثّاني ما يعتمد على الاستعارة ، أو ما يُعدّ
توسّعًا في مفهومها وهو ما عُرف " بالتشخيص " الذي يلجأ فيه الشّاعر إلى بثّ روح الحركة والحياة
في غير الأحياء مادّيًا كان أو معنويًا . (2)

أما التّشخيص في غزل ابن الأحنف فيظهر في جعله من الهوى إنسانًا يقيم في صدره ويقسم
الآيزول :

عَمِي بَصْرِي فَلَيْسَ يَرَى جَمَالًا فَلَيْسَ عَلَى سِوَاكَ لَهُ دَلِيلٌ [الوافر]
لَأَنَّ هَوَاكَ فِي صَدْرِي مَقِيمٌ أَظُنُّ هَوَاكَ أَقْسَمَ لَا يَزُولُ (3)

وفي قوله:

تُحَدِّثُ عَنَّا فِي الْوَجْهِ عَيُونُنَا وَنَحْنُ سَكُوتٌ ، وَالْهَوَى يَتَكَلَّمُ (4) [الطويل]

(1) _ ديوانه ، ص 137 .

(2) _ بكار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثّاني الهجري ، ص 402 .

(3) _ ديوانه ، ص 296 .

(4) _ نفسه ، ص 323 .

المبحث الثالث : * المعاني عند العباس بن الأحنف :

المعاني في الغزل ، فيها ما هو قديم وما هو جديد ، من : **مُوَلَّد** ، **وَمُخْتَرَع** و**مُبْتَدَع** ، وقد مرّ معنا كثير من المظاهر القديمة في غزل العباس بن الأحنف في ألفاظه ، وأوصافه ، وتشبيهاته ، ومعانيه ، فكثيراً ما جاء من مثل : **خريدة** ، **خود** ، **طفلة** ، **ثقال الأرداف** ، وكثيراً ما صادفنا عنده معاني تتصل : **بالوشاة** ، **والحساد** ، **والرقباء** ، **والعاذلين** ، **والحرّاس** وهي وإن كان التقليد من أسبابها المباشرة لا يمكن أن يستغني عنها الغزل في أيّ عصر مهما بلغ من مراتب الرقيّ والحضارة ؛ لأنها من لحمته وسداه (1) ، وليس بغريب أن تتشابه المعاني أو تتقارب أو تتفق ، وليس بغريب أن تتوارد الخواطر ، ويشترك اثنان أو أكثر في معنى عام قد يرد على بالهم ، وقد وعى هذه الحقيقة وفصل فيها القاضي الجرحاني (2) ، فإذا أخذ شاعر من سابقه أو أغار عليه ؛ فإنه لا بدّ أن يُجري تحويراً بالزيادة أو النقصان بحسب مقتضيات الحال عنده .

والمعاني القديمة كثيرة في غزل القرن الثّاني ، وقد تكون عامّة في مختلف العصور وفي شتّى الأجناس ، وقد لاحظ الأقدمون مثل هذا ، فقال الصّولي : " ولأنّ المتأخّرين إنّما يُجَرّون بريح المتقدّمين ، ويصبّون على قوالبهم ويستمدّون بلعابهم وينتجعون كلامهم ، وقلّما أخذ أحد منهم معنى من متقدّم إلا أجاده ، وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلّم بها القدماء ، ومعاني أومأوا إليها فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها " .(3)

وأما المعاني الجديدة فكثيرة أيضاً وفيها من الجمال شيء كثير ، ولقد تحدّث النّقاد القدامى في هذه النّاحية عمّا أسموه بالتوليد والاختراع والإبداع في المعاني ، " فالتوليد أن يستخرج الشّاعر معنى من معنى شاعر تقدّمه أو يزيد فيه زيادة ولا يُقال له "سرقه" إذا كان أخذاً على وجهه ، أما الاختراع فخلق المعاني التي لم يسبق إليها ، وأما الإبداع فالإتيان بالمعنى المستظرف التي لم تجر العادة إليه " . (4)

(1) _ بكار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثّاني الهجري ، ص 387 .

(2) _ الجرجاني ، علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبّي وخصومه ، دار القلم ، بيروت ، 1966م ، ص 183 _ 186 .

(3) _ الصّولي ، محمد بن يحيى ، أخبار أبي تمام ، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ، القاهرة ، 1973م ، ص 17 .

(4) _ القيرواني ، ابن رشيق ، العمدة ، ص 233 _ 235 .

ويقول ابن رشيق في عمدته : " فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ولا استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أحجف فيه غيره من المعاني أو نقص مما أطل سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر ، كان اسم الشاعر مجازًا لا حقيقة ولم يكن له إلا (1) فضل الوزن "

ومن المعاني الجديدة ، التي لم تجر العادة بمثلها ومردّها التأثير الحضاري في حياة القرن الثاني ، ما جاء في قول العباس بن الأحنف عندما تحدّث عن مشي صاحبه البطيء بين وصائفها وشبهها بمن يمشي على البيض أو على خضر القوارير ، فقال :

فكأنها حينَ تمشي في وصائفها تخطو على البيضِ أو خضرِ القواريرِ (2) [البسيط]

وكان ابن قتيبة يعدّ هذا من بديع التشبيه عند العباس (3) . ومما جاء منه أيضًا أنه شبه الصدع الذي خلّفته " فوز " بقلبه بصدع الزجاج الذي لا يلتئم ، فقال :

ولها في الفؤادِ صدعٌ مقيمٌ مثلُ صدعِ الزجاجِ أعياءِ الصنّاعا (4) [الخفيف]

واعتدّ البلاغيون بشعر العباس ، واستشهدوا له بكثير من المعاني التي كان له فيها فضل السبق ، ومن هذه المعاني قول العباس في دموع الغواني :

بكتَ غيرَ أنسَةٍ بالبكا ترى الدمعَ في مُقلتيها غريبًا (5) [المتقارب]

ويقول في بُعدِ الحبيب :

سأطُلبُ بعدَ الدارِ عنكمُ لتقربوا وتسكُبُ عيناَيَ الدُموعَ لتجمدا (6) [الطويل]

(1) _ القيرواني ، ابن رشيق، العمدة ، ص 96 .

(2) _ ديوانه ، ص 179 .

(3) _ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، 2 / 829 .

(4) _ ديوانه ، ص 252 .

(5) _ نفسه ، ص 97 .

(6) _ نفسه ، ص 168 .

أما عن حسن المحبوب وبهائه وسناه فقد قال فيه ابن الأحنف الكثير ، على نحو ما نرى من قوله:

لو يقسمُ اللهُ جزءًا من محاسِنِها في النَّاسِ طَرًّا لَتَمَّ الحسَنُ في النَّاسِ (1) [البسيط]

وورد الكثير من المعاني المولدة عند ابن الأحنف وقال فيها أبو الفرج : " يقول الحسين ابن الضحّاك : لو جاء العباس بن الأحنف بقوله ما قاله في بيتين لغدر ، وهو قوله :

لعمرك ما يستريحُ المُحبُّ حتّى يبوحَ بأسراره [المتقارب]

فقد يكتُمُ المرءُ أسرارَه (2) فتظهرُ في بعضِ أشعارِه (3)

ثم قال : أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدّمه فيه أحد (4) فهو :

الحبُّ أمْلِكُ للفؤادِ بقهرِه من أن يرى للستّر فيه نصيبُ [الكامل]

وإذا بدا سرُّ اللّيبِ فإنّه لم يبْدُ إلاّ والفتى مغلوبُ (5)

ويرى القاضي الجرجاني في رقة ابن الأحنف وجهًا آخر ، فيقول : " وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فإن اتفقت لك الدّمائة والصّباة وأنضاف الطّبع إلى الغزل ، فقد جمعت لك الرّقة في أطرافها " .(6)

وقد اجتمع كلّ ذلك إلى العباس ف جاء كلامه كلّ شعراً غزلاً ، وحديثاً حلواً ينفذ إلى القلوب .

وجرت أبيات العباس أو أشطار من أبياته مجرى المثل ، بما تحمل من ثقافة العصر الذي تأثر به العباس وعاش فيه . يقول الأصفهاني : " حدّثني الصّولي قال : حدّثني المغيرة بن محمد المُهلبي قال : سمعت الزّبير يقول : ابن الأحنف أشعر النَّاس في قوله :

تعتلُّ بالشُّغلِ عَنّا لا تكلمنا الشُّغلُ للقلب ليس الشُّغلُ للبدنِ (7) [البسيط]

(1) _ ديوانه ، ص 229 .

(2) _ ورد هذا البيت في الأغاني ولم يرد في الديوان .

(3) _ ديوانه ، ص 219 .

(4) _ الأصفهاني ، الأغاني ، 8/19 .

(5) _ ديوانه ، ص 108 .

(6) _ الجرجاني ، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبّي وخصومه ، ص 18 .

(7) _ ديوانه ، ص 361 .

ويقول : لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يتمثل فيه بهذا النصف

. الأخير " (1) .

وأورد النّعالبي أمثالاً أخرى من شعر العباس (2) وهي :

لكن ملّيت فلم تكن لي حيلةً صدّ الملولٍ خلف صدّ العاتبِ (3) [الكامل]

إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعتهُ فلا خيرٍ في ودّ يكون بشافعٍ ! (4) [الطويل]

يَسْتَقْرِبُ الدَّارَ شَوْقاً وهي نازحةٌ من عالج الشَّوقَ لم يَسْتَبْعِدِ الدَّارَ (5) [البسيط]

والأبيات التي جرت مجرى المثل تقول :

صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تضيءُ للنَّاسِ وهي تحترقُ (6) [المنسرح]

أرى الطَّرِيقَ قَرِيباً حينَ أَسْأَلُهُ إلى الحَبِيبِ بعيداً حينَ أَنْصَرِفُ (7) [البسيط]

كفى حَزْناً إِنَّ التَّبَاعُدَ بَيْنَنَا وقد جَمَعْتَنَا والأَجِبَّةَ دَارُ (8) [الطويل]

أَقَمْنَا مَكْرَهِينَ بِهَا فَلَمَّا أَلْفَنَاهَا خَرَجْنَا مُكْرَهِينَا (9) [الوافر]

(1) _ الأصفهاني ، الأغاني، 18/8 .

(2) _ النّعالبي ، عبد الملك بن محمد ، التمثيل والمحاضرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1961م ، ص 269 .

(3) _ ديوانه ، ص 79 .

(4) _ نفسه ، ص 246 .

(5) _ نفسه ، ص 192 .

(6) _ نفسه ، ص 271 .

(7) _ نفسه ، ص 263 .

(8) _ نفسه ، ص 222 .

(9) _ نفسه ، ص 365 .

ولم يترك النقّاد شيئاً في شعر ابن الأحنف دون أن يقولوا فيه ، إذ لم يُقل في بُعد الحبيب أحسن من قول ابن الأحنف (1) .

هي الشَّمْسُ مَسْكُنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَزَّ الْفَوَادِ عِزَاءً جَمِيلاً [المتقارب]
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ النُّزُولَ (2)

وفي هذا المعنى يقول عبد القاهر الجرجاني : " فما وجه الطَّمَع في الوصول وقد علمت أنّ حديثك مع الشَّمْس ، ومسكن الشَّمْس السَّمَاء أَفلا تراه قد جعل كونها الشَّمْس حَجّة له على نفسه ، يصرفها بها عن أن ترجو الوصول إليها ، ويلجئها إلى العزاء ، وردّها في ذلك إلى تشكّك فيه ، وهو مستقرّ ثابت . وهذا يعني أنّها كانت بحيث لا تتال ووجب اليأس من الوصول إليها لأجل أنّها الشَّمْس " (3)

ومعاني العباس المولّدة كثيرة ، وقد فتحت لمن بعده طريقاً يسلكونه ، وهي تتمّ عن تأثر بثقافات العصر ، ومن هذه وصف محبوبته بالملل ، وقد كتّى عن ذلك " بطعام قوم موسى " الوارد في القرآن الكريم ، يقول :

يا فوزُ لم أَهْجِرْكُمْ لَمَلالَةٍ مَنّي ولا لِمقالٍ وَاشٍ حاسِدٍ [الكامل]
لَكُنّني جَرَبْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ لا تصبرون على طعامٍ واحدٍ ! (4)

والعبّاس في هذا يتأثر بالآية الكريمة في قوله -سبحانه- :

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ { (5)

(1) _ العسكري ، أبو هلال ، ديوان المعاني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط 1 ، 1994 م ، ص 259 .

(2) _ ديوانه ، ص 298 .

(3) _ الجرجاني ، عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، دار المنار ، مصر ، ط 3 ، 1939 م ، ص 267 .

(4) _ ديوانه ، ص 169 .

(5) _ سورة البقرة ، 61 .

ومن المعاني الجميلة التي استحسناها الرّشيد في شعر العباس كان عندما هجر الرّشيد جارية (1) له ، ونفسه بها متعلّقة ، وكان يتوقّع أن تبدأه بالرّضّي ، فلم تفعل الجارية ذلك حتى أفلقته وأرقتّه، فلما بلغ ذلك العباس . قال :

صَدَّتْ مَغَاضِبُهُ وَصَدَّ مَغَاضِبًا وكلاهما مما يُعالجُ مُتَعَبٌ [الكامل]
 إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمْ دَبَّ السُّلُوفُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ (2)

وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالْبَيْتَيْنِ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِيَتَيْنِ آخِرِينَ ، وَهُمَا :

لَا بُدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَفْقَةٍ تكونُ بين الوصلِ والصّرْمِ [السّريع]
 حَتَّى إِذَا الْهَجْرُ تَمَادَى بِهِ رَاجَعَ مِنْ يَهُوَى عَلَى رُغْمِ (3)

فاستحسن الرّشيد إصابته حالئها ، وقال : أَرَجَعُهَا _ وَاللَّهِ _ مَبْتَدَأًا عَلَى رَغْمٍ ، وَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ لِلْعَبَّاسِ بِصَلَةِ سَنِيَّةٍ ، وَأَمَرَتْ لَهُ الْجَارِيَةَ بِمِثْلِهَا (4) .

وللعباس معان جديدة كثيرة مبتكرة متعلّقة بالحبّ وأسبابه ودواعيه وأوامره ونواهيهِ ، يقول :

يَا حَيَاتِي لَقَدْ هَمَمْتُ بِأَنْ أَلْبُ سِ تَوْبَيْنِ مِنْ ثِيَابِ الطَّبِيبِ [الخفيف]
 ثُمَّ آتَيْتُكَ كَالْمَدَاوِي عَسَى اللَّحْمُ لَهُ يُرِينِيكَ مَرَّةً مِنْ قَرِيبِ (5)

ومعنى طيب الدّنيا بعد رؤية المحبوب وقربه فنجدّه في هذه الأبيات :

عَضِبْتُ عَلَيْكَ سَيِّدَتِي وما للعبد والعَصَبِ [مجزوء الوافر]
 هَجَرْتُكَ عَادِيًّا طُورِي فلم أرشد ولم أصبِ (6)

(1) _ الجارية : " ماردة " كما جاء في الأغاني وهي أمّ المعتصم .

(2) _ ديوانه ، ص 71 .

(3) _ نفسه ، ص 232 .

(4) _ ابن قنينة ، الشّعر والشّعراء ، 2 / 831 .

(5) _ ديوانه ، ص 74 .

(6) _ عاديا : متجاوزًا، طوري : قدرتي ، حدي .

أما والله ربَّ البيدِ تِ والأسْتارِ والحُجْبِ
لقد طابَتْ بِكَ الدُّنيا ولولا أَنْتِ لم تَطِبِ (1)

أما فيما يتعلّق في معنى توقّد نيران الشّوق في صدر العاشق فللعَبّاس أبيات كثيرة ، منها :
لو لم يَكُنْ قَمَرٌ إذا ما زرتُكُمْ يهدي إلى نهج الطّريق الواضح [الكامل]
لَتوقّد الشّوقُ المُبرّحُ مهجتي حتى تضيءَ الأرضُ بين جوانحي (2)

ومنها أيضًا :

النّارُ تُطفئُ ببردِ الماءِ إنْ مُزِجَتْ ولو مَزِجَتْ الهوى بالماءِ ما بردا [البسيط]
هي المني لي أهواها وأطلّبها وسائر النّاسِ يهوى المالَ والولدا (3)

وقد أورد أبو هلال العسكري في كتابه " ديوان المعاني عدداً غير قليل من أبيات العَبّاس وكان يعلّق على هذه الأبيات بقوله : " وقد " طرف " ابن الأحنف أو " أحسن " أو " ملح " (4) ومن الأبيات التي استملحها العسكري للعَبّاس قوله :

إني لأجحدُ حبّكم وأُسِّـِرُهُ والدّمعُ مُعْتَرِفٌ به لم يَجْدِ [الكامل]
الدّمعُ يَشْهَدُ أنّي لكِ عاشقٌ والنّاسُ قد علموا وإنْ لم يَشْهَدَ (5)

وقوله :

طالَ عهدي بها فلما رأني نظمت لولواً على تَفَاحِ (6) [الخفيف]

(1) _ ديوانه ، ص 87 .

(2) _ نفسه ، ص 131 .

(3) _ نفسه ، ص 141 .

(4) _ العسكري ، أبو هلال ، ديوان المعاني ، 248 ، 251 ، 253 ، 259 ، 264 ، 269 .

(5) _ ديوانه ، ص 148 .

(6) _ نفسه ، ص 132 .

وقد طرف ابن الأحنف في المعنى حين وصف طيب الموضع الذي حلت به محبوبته ، وهذا يتضح في قوله:

وَجَدَ النَّاسُ سَاطِعَ الْمَسْكِ مِنْ دِجٍّ لَمَّةٌ قَدْ أَوْسَعَ الْمَشَارِعَ طَيِّبًا (1) [الخفيف]
فَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهَا وَلَا يَدْرُونَ أَنْ قَدْ حَلَّتْ مِنْهَا قَرِيبًا (2)

وقد أحسن العباس وكان من أصدق من قال في صفة الحبّ في قوله :

مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ يُدَارِي فِي الْهَوَى حَتَّى يُشَكِّكَ فِيهِ فَهُوَ كَذُوبٌ [الكامل]
الْحُبُّ أَمَلُكَ لِلْفَوَادِ بِقَهْرِهِ مَنْ أَنْ يُرَى لِلْسَّرِّ فِيهِ نَصِيبٌ (3)

ومن المعاني الغريبة البديعة التي لم يسبق إليها أحد قوله في ذكر كلام الناس فيه وفي محبوبته :

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَدْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا [البسيط]
فَجَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقًا (4)

ومن المعاني الجيدة التي قيلت في رياضة النفس على الهجر قول العباس :

أَجْرَبُ بِالْهَجْرَانِ نَفْسِي لَعَلَّهَا تُفِيقُ فَيَزِدَادُ الْهَوَى حِينَ أَهْجُرُ [الطويل]
وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ تَكْذِبُ وَعَدَّهَا إِذَا صَدَقَ الْهَجْرَانُ يَوْمًا وَتَعْدُرُ
وَمَا عَرَضَتْ لِي نَظْرَةً مَذْعَرَفَتْهَا فَأَنْظُرُ إِلَّا مُتَلَّتْ حَيْثُ أَنْظُرُ (5)

(1) _ المشارع : مفردتها مشرّع وهو مورد الشّاربة .

(2) _ ديوانه ، ص 93 .

(3) _ نفسه ، ص 108 .

(4) _ نفسه ، ص 274 .

(5) _ نفسه ، ص 189 .

والعبّاس - رغم براءته - يطيبُ له أن يعلّقَ به الذَّنْبُ ، ولا يريدُ هجر صاحبتَه لئلا يقع عليه
الوزر ويحمل جريرة الفراق . يقول

متى تُبصِريني يا ظلومُ تبيني
شمايلِ بادي البتِّ منصدعِ القلبِ (1) [الطويل]
برياً تمنى الذَّنْبَ لما ظلمته
لكيما يُقال الصرْمُ من سبب الذَّنْبِ
وقد كُنْتُ أشكو عتْبها وعتابها
فقد فجعتني بالعتابِ وبالعتبِ (2)

ومن أجمل ما قيل في معنى عدم القدرة على الاحتراس من العدو ما قاله العباس في هذين
البيتين:

قلبي إلى ما ضرّني داعي
يكثر أسقامي ، وأوجاعي [السريع]
كيف احتراسي من عدوي إذا
كان عدوي بين أضلاعي (3)

إن حب العباس لفوز قد أوحى إليه بمعانٍ كثيرة يصعب حصرها لكثرتها ، وأكتفي بما مرّ
ذكره، وأختم بهذه الأبيات الجميلة :

واني لأستهدي الرياح سلامكم
إذا أقبلت من نحوكم بهبوبِ [الطويل]
وأسألها حملَ السّلامِ إليكمُ
فإن هي يوماً بلّغت فأجيبني (4)

إنّ الشعراء العشاق المتقدمين قد أكثروا من طرق معنى إبلاغ السّلام للمحبوب بواسطة الرياح
المتّجهة نحوه ولكننا لم نجد واحداً منهم قد جعل الرّيح تبليغ سلامه إلى محبوبته لدى رؤيتها لها ثم
تعود إليه ثانية من عندها حاملة إليه منها أطر الأشواق والتّحيات .

(1) _ شمايل: صفات ، سجايا . بادي البتِّ: ظاهر اللّوعة، يقول " إن ظلوم إذا ظلوم إذا أبصرته وعابنت ما هو فيه من شحوب وهزال،

أدركت حقيقة حبه وحميد خصاله .

(2) _ ديوانه ، ص 78 _ 79 .

(3) _ نفسه ، ص 250 .

(4) _ نفسه ، ص 46 .

المبحث الرابع : * بناء القصيدة :

لم يكن لقصيدة الغزل بناء واحد مطرد ، فهي إما جزء من قصيدة في غرض من الأغراض وهي ما تعرف بالمقدمات ، وإما قصيدة مستقلة بذاتها تتفوت طولاً وقصراً بتفاوت الشعراء وتجاربهم، وإما مقطوعة في أبيات محدودة ، وهو أكبر تطوّر آلت إليه قصيدة الغزل عند أكثر الشعراء

فالمقدمات الطليّة والغزليّة ظاهرة استمرّت في القصيدة العربيّة وظلّت قائمة في القرن الثاني الهجري والقرون التي تلتها ، واحتفظت بها القصيدة في أكثر أغراض الشعر وخاصة في المديح ، إلا أنّ المقدمات في هذا القرن (الثاني الهجري) لم تتحرّر في الشكل الموروث وال قالب القديم ؛ ولكن طرأت عليها جملة من التعديلات جعلتها تمتاز عن المقدمات القديمة وغلب عليها القصر ، وقد تبع هذا القصر تخفّف في بعض عناصرها . ومن الشعراء من استغنى عنها مثل الحسين بن الضحّاك ، والعبّاس بن الأحنف . ويقول الدكتور يوسف بكّار : " أن السبب وراء استغناء العبّاس بن الأحنف عن المقدمات هو التحوّل من نظام القصي دة إلى المقطوعة في الغالب " (1).

وقصائد الغزل بشكل عامّ متوسطة في عدد أبياتها ، ليست طويلة ، ولا قصيرة ؛ لأنها في موضوع واحد ، والقصيدة ذات الموضوع الواحد إن طالت مرّة فليتها لا تطول في كلّ مرّة ، وأكثر ما توجد القصائد الطويلة عن بشار وعند مسلم بن الوليد أحياناً ، أمّا بقيّة الشعراء فكان أكثر غزلهم في "مقطوعات" وفي طليعتهم كان يقف العبّاس بن الأحنف ، ومن شعراء المقطوعات أيضاً مطيع بن إياس ، والحسين الخليل ، وأبو نواس ، وغيرهم من شعراء الغزل في المذائر وبيوت القيان . (2)

(1) _ بكّار، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثنائي الهجري ، ص 329 .

(2) _ المرجع السابق ، ص330 .

والمقطوعة مظهر من مظاهر التجديد في قصيدة الغزل ، وترجع أسباب ظهور المقطوعات إلى :
طبيعة التطور الحضاري ، فكلمة تعقّت أسباب الحضارة وطرائق الحياة تسرّب الملل إلى نفوس
 الناس ، ولم يعد لديهم الوقت والاستعداد للاستماع لقصائد طويلة كما كان يقف القدماء في عكاظ
 والأسواق الأدبية الأخرى .

وسبب آخر هو أن الإقتصار على فكرة معينة وموضوع واحد لا يسمح بكثرة الأبيات في
 الغالب .

وسبب آخر يكمن في تأثير الغناء الذي يقتضي الميل إلى المقطوعات (1) .

(1) _ هذارة ، مصطفى ، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري ، ص154.

* الأوزان :

الوزن ركن من الأركان الأساسية في الشعر ودعامة من دعائم الموسيقى ، وقد كان الشعر في موضوعاته ومضامينه أسرع تطوراً من أوزانه ، ومع هذا فقد تطورت هذه الأوزان منذ أواخر العصر الأموي متأثرة بموجات الغناء التي نشأت في مكة والمدينة ، وامتد هذا الأثر إلى القرن الثاني الهجري خاصة ، والعصر العباسي عامة (1) . وفي هذا يقول الدكتور أحمد كمال زكي : " إنه لا بد من أن يقال إن تطوراً أصاب أوزان الشعر في القرن الثاني ، منه الميل إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة ، وأحياناً بعض الأوزان المهملة التي جاء بها الخليل ، من مثل : المجتث ، والمضارع ، والمقتضب والنظم فيها ؛ ولكن في ندرة . علماً بأن نصيبها من الشعر القديح لم يكن يتعدى الشاهد والمثال . " (2)

وقد قمت بإحصاء الأوزان التي نظم فيها العباس ابن الأحنف فوجدت أنه قال في جميع بحور الشعر ما عدا الرجز ومجزوء الخفيف ، وسبب هذا أن أكثر غزله مقطوعات وقصائح قصيرة ، فقد احتل البحر الطويل عنده المرتبة الأولى ، وجاء بعده البسيط ، فالكامل ، فالسريع ، فالخفيف ، فالوافر ، وغيرها مما في الجدول المرفق .

أما بالنسبة للأوزان القصيرة فله في المجتث ، والهزج ، وأما المجزوءات فله في مجزوء الكامل ، والرمل ، والوافر ، والرجز ، وله في مخّع البسيط مقطوعتان ؛ وبهذا يكون العباس ابن الأحنف أكثر الشعراء في عصره استعمالاً لأوزان الشعر.

ونظم بعض شعراء الغزل في الأوزان القصيرة المهملة التي لا توجد أمثله له في الشعر القديم ، ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن : " الوليد بن يزيد أول من قال في المجتث (3) وأن مطيعاً (مطيع بن إياس) أخذه عنه وأشاعه بين شعراء العصر " . (4)

أما العباس بن الأحنف فأكثر من قال فيه ربما كان أول شاعر قال منه قصيدة كاملة بعد قصيدة مطيع بن إياس ، (5) ومطلعها:

هَجَرْتِنَا يَا مَلُولُ وَالهِجْرُ مَرٌّ ثَقِيلٌ (6) [المجتث]

(1) _ بكار، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص330_331.

(2) _ زكي ، أحمد ، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1961م ، ص377_375.

(3) _ ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الأول ، ص193.

(4) _ ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص67 .

(5)_ بلّخر، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص335.

(6) _ ديوانه ، ص 293.

وله من الوزن نفسه قصيدة أخرى في ثمانية أبيات ، ومقطوعتان أحدهما : في أربعة أبيات ، والأخرى : في خمسة أبيات .

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنّ : " وزناً جديداً هو مزج البسيط لم يكن معروفاً عند الجاهل حين أخذ يشقّ طريقه بين الأوزان " (1). وفي ديوان العباس بن الأحنف مقطوعتان من هذا الوزن.

أمّا عن الموسيقى الداخلية ، فتتمثل في إيقاعاتها الصادرة عن فنون الصياغة عن ده ، وعن اعتماده التقطيع الصوتي والترديد والتزاج من ناحية ، وعن استغلاله ضروب البديع من ناحية أخرى ، خصوصاً الطباق ، والمقابلة ، وفي ذلك يقول :

فإن ساءكم ما بي من الضّرّ فارحموا وإن سرّكم هذا العذاب فعذبوا (2) [الطويل]

وراء هذا الطباق ضرب من التقسيم يحتفي به البديع ، وقد كان القدماء يعجبون بتقسيم ابن الأحنف فقد ذكر أنّ محمّد بن موسى المنجم كان معجباً بقول العباس :

وصالكم صرّم ، وحبكم قلبى وعطفكم صد ، وسلمكم حرب (3) [الطويل]

فكان يقول : " أَحْسَنَ والله فيما قسم حين جعل كلّ شيء ضده ، والله إنّ هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات إقليدس " (4) يقول العباس :

إن سيل لم يبذل ، وإن قال لم يفعل وإن عوتب لم يعتب (5) [السريع]

ويقول :

ظلوم ترى الإحسان مني إساءة وتؤذنب أحياناً إلينا وتخصب! (6) [الطويل]

(1) _ أنيس ، إبراهيم ، موسيقى الشعر ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط 3 ، 1965م ، ص 196 .

(2) _ ديوانه ، ص 52 .

(3) _ نفسه ، ص 61 .

(4) _ القيرواني ، ابن رشيق ، العمدة ، 2/24 .

(5) _ ديوانه ، ص 64 .

(6) _ نفسه ، ص 106 .

وتعلّق الدّكتورة ليلي سعد الدّين على هذه الأبيات بقولها : " إنّ الشّاعر اهتدى إلى هذا التقسيم بفطرته الشّاعرة ، ولقد يكون الإيقاع مبعثه الوزن نفسه ، إلا أنّ المؤكّد أنّ الجناس يلعب دوراً كبيراً في إظهار التّعبير الشّعري متدفّقاً في نظام لا خلاص منه " (1) ، يقول :

ألا إنّ شمس الأرض فيما يُقالُ لي تمثّنتُ على شمسِ فطوبى لها طوبى (2) [الطويل]

الشمس الأولى هي فوز ، والثّانية هي الشمس الحقيقيّ ، كناية عن العلوّ والارتفع والمنعة. ونلمس من الأبيات التّفازج الصّوتي الذي أضفى على التّعبير الشّعري جمالاً، واستخدامه التّكرار يعطي شعره إيقاعات حلوة.

يقول :

أبكي ظلومٍ وأبكي ما فُجعتُ به منها وأبكي على قلبي الذي ذهباً (3) [البيسيط]

قد يكون استخدام التّكرار عنده لتفسير شيء بشيء ، ولربط أجزاء الموقف الشّعري المتكامل في بيتين أو عدة أبيات .

والأمثلة على التّكرار عند ابن الأحنف كثيرة ، منها :

ذَكَرْتُكَ بِالتَّفَاحِ لِمَا شَمَمْتُهُ وبالرَّاحِ لِمَا قَابَلْتُ أَوْجَةَ الشَّرْبِ [الطويل]

تَذَكَّرْتُ بِالتَّفَاحِ مِنْكَ سِوَالِفًا وبالرَّاحِ طَعْمًا مِنْ مَقْبَلِكَ العَذْبِ (4)

ومنها:

فَمَا بَكَيْتُ لِيَوْمٍ مِنْكَ أَسْخَطَنِي إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْهِ بَعْدَمَا ذَهَبَا (5) [البيسيط]

ومنها:

يا فوزُ باللهِ هَبِي ذنبي لي اليومَ هَبِي [مجزوء الرجز]

يا بأبي يا بأبي مُنِّي عَلَيَّ وَارْحَمِي

حَبِّكُمْ وَاحْتِسَابِي (6) مُنِّي عَلَيَّ مِنْ شَفَّهْ

(1) _ سعد الدين ، ليلي ، العباس بن الأحنف ، ص 166_167.

(2) _ ديوانه ، ص 41.

(3) _ نفسه ، ص 81.

(4) _ نفسه ، ص 89 .

(5) _ نفسه ، ص 96.

(6) _ نفسه ، ص102.

تقول الدكتورة ليلى سعد الدين:

" في الأبيات الثلاثة السابقة ، يتمرد الشاعر على الجزالة التقليدية ، ويستغل مجزوء البحر التقليدي أيضاً ، وذلك ليوفر حلاوة الجرس وزخرفته ، حتى لتبدو الموسيقى إيقاعاً يؤسس التركيب اللفظية على نمط الرّقم الموسيقية ولننتبه إلى الكسرات والبيئات المتكررة ". (1)

وقد يكون التكرار ربطاً لأجزاء الموقف الشعري حتى تتم به الوحدة العضوية ، يقول :

مرحباً والله حقاً بحبيبي وأميري [مجزوء الرمل]
 وبمن شوقي إليه شفّ جهري وضميري
 وبمن أذهلني عن حبّ مطواع غريدي
 وبمن يذهب بالهـ مّ ويأتي بالسُرورِ (2)

وقد يكون التكرار عنده تقوية للفظ الأول وتأكيذاً لأهميته ، يقول :

خبروني عن الحجازِ فإني لا أراني أملُ ذكّر الحجازِ (3) [الخفيف]

ويقول :

فإذا يُنادي باسمِها ظلّت مدامعهُ ترقرقُ [مجزوء الكامل]
 وإذا يمرُّ ببابهـ لثمّ الجدار وظلّ يُصعقُ
 وإذا تذكرها بكى حتى تكاد النفسُ تزهقُ (4)

إنّ تكرار " إذا " في الأبيات الثلاثة السابقة تفيد تفصيل بعض حالات حبه فيما مرّ في أيام

معاناته، يقول :

فيا ربّ ألف بين قلبي وقلبهـ لكيلا تعدى بي أمامي ولا خلفي [الطويل]
 ويا ربّ صبّرتني على ما أصابني فأنت الذي تكفي وأنت الذي تُغفي
 ويا ربّ عذبها بما بي من الهوى ولا كالذي عذبتَ قارونَ بالخسفِ (5)

(1) _ سعد الدين ، ليلى ، العباس بن الأحنف ، ص167 .

(2) _ ديوانه ، ص218_ 219 .

(3) _ نفسه، ص225 .

(4) _ نفسه ، ص264 .

(5) _ نفسه ، ص 255 _ 266

وفي استخدام العباس بن الأحنف التكرار تقول الدكتورة ليلي سعد الدين : " إنَّ هذا الشاعر ينجح دائماً _ ليسر أفاظه _ في استغلال التكرار الذي يمثل عنده بعض نظامه الوزني بوجه عام " (1) .

ومن خلال ما مر من أبيات نلاحظ أنَّ العباس بن الأحنف أجاد القول في البحور الطويلة والتقصيرة على حد سواء ، وأن عاطفته لا تقتر إذا ما استعمل البحور القصيرة ، وهذا يتضح من خلال استعراض هذه الأبيات التي يقول فيها :

ما لكم لم تكتبوا	جواب تلك الكُتُب؟	[مجزوء الرجز]
قد شكَّ فيما جاءه	من الوشاة الكُذِّب	
فنفسه موقوفة	بين الرضا والغضب	
يوشك أن يقتلني الـ	حبُّ ولا يشعُر بي(2)	

ويقول :

إنم أبكي لأنني	صرت للحب تبيعا	[مجزوء الرمل]
ما دعاني الشوق إلا	درت العيى دموعا	
ما أراني عن حبيبي	آخر الدهر نزوعا	
أحسن الناس وأولى الـ	ناس بالحسن جميعا (3)	

هذه الأبيات على قصر بحرهما مشحونة بالعاطفة شحنة الأبيات الكثيرة التي مر ذكرها في الشكوى على البحور الطويلة. وديوان العباس مليء بالشعر قصير البحور ، المترع بالعواطف ، بعيد الأعماق .

ولتوضيح بعض ما سبق من استخدام العباس بن الأحنف لبحور الشعر التي أدار عليها أشعاره ، هذا جدول توضيحي :

(1) _ سعد الدين ، ليلي ، العباس بن الأحنف ، ص168.

(2) _ ديوانه ، ص 73.

(3) _ نفسه ، ص 247.

جدول الأوزان التي استخدمها ابن الأحنف

الأوزان الطويلة

<u>العدد</u>	<u>اسم البحر</u>
143	الطويل
81	البسيط
74	الكامل
57	الخفيف
61	السريع
41	الوافر
29	المتقارب
23	المنسرح
13	الرمل
6	المديد
-	الرجز

الأوزان القصيرة والمجزوءة

8	الهج
5	المجتث
19	مجزوء الكامل
11	مجزوء الرمل
-	مجزوء الخفيف
4	مجزوء الوافر
3	مجزوء الرجز

2	مخلع البسيط
---	-------------

* القوافي

لم تحظ القوافي باهتمام الدارسين من قدماء ومعاصرين بما حظيت به الأوزان ، ولم تُنثر حولها من الآراء ما أثير حول الأوزان أيضاً ، وفي هذا يقول الدكتور يوسف بكّار : " إنَّ إهمال القدماء للقافية باستثناء ما خصّوا به عيو بها من تفصيل ، وأنهم _ باستثناء القرطاجيّ _ لم يوضّحوا العلاقة بين أغراض الشعر وأوزانه ، فإنهم لم يعرضوا للمسألة نفسها في القوافي سوى ما كان من ابن طباطبا العلوي الذي أشار إلى شيء من التناسب بين القوافي وأفكار الشاعر وأوزانه أيضاً ، وهو يتحدّث عمّا سمّاه بصناعة الشعر (1) ، فقال : " فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا ، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه " (2) .

ويضيف الدكتور يوسف بكّار قائلاً : " لم يفتن المعاصرون قبل سليمان البستاني إلى الملائمة بين أغراض الشعر وقوافيه ، وربما انتبه البستاني إلى ما جاء به ابن طباطبا فبيّن أنّ العرب كما نظمو جميع المعاني على جميع البحور ، كان شأنهم في القافية كذلك ، ولاحظ غنيمي هلال أنهلبيس ثمة قاعدة تربط حروف القوافي بموضوع الشعر كما هو الشأن في العلاقة بين بحور الشعر وموضوعاته . أما الدكتور محمد التويهي فيشير إلى المسألة وإلى إهمال البحث فيها عند القدماء ، واهتمام بعض المعاصرين بها . وكان _ التويهي _ ممّن يؤيّدون الرّبط بين القوافي والأغراض " (3)

- (1) _ بكار، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص246 .
 (2) _ ابن طباطبا ، محمد ، عيار الشعر ، ت:طه الحاجري ، محمد زغلول سلام ، فن الطباعة ، القاهرة ، 1956 م ، ص 5 .
 (3) _ بكار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص246 .

وقد قمت بإحصاء القوافي التي استخدمها العباس في ديوانه فوجدت أنه لم يُقَل في كلّ الحروف ، غير أنّ هناك حروفاً كان لها الصدارة ، وتلتها حروف آخر ، وأنّ ثمة حروفاً لم تُستعمل قطّ ، وهذه أهمّ نتائج إحصاء القوافي التي قال فيها العباس :

1_ كثرة القوافي المقيدة (1) ، وقد يكون مردّ هذا ملاءمتها للبحور القصار التي يصلح فيها التقييد من غير اعتماد على مدّ قبله .(2)

2_ انتفاء القوافي الحوش (3) فالخاء ، والظاء ، والغين ، والدال لا وجود لها في شعره .

3_ أكثر القوافي عنده القوافي الدلّ ، (4) فالباء تأتي بالدرجة الأولى ، وتليها الزاء ، والدال ، فاللام ، فالنون ، فالميم ، أمّا العين فقليلة نسبة إلى أخواتها ، وربما يعود ذلك إلى ما فيها من عُسر بالنسبة إلى غيرها من الدلّ ، (5) تليها القاف فالفاء .

4_ تتأرجح القوافي النفر(6) بين القلة والانعدام ، فالصّاد غير مستعملة عند العباس ، والزّاء استخدمها مرة واحدة ، أمّا ما تبقى فبين قليل وقليل جداً .

ولتوضيح بعض ما سبق من استخدام العباس بن الأحنف للقوافي التي أدار عليها أشعاره فهذا جدول توضيحي :

(1) _ القوافي المقيدة : هي التي يكون فيها الزوي ساكناً .

- (2) _ مجدوب ، عبد الله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، مطبعة اليبلي الحلبي ، القاهرة ، ط1 1955م ، 40/1 .
- (3) _ القوافي الحوش هي : (الته ، الخاء ، الذال ، الشين ، الطاء ، الغين).
- (4) _ القوافي الذل هي : (الباء ، الراء ، الدال ، النون ، الميم ، الباء ، العين) .
- (5) _ مجدوب ، عبد الله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب ، 1 / 63 .
- (6) _ القوافي النقر هي : (الصاد ، الزاء ، الضاد ، الطاء ، الهاء الأصلية ، الواو .

القوافي التي دار حولها شعر ابن الأحنف

العدد	حروف القوافي	العدد	حروف القوافي
2	ض	11	الهمزة
-	ط	110	ب
-	ظ	14	ت
23	ع	1	ث
-	غ	2	ج
18	ف	13	ح
27	ق	-	خ
13	ك	62	د
51	ل	-	ذ
49	م	84	ر
61	ن	1	ز
9	هـ	23	س
-	و	-	ش
3	ي	-	ص

الخاتمة

العَبَّاسُ بن الأحنف علم من أعلام العشق في أدبنا العربي ، عاش في العصر العبَّاسي الأوَّل ، وهو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغت فيه دولة المسلمين قمة مجدها في الثروة والحضارة والسيادة ، نشأ وتربَّى في بغداد في نعمة وثناء جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذي جُذِب إليه عامَّة الشعراء طلبًا للنوال والعطاء ، وشعر الهجاء الذي لا يلائم طبيعته الرقيقة ، فلم يكن من المتكسِّبين بالشعر كأمثاله من كبار شعراء عصره ، رغم قربيه واتصاله بالمهدي والرَّشيد كما يدلُّ على ذلك شعره ، فاتصاله بالرَّشيد كان اتصال ألفة لا اتصال تكسُّب ، حيث رافقه طيلة مدَّة حكمه وفهم أدق أسرارهِ النفسيَّة والعاطفيَّة حتَّى بات يتغرَّز بلسان الرَّشيد بجواريه ، ويرثي من يرثي منهم .

ومن خلال دراستي لديوان العبَّاس بن الأحنف وبعض المصادر والمراجع التي تناولت حياته وقصَّة حبِّه ، فقد توصلتُ إلى هذه النتائج :

* شعر العبَّاس بن الأحنف المصدر الوحيد الذي نلتمس منه رسم صورة المرأة عنده ، فهي حسنةٌ في خُلُقها وخُلُقها ، وليس أدلَّ علي افتتاحه بجمالها وشغفه بها تشبيهاته لها باليدر والشمس ، ومكانها في الفردوس ، فقد بلغ العبَّاس حدًّا رفيعًا من الإجادة في وصف المرأة وصفًا معنويًا غير حسِّي لم يكده يبلغه شاعر آخر من الشعراء العاشقين ، فهو شاعر المرأة الذي أكثر القول في وصفها وتكريمها ، والشغف بها دون النَّيل منها ، أو امتهان مكانتها ؛ بل كانت عنده دائمًا هي أنصع صورة ، وأرفع مكانة .

* أوقف العبَّاس بن الأحنف شعره على الغزل ، وكان مخلصًا في رسم صورة جميلة للحبِّ العفيف ، فقد جمع بين أحاسيس البداوة وطهر العذريَّة في مزاج من أسلوب الحضارة ، وطراوة المدينة ، وحسن النَّصرف ، وعفة المقصد ، فجاء شعره يجمع بين معاني وقاموس الغزليين من الحجازيين ، وشعراء الغناء كعمر بن أبي ربيعة ، ومعاني وتعبيرات وصور وألفاظ العذريين أمثال مجنون بني عامر ، وقيس بن ذريح ، وجميل بثينة ، إلَّا أنَّه عرض معانيه في معارض من اللفظ أكثر ظرفًا ورشاقة ومناسبة لعصره ، فابتعد عن غريب اللفظ وحوشيه ؛ فخرجت حلَّة جميلة صافية حسنة الإيقاع تلذُّ القلب والأذن ، وتعلق في سهولة بالأذهان ، فغزله عذري طاهر نقي يمتاز بجزالة الألفاظ وعذوبتها ورقتها ، وسهولتها الممتنعة ، وغزارة المعاني والخواطر ، وميلها إلى الشعبيَّة وقربها من لغة الحياة اليوميَّة .

* استعمل العبَّاس بن الأحنف كلَّ المعاني التي كانت في أيَّامه وأضاف إليها معاني مبتكرة لم ترد عند غيره من الشعراء ممَّا لاقت استحسانًا عند جمهور النقاد والأدباء في عصره ، واستشهدوا له بكثير من المعاني التي كان له فضل السبق فيها .

* أجمع من ترجموا للعبّاس على أنّ غزله كان أكثر الأشعار حظاً من الغناء ، وكان المغنّي الأديب الفنّان إبراهيم الموصلي كثير الإعجاب بشعره حتى إنّه لم يغنّ في شعر أحد من الشعراء أكثر ممّا غنى في شعر ذي الرّمة والعبّاس بن الأحنف .

* أوقف العبّاس شعره على الغزل ، وكان يتعمّد أن يتّخذ مسلكاً ويلتزم به منهجاً ، وصدّ عن الفنون الشعريّة الأخرى ، متحدّياً من أتهموه بقصر الباع ، وأراد أن يعلم العاشقين أسس وشرائع الحبّ العفيف ، ليكون أمام العاشقين المتعبّدين في محراب الحب ، الموحدّين بحبّ محبوبه واحدة لا يتعدّها إلى سواها ، متفنّناً بأساليب التّكتم ، والتّمويه ، وعدم التّصريح بشخصيّة المحبوبة ، فقد عاهد نفسه ألاّ يبوح باسمها ، أو يعرف بشخصيّتها صوتاً لعرضه لأن ما يمسه يمسه .

* فوز اسم مستعار كتّى به العبّاس محبوبته ، وذكر معها أسماء أخرى خوفاً من أهلها ومن أخيها وعمّها ، فهي حجازيّة ، مدنيّة ، شريفة ، مترفة ، منعمة ، مخدومة ، ذات جمال ودلال ، تتمتع بالعبقة والتّقوى والصّلاح ، أهلها وعشيرتها بالمدينة ، وهي ووالدها وبعض أهلها يقيمون بقصر الرّصافة ببغداد ، وقد اعتادت زيارة المدينة والبقعاء هناك زمناً ، كان شوقه يزداد إليها فيتبادلان الرّسائل وكانت كثيراً ما تمتنع عن الكتابة إليه خشية الرّقباء ، وبلغ من عشقه لها أنه عاش تجربته معها بكلّ ما اكتنفها من معاناة وآلام وعذاب وشقاء .

* كان العبّاس بن الأحنف صادقاً في حبّه لفوز ، وممّا يؤكّد ذلك استخدامه القسم بأنواعه ، مثل : أقسم ، والله ، عمرك الله ، لعمرى ، لعمرى ، والذي ، بأبي . وقد وردت عبارات القسم في الأبيات الآتية من شعره :

ولا والله ما أصبَحُ
على الهجران أصطَبِرُ
أما والله لو أنّي
سِتِ والأستارِ والحُجُبِ
والله ما أنساك ما
جَرَتِ الرّكابُ مع الرّكابِ
والله ما أصبَحْتُ أرجوكُم
إِلاّ رجاءً مُشبهِ الياسِ

فوالله ما أدري أغضي لذنيه
كأنّي لم أعلم بهـ أم أعاتبه
فوالله ما أدري أسلمكمُ لنا
أسرُّ وأحلى أم إذا كنتمُ حرباً
والله لو أنّ القلوبَ كقلبيها
مارقٌ للولدِ الصّغيرِ الوالدُ
والله لو لا نظري ، كلّما
غابتُ ، إلى الشّمسِ أو البدرِ
والله لا أسمعُ في حبكم
حتى أدوق الموتَ قول الوشاة

ووالله لو عدّدتُ ما بي من الهوى
لجرتُ ولكن لا أطيقُ له عدّاً
والله ما يخفى الذي بي من الهوى
عليك ولكن تشتكين على عمّد
والله لا أبغي سواك حبيبةً
ما أخضرتُ في الشّجر المورقِ عودُ
فوالله ما يدري أتدري بما جنّنتُ
على قلبه أو أهلكته وما تدري
أما والله لو تجدين وجدي
لقلقل ما وجدتُ إذا حشاك

تُ لِقَوْمٍ سِوَاكُمْ بِالْمُصَافِي
لَاخِرٍ مَا أَوْلَيْتَنِي أَوْ لِأَوَّلِ

فَوْزٌ وَاللَّهِ مَا مَلَلْتُ وَلَا كُنْتُ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي أَشْكُوكِ دَائِبًا

إِذَا مَا انْقَضَى فِيمَا تَقُولُ الْأَعَاجِمُ
ن فِي الدِّينِ أَنْ لَا يَرُدُّوا السَّلَامَا

و وَاللَّهِ مَا تَسْبَّهْتُ بِالْوَرْدِ عَهْدَهَا
و وَاللَّهِ مَا يَسَعُ الْمُسْلِمِي

فَأَقْسَمْتُ لَا تَزَالُ جَاهِدَةً
وَلَكِنْ لِعِلْمِي أَنَّهُ غَيْرُ نَافِعٍ
وَنَحْنُ سُكُوتٌ خَلْتَنَا نَتَكَلَّمُ
لِأَصْرِفَ عَنْكَ مَكْرُوهَ الْمَقَالِ
إِذَا مَا الْمَوْتُ مُعْتَمِدًا أَتَاهَا

تُفْسِدُ مَا بَيْنَنَا ، وَقَدْ فَعَلْتِ
فَأَقْسِمُ مَا تَرَكِي عِتَابَكَ عَنْ قَلِي
وَأَقْسِمُ لَوْ أَبْصَرْتُنَا حِينَ نَلْتَقِي
فَأَقْسِمُ مَا أَرَدْتُ الْهَجْرَ إِلَّا
فَأَقْسِمُ جَاهِدًا لَوَدِدْتُ أَنِي

إِلَيْهَا وَلَا كَفَى وَلَا خَانَكَ الْقَلْبُ
فَأَقْسِمُ لَوْ أَبْصَرْتَنِي مُتَضَرِّعًا
وَلَوْ قَدْ تَرَاعَى لِي لَمَا كُنْتُ أَسْتَعْفِي

فَأَقْسِمُ مَا خَانَكَ عَيْنِي بِنظرةٍ
أُقَلِّبُ طَرْفِي نَاطِرًا كُلَّ جَانِبِ
وَأَقْسِمُ مَا بِي عَنْهُ ضَعْفٌ بِحَالَةٍ

يَحْسَبُ النَّاسَ نِيَامًا
لَا أُجِدُ الرَّاحَةَ حَتَّى أَرَكَ
إِلَيْكَ عَلَيَّ بِلَاءً طَوِيلًا
نَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يُورُونَ نَارَا

إِنَّ مَنْ نَامَ لِعَمْرِي
أَنْتَ لِعَمْرِي عَارِفٌ أَنَّنِي
لِعَمْرِي لَقَدْ جَلَبْتِ نَظْرَتِي
لِعَمْرِي لَقَدْ جَعَلَ الْقَادِحُو

فَلِعَمْرِي مَا بِي إِلَيْهِ حَنِينٌ
وَلَا جَادَتْ عَلَيْكَ بِطِيبٍ زَادِ
وَبَيْنَ رَخِيٍّ بِالْهُ مُتَوَدِّعِ

عَمْرَكَ اللَّهُ صُنْ حَدِيثَكَ هَذَا
لِعَمْرِكَ مَا هُنَاكَ قُدُومُ فَوْزِ
لِعَمْرِي لَشَتَّى بَيْنَ حِرَّانَ هَائِمِ

هُوَ صَادِقًا إِنِّي لِمُسْتَوْجِبِ الْقُرْبِ
لَهْجَرٍ وَلَكِنْ كَثْرَةُ الرُّسُلِ تَفْضِخُ
إِذَا قَنِي الصَّبْرُ الَّذِي كَانَ يُذَخِّرُ
لِئَلْتَسَخِّلِصِنَّ صَبًّا وَصُولَا

لِعَمْرِي إِنْ كَانَ الْمُقَرَّبُ مِنْكُمْ
لِعَمْرِي مَا حَبَسِي كِتَابِي عَنْكُمْ
لِعَمْرِي لِنَعَمِ الْمُسْتَعَاثِ بِهِ الْبُكََا
فَلِعَمْرِي لِنِئِنِ وَصَلْتِ أبا الْفَضْدِ

وَأَنْزَلَ فُرْقَانًا وَأَوْحَى إِلَى النَّحْلِ
مَا فِي الْعِبَادِ لَكُمْ لَدِي مُعَادِلُ
لِنِئِنِ غَبَّتْ عَنْ عَيْنِي لَمَا غَبَّتْ عَنْ قَلْبِي

أَمَا وَالَّذِي نَاجَى مِنَ الطُّورِ عِبْدَهُ
لَا وَالَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ
أَمَا وَالَّذِي لَوْ شَاءَ لَمْ يَخْلُقِ النَّوَى

مَ عَلَى عَيْنِي وَنَامَا
بِ اشْتِيَاقًا وَهِيَامَا
فَأُ بِقُرْبِي مُسْتَهَامَا

بِأبي مَنْ حَرَّمَ النَّوَى
بِأبي مَنْ أَضْرَمَ الْقَلْدِ
بِأبي مَنْ كَانَ مَشْغُو

* أحبّ العباس بكلّ جوارحه ، والقارئ لشعره يلاحظ أنّ ما يقرب من عشرين جراحة اشتركت معه في محبّتها ، وفي الشوق إليها ، وفي عشقها ، وهذا دليل آخر على صدقه في حبها .

وهذه أعضاء وجوارح العباس بن الأحنف التي تنفعل بالمحبة :

- . الأعظم : بُرِيَتْ من المحبّة .
- . الدم : مسفوك ، ومسفوح .
- . الرأس : قد شاب من محبّتها .
- . الوجه : مُصْفَرّ ، ويشرق إذا رآها .
- . الخدّ : مُمرّغ في التراب لأجلها .
- . الأحشاء : فقد ألّهبت من الهوى .
- . كفّه : مشغولة بالكتابة لها دون ملل .
- . السّمع : يتشوّق إليها ، وإلى سماعها .
- . الرّيّق : قد جفّ من الجوى والهوى .
- . صدره : مستودع لحبّها ، ولا يُفشي سرّها .
- . كبدّه : يحترق من محبّتها ، والشوق إليها .
- . اللّب : مكلوم قد استولت عليه محبّتها .
- . البدن : نحيل ، ويُعبّر عنه بالجسم والجسد .
- . الرّوح : تُردّ إليه ، إذا هي كَلَمْتُهُ ولو بكلمة .
- . شبابه : أفناه في حبّها ، غير آسف على ذلك .
- . اللسان : يشكو من ألم الفراق الذي لا يُطاق .
- . الشّعْر في جسمه : يتحرّك شوقاً إليها ، وعشقاً لها .
- . النّفْس : تعبت من محبّتها ، وقد ذكر النفس فيما يقرب من ستين موطناً .
- . القلب : يتألّم ، وقد ذكر القلب فيما يقرب كذلك من مئتين وخمسين مرة .
- . العين : دائمة البكاء عليها ، ولقد ذُكرت العين وما يتعلّق بها من بكاء وغيره ما يقرب من مئتين وخمسين مرّة .

* تجربة العباس كانت سبباً في وجود مدرسة عُرفت باسم "مدرسة العشق الأحنفيّة" وكان لها قواعد وشرائع ومبادئ وأصول قامت على الوفاء والکتمان والخضوع والعفة . وكان هذا الشاعر العاشق قدوة يُقتدى بها في تطبيق هذه المبادئ وتحقيقها إلى درجة الفناء .

* اعتمد في صورهِ الشّعريّة على بعض أنواع المحسنات منها الطّباق ، والجناس ، والمشاكله ، وشعره غنيّ بالتشبيّهات الحضاريّة الأنيقة المبتكرة ، وأجمل الصّور عنده ما اعتمد على التّشخيص

* العباس بن الأحنف واحد من أرقّ الشعراء الغزليّين يحسن صياغة الحوار الشّعري ويتقن صناعة الحديث على لسان محبوبته .

* أبرز ظواهر الأسلوب عند العباس بن الأحنف ميله إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف لفظاً ومعنى .

* من أبرز المظاهر الحضارية عند العباس بن الأحنف الغزل بالرسائل والكتب ، فهي ظاهرة حضارية مبتدعة ، وهي صدى للعصر الذي كانت المرأة فيه تحيد القراءة والكتابة ، فما أكثر ما ضمّن وجده صفحة رسالة يبعث بها إلى محبوبته ، وما أوفر ما عبّر عن وجيب قلبه عبر كتاب دسّ به إلى من أذاقه حرارة الحبّ ، ولو عة الحرمان ، والعباس يحسن التصرف ويكثر التنويع في وصف الرسائل ، فيصف الرسالة نفسها خطأ وإملاءً وأنامل .

* يجمع العباس طرفي الإجابة في القول من خلال البحور الطويلة والقصيرة على حد سواء ، وعاطفته لا تفتر إذا ما استعمل البحور القصيرة والمجزوءة . وأراد أن يثبت للشعراء أنّ هذه البحور قادرة على أن تنطق بالجمال والإبداع ، وقد كان أكثر شعراء الغزل استعمالاً للبحور الشعرية ، والقوافي العصية ، وحروف الروي غير المألوفة عند شعراء الغزل العذري في العصر الجاهلي وعصر بني أمية .

أرجو أن أكون قد وفّقت في عملي هذا ، وأن ينال القبول ، فأنا لا أدعي له التمام والكمال ؛ لأنّ الكمال لله وحده سبحانه ، ولكنني بذلت أقصى طاقتي لإنجازه ، وأطلب المعذرة عن أيّ تقصير أو سهو قد وقع .

{وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [

يونس ، 11] .

{وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود،

88] .

صدق الله العظيم.
الباحثة .

فهرس المصادر والمراجع

- (1) _ القرآن الكريم .
- (2) _ الأصفهاني ، أبو الفرج ، الأغاني ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، 1390هـ _ 1970م .
- (3) _ أمين ، أحمد ، ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 10 ، 1935م ،
- (4) _ الأنطاي ، داود ، تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، دار حمد ومحيو ، بيروت ، ط 1 ، 1972م .
- (5) _ أنيس ، إبراهيم ، موسيقى الشعر ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط 3 ، 1965م .
- (6) _ البغدادي ، أحمد بن علي الخطيب ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1931م .

(7) _ بكار ، يوسف ، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، دار الأندلس، بيروت ، ط2 ، 1401هـ _ 1981م .

(8) _ البهيتي ، نجيب ، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دار الفكر ، ط4 ، (د.م)، (د.ت).

(9) _ الثعالبي، عبد الملك بن محمد ، التمثيل والمحاضرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ، 1961م .

(10) _ الجاحظ ، عمرو بن بحر :

* البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، 1968م .
* كتاب القيان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مطبعة السنّة المحمديّة ، القاهرة ، 1956م .

(11) _ الجرجاني ، عبد القاهر ، أسرار البلاغة ، دار المنار، مصر، ط3، 1939م .

(12) _ الجرجاني ، علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبّي وخصومه ، دار القلم ، بيروت ، 1966م .

(13) _ حاطوم ، عفيف ، الغزل في العصر العبّاسي الأوّل ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1996م .

(14) _ حتي ، فيليب ، تاريخ العرب ، دار الكشّاف ، بيروت ، ط 4 ، 1965م.

(15) _ ابن حزم ، علي بن أحمد ، طوق الحمامة في الألفه والآلاف ،

مطبعة حجازي ، القاهرة ، 1369هـ ، 1950 م .

(16) _ حسين ، طه ، حديث الأربعاء ، دار المعارف ، مصر ، ط 12 ،

1925م.

(17) _ الحصري ، إبراهيم بن علي ، زهر الآداب وثمر الألباب ،

منشورات وزارة

الثقافة ، سوريا ، ط 1 ، 1969م.

(18) _ الحموي ، ياقوت ، معجم الأديباء ، تحقيق :إحسان عبّاس ، دار

الغرب

الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1993 م .

(19) _ الحوفي ، أحمد :

*الحبّ المثالي عند العرب ، دار المعارف ، مصر ، (دبت) .

*أدب السّياسة في العصر الأموي ، دار النهضة ، مصر ، ط 2 ،

1965م .

(20) _ ابن خلكان ، أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان ، تحقيق : إحسان

عبّاس ، دار

الثقافة ، بيروت ، (دبت) .

(21) _ خليف ، يوسف ، الحبّ المثالي عند العرب ، دار المعارف ، مصر ،

(دبت) .

(22) _ الزركلي ، خير الدين ، معجم الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط13 ، 1998م .

(23) _ زكي ، أحمد ، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، دار الفكر ، دمشق ، ط 1 ، 1961 م .

(24) _ سعد الدين ، ليلي حسن ، العباس بن الأحنف ، مؤسسة الخافقين ، دمشق ، ط 1 ، 1402 هـ ، 1982 م .

(25) _ سلام ، محمد زغلول ، الأدب في عصر العباسيين ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1993م .

(26) _ الشكعة ، مصطفى ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1980م .

(27) _ الصولي ، محمد بن يحيى ، أخبار أبي تمام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1937م .

(28) _ ضيف ، شوقي : * الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 10 ، (د.ت).

- * العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، ط6 ، 1966م .
 * العصر الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ط6 ، (دبت) .

(29) _ ابن طباطبا ، محمّد ، عيار الشعر ، تحقيق: طه الحاجري ، محمد زغول سلام ، فن الطباعة ، القاهرة ، 1956 م .

(30) _ الطّبري ، محمّد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، مكتبة خياط ، بيروت ، ط1

(دبت) .

(31) _ عبد الواحد ، مصطفى ، دراسة الحبّ في الأدب العربي ، دار المعارف ،

مصر ، (دبت) .

(32) _ العسكري ، أبو هلال ، ديوان المعاني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط1 ،

1994م .

(33) _ الفاخوري ، حنّا ، تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البوليسيّة ، بيروت ، لبنان ،

ط8 ، (دبت) .

(34) _ فروخ ، عمر ، تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، 1975م .

(35) _ الفريح ، سهام ، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول ، شركة

الربيعان، الكويت ، ط1 ، 1981م .

(36)_ فيصل ، شكري ، تطور الغزل بين الجاهليّة والإسلام ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط7 ، 1986م .

(37)_ القالي ، إسماعيل بن القاسم ، الأمالي ، المطبعة الكبرى الأميريّة ، مصر ، ط1 ، 1324 هـ ، 1905م .

(38)_ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ط3 ، 1421 هـ ، 2001م .

(39)_ القيرواني ، الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ط1 ، 1353 هـ _ 1934م .

(40)_ ابن كثير ، البداية والنّهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، (د.ت) .

(41)_ مبارك ، زكي ، العشاق الثلاثة ، المطبعة العصريّة ، لبنان ، (د.ت) .

(42)_ مجدوب ، عبد الله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط1 ، 1955م .

(43) _ المرزباني ، معجم الشعراء ، تحقيق : عبد الستار أحمد فرّاج ، دار إحياء الكتب العربيّة ، (د.م) ، 1960م .

(44) _ المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرّجا للنّشر والطّبع ، (د.م) ، (د.ت) .

(45) _ ابن المعتزّ ، عبد الله ، طبقات الشعراء المحدثين ، تحقيق: عمر فاروق الطّباع ، دار الأرقم ، بيروت ، ط1 ، 1419 هـ ، 1998 م .

(46) _ ابن منظور ، معجم لسان العرب .

(47) _ موافي ، عثمان ، التّيّارات الأجنبيّة في الشعر العراقي، دار النّقافة الجامعيّة ، الإسكندريّة، (د.ت).

(48) _ ناصيف ، إميل ، ديوان الحبّ والغزل ، دار جروس، بيروت ، ط1 ، 1990م .

(49) _ ابن النّديم ، الفهرست ، تحقيق : يوسف علي طويل ، دار الكتب العلميّة ، بيروت، ط1، 1416 هـ ، 1996م .

(50) _ نعيم ، أنطون ، ديوان العباس بن الأحنف ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1416 هـ ، 1995 م .

(5) _ هذارة ، محمد مصطفى ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني

الهجري ،

دار المعرفة الجامعية ، ط3 ، 1981 م .

فهرس المحتويات

الموضوع

الصفحة

الأهداء

.....
.....

ح

الشكر والتقدير

.....

خ

الملخص

.....
.....

د _ ر
ملخص باللّغة الإنجليزية

.....

ز _ ش
المقدمة

.....
.....

ص _ ظ

الفصل الأول : نسب العباس وأخباره

1

وبيئته

المبحث الأول : نسب العباس
وأخباره.....

2 _ 6

قصة وفاة

العباس.....

7

المبحث الثاني : آراء كبار الأدباء والفنانين
بالعباس

8

14

المبحث الثالث : بيئة العباس	
العامّة	
15 _ 20	
المبحث الرابع : بيئة العباس الخاصة	
.....	
21 _ 26	

خبر

..... فوز

27

الفصل الثاني : الغزل قبل العباس وفي

28

زمنه

المبحث الأول : الغزل قبل
العباس

29

الغزل في العصر
الجاهلي

30 _ 32

الغزل في العصر
الراشدي

32 _ 34

الغزل في العصر
الأموي

34 _ 36

المبحث الثاني : الغزل زمن العباس (العصر
العباسي)

37

أنواع

..... الغزل

37 _ 41

المبحث الثالث : مكانة العباس بين شعراء
عصره ...

42 _ 44

المبحث الرابع : أسس العشق عند

العبّاس.....

45

الوفاء

.....

45 _

49

الخشوع

.....

56 _ 50

الكتمان

.....

68 _ 57

التصوّف والعفاف

.....

69 _ 68

اللوم والتشكي

..... والعتاب

74 _ 69

الفصل الثالث : صورة المرأة عند

العبّاس

75

المبحث الأول : المرأة عند

العبّاس.....

78 _ 76

العبّاس وفوز

.....

83 _ 79

العبّاس وظلوم

.....

85 _ 84

المبحث الثاني : صورة المرأة الحسّية.....	86
رواسب قديمة في غزل العباس.....	90 _ 86
البدوات واللمحات الحسّية.....	93 _ 91
التمنّيات.....	93
المبحث الثالث : المظاهر الحضارية في غزل العبّاس..	94
تبادل الهدايا.....	95 _ 94
وصف المحاسن	98 _ 96
المراسلة	108 _ 99
الزيارة	110 _ 109
نفسية المرأة	113 _ 111
حديث العيون	117 _ 114

المبحث الرَّابِع : صورة المرأة المعنويّة

.....

118

فتاة قصرية

..... مترفة منعمة

142_118

فتاة عفيفة

..... تقيّة سالحة

144 _ 143

الفصل الرَّابِع : دراسة فنيّة

145

المبحث الأوّل : أسلوب العبّاس ولغته

.....

168 _ 146

المبحث الثّاني : الصّورة الشعريّة عند

..... العبّاس

177 _ 169

المبحث الثّالث : المعاني عند ابن الأحنف

.....

186 _ 178

المبحث الرَّابِع : بناء القصيدة عند

..... العبّاس

188 _ 187

.....الأوزان

_ 189

193

جدول بالأوزان

..... عند العبّاس

194

القوافي

.....

196 _ 195

جدول بالقوافي

..... عند العباس

197

الخاتمة

.....

.....

205 _ 198

فهرس المصادر والمراجع

.....

213 _ 206

فهرس المحتويات

.....

216 _ 214

فهرس المحتويات

الموضوع

الصفحة

الأهداء

.....
.....

ح

الشكر والتقدير

.....

خ

الملخص

.....
.....

د _ ذ

ملخص باللغة الإنجليزية

.....

ز _ ز

المقدمة

.....
.....

س _ ض

الفصل الأول : نسب العباس وأخباره وبيئته

1

المبحث الأول : نسب العباس وأخباره.....

6 _ 2

قصة وفاة

.....العباس

7

المبحث الثاني : آراء كبار الأدباء والفنانين بالعباس

8

14

المبحث الثالث : بيئة العباس

.....العامّة

20 _ 15

المبحث الرابع : بيئة العباس الخاصة

.....

26 _ 21

خبر

.....فوز

27

الفصل الثاني : الغزل قبل العباس وفي زمنه

28

المبحث الأول : الغزل قبل

.....العباس

29

الغزل في العصر

.....الجاهلي

32 _ 30

الغزل في العصر

.....الرشدي

34 _ 32

الغزل في العصر

.....الأموي

36 _ 34

المبحث الثاني : الغزل زمن العباس (العصر العباسي)

37

أنواع

.....الغزل.....

41 _ 37

المبحث الثالث : مكانة العباس بين شعراء عصره...

42

44

.....المبحث الرابع : أسس العشق عند العباس.....

45

الوفاء

.....

45

49

الخشوع

.....

56 _ 50

الكتمان

.....

68 _ 57

التصوف والعفاف

.....

69 _ 68

اللوم والتشكي والعتاب

.....

74 _ 69

الفصل الثالث : صورة المرأة عند العباس

75

المبحث الأول : المرأة عند

.....العباس.....

78 _ 76

العباس وفوز

.....

83 _ 79

العباس وظلوم

.....

85 _ 84

المبحث الثاني : صورة المرأة الحسيّة.....	86
رواسب قديمة في غزل العبّاس.....	86 _ 90
البدوات واللّمحات الحسيّة.....	91 _ 93
التمثّيات.....	93
المبحث الثالث : المظاهر الحضارية في غزل العبّاس..	94
تبادل الهدايا	94 _ 95
وصف المحاسن	96 _ 98
المراسلة	99 _ 108
الزيارة	109 _ 110
نفسية المرأة	111 _ 113
حديث العيون	114 _ 117
المبحث الرابع : صورة المرأة المعنويّة	118
فتاة قصريّة مترفة منعمة.....	118 _ 142

فتاة عفيفة تقيّة
صالحة.....
 144 _ 143

الفصل الرَّابِع : دراسة فنيّة

145
 المبحث الأوّل : أسلوب العبّاس ولغته

 168 _ 146
 المبحث الثّاني : الصّورة الشعريّة عند العبّاس.....
 177 _ 169
 المبحث الثّالث : المعاني عند ابن الأحنف

 186 _ 178
 المبحث الرَّابع : بناء القصيدة عند العبّاس.....
 188 _ 187

الأوزان.....
 193 _ 189
 جدول بالأوزان عند
 العبّاس.....
 194
 القوافي

 196 _ 195
 جدول بالقوافي عند
 العبّاس.....
 197

الخاتمة

205 _ 198
 فهرس المصادر والمراجع

213 _ 206

..... فهرس المحتويات

216 _ 214